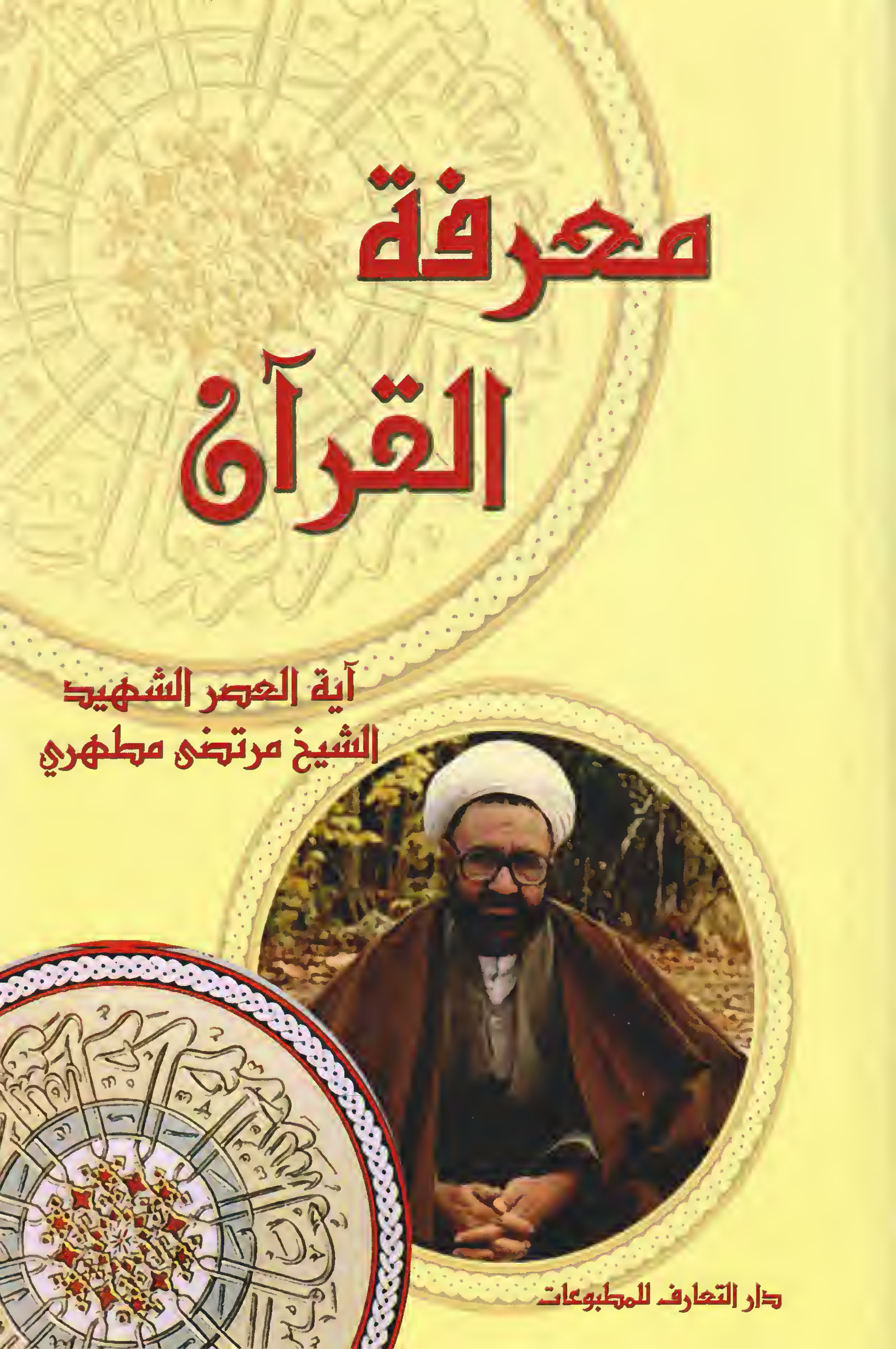

معرفة القرآن
آية العصر الشهيد
الشيخ مرتضى مطهري
دار التعارف للمطبوعات

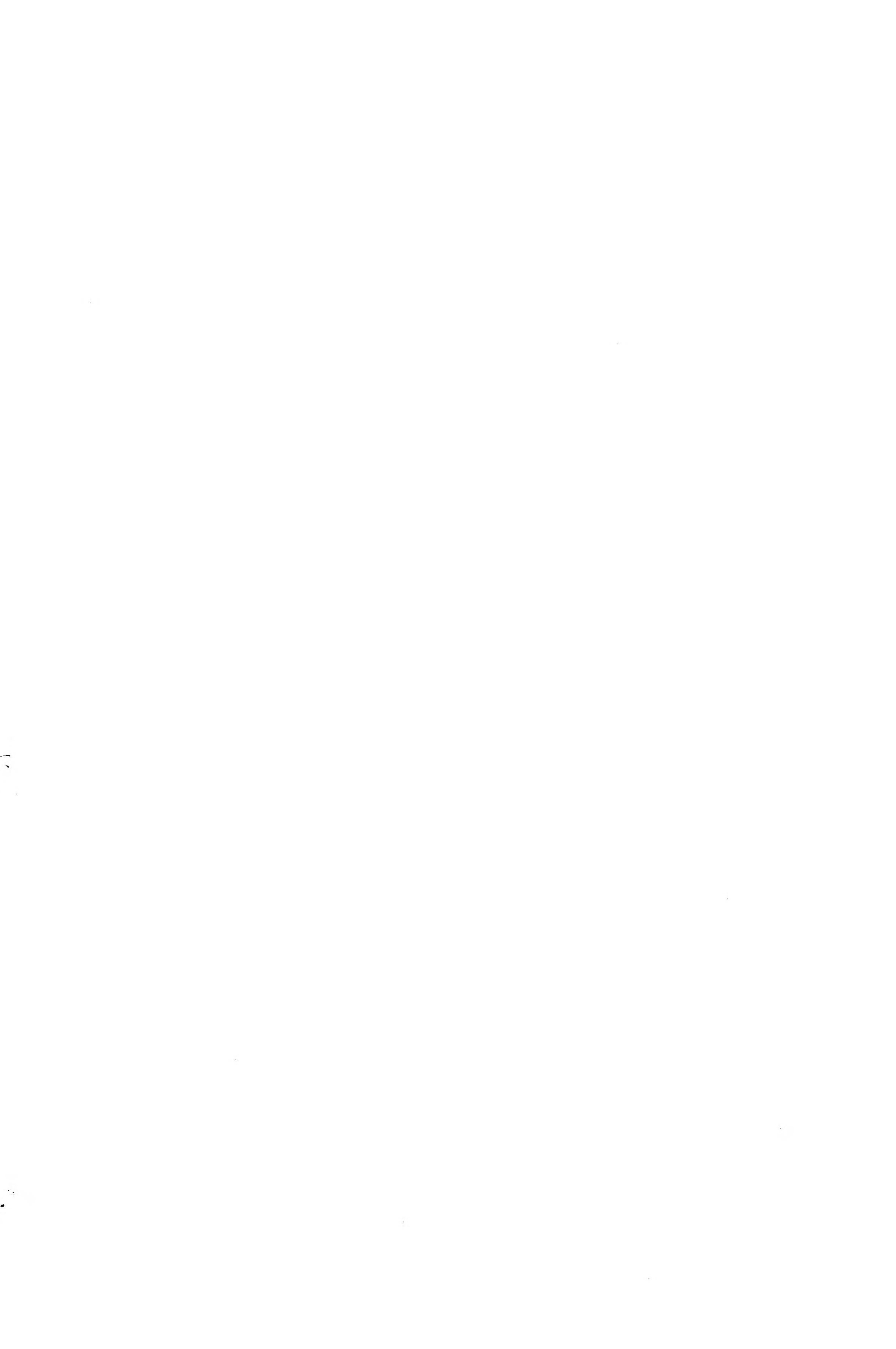


مُرتضى مُطهّري



جعفر صادق الخليلي

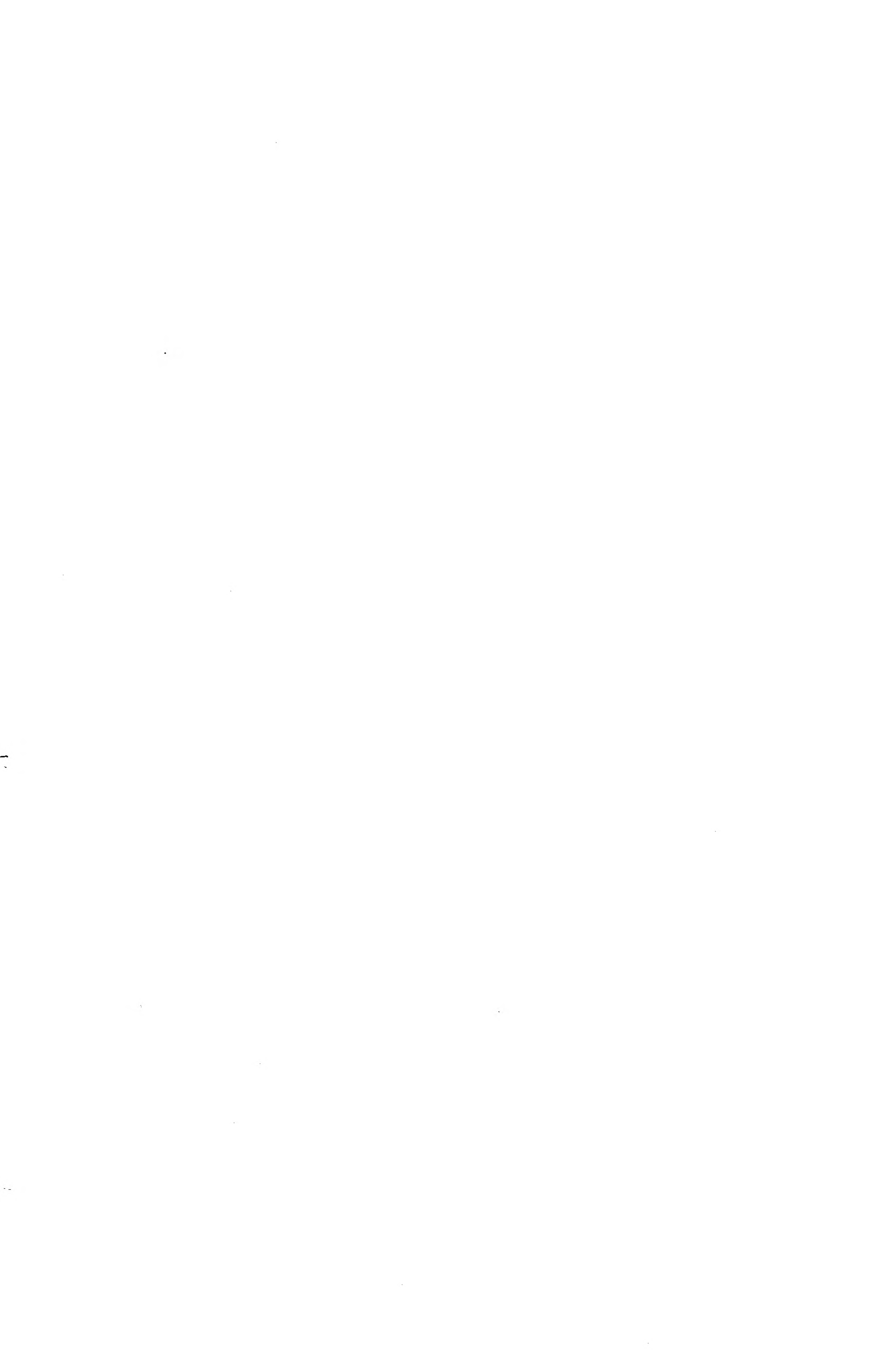
دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

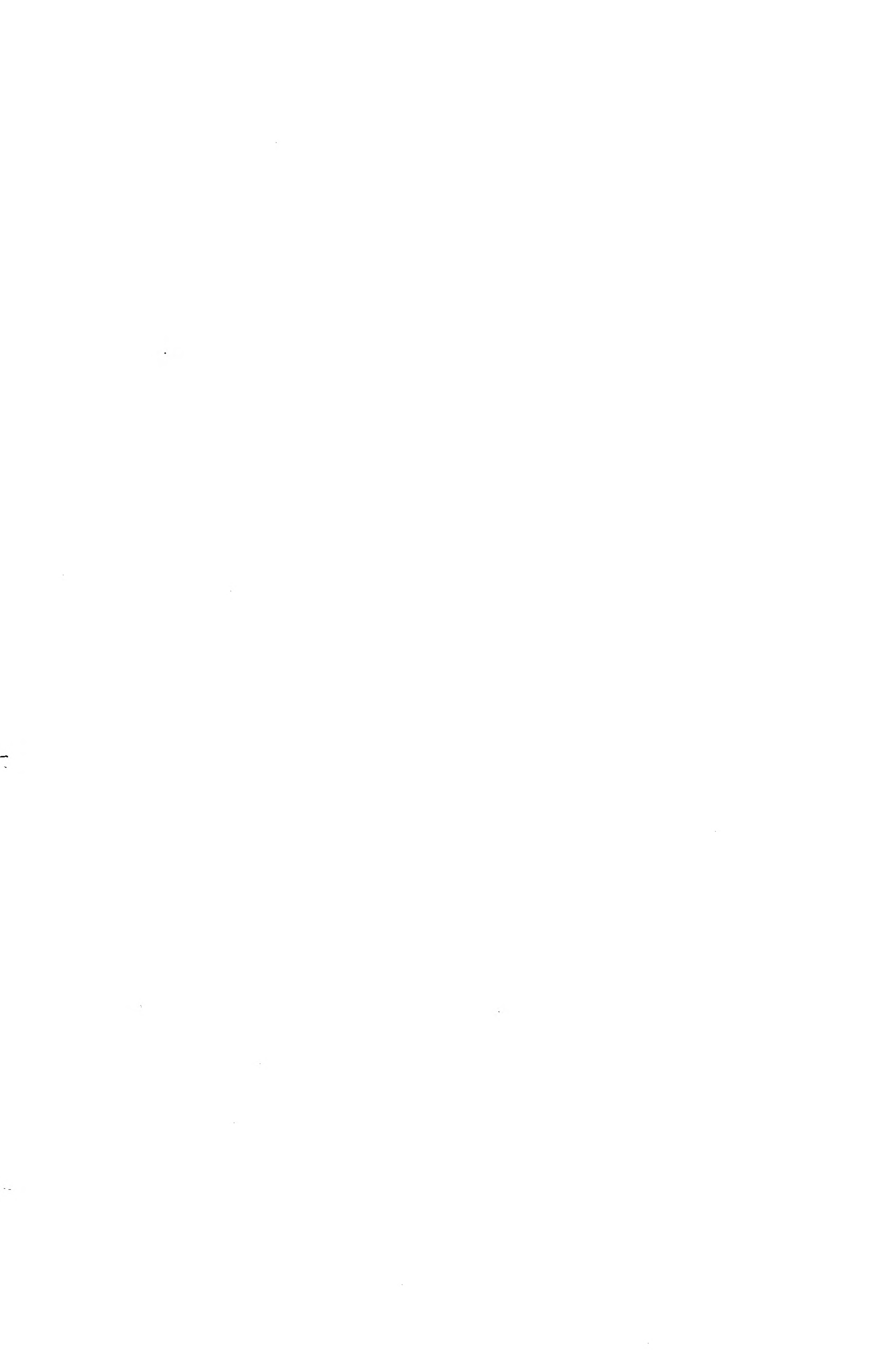


بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

« أوصي الطلبة الجامعيين الأعزاء ، والطبقة المثقفة المتنورة الملتزمة ألّا يدعوا الدسائس غير الاسلامية تنسيهم مطالعة كتب هذا الاستاذ العزيز » .

« الإمام الخميني »





كلمة المترجم

كثيراً ما كنت أجد عناء ، وأنا بعد شاب يافع ، في مطالعة كتب التفسير ، وتاريخ الإسلام والسير وفهمها ، بسبب صعوبة اللغة ، فكنت أجدني مضطراً إلى أن أتركها جانباً على مضض ، بالرغم من شغفي وولعي بالاستزادة من تلك المواضيع . وكان معي جمع من اصحابي لا يقلون عني ضيقاً بضعف إدراكنا للغة تلك الكتب التي كانوا يصفونها بالكتب الصفر .

بل لقد خاب ظننا حتى في خطبائنا الذين كان معظمهم يردد ما كان في بطون تلك الكتب الصفر نفسها ، دون أن يحاول التجديد فيها ، وتقريبها الى الأذهان ، وتبسيط لغتها ، لتشويق الناس إلى سماعها . كان الناس قد حفظوا عن الخطباء كل ما في « مقتل ابي مخنف » ، ويرددون معهم قصائد رثاء الحسين (عليه السلام) بالقريض وبالعامية ، ويروون كل رواياتهم وقصصهم ، ويتباكون ، لا تغيير ولا تبدل .

ثم سمعنا يوماً ان أحد مشاهير الخطباء الايرانيين قد قدم الى النجف الأشرف وانه سوف يخطب في جامع الهندي بضع ليال . كان ذلك قبل ثلاثين ونيف من السنين ، وكان اسم الخطيب ، اذا لم تخني الذاكرة ، الشيخ الطبسي (رحمه الله حياً وميتاً). وحضرت مجلسه مع آلاف غيري حتى اكتظ بهم المسجد على سعته .

وما انتهى من خطبته في الليلة الأولى ، حتى شعرت أن هذا ما كان ينقصنا ، وما نفتقر اليه نحن الشباب الذين كنا نريد أن نبدأ الفهم من البداية وبشيء من التجديد . لقد فسر لنا الشيخ الطبسي بعض الآيات الكريمة من القرآن المجيد ، وكان تفسيراً مزيجاً من التاريخ ، والفلسفة ، والمنطق ، والحديث ، والروايات المنقولة عن الأئمة (عليهم السلام) ، وحتى النكتة والنادرة (حدث في ليلة حارة ان فك الشيخ الطبسي حزامه ، وراح يمسح به العرق عن رأسه ووجهه ، ثم اعتذر عن ذلك بقوله إن حزامه أشبه بعصا موسى ، فهو حزام يوماً ، وعمامة يوماً آخر ، ومنديل لتجفيف العرق ، وسفرة يتناول عليها الطعام احياناً اخرى) .

وإذ عاد الرجل بعد تلك الليالي إلى بلده ، عدنا نحن نجتر ذكرياتنا منه ، وقد احسسنا أن الفراغ الذي

تـركه اخـطر بكثـير مما كنـا نـظن ، فقـد افتقـدنـا اسلوبـه الجديد ، وبساطة عرضه ، وسعـة اطلاعـه ولم ينفع معنـا ما أخـذ يردنـا بعد ذلـك من مصر ولبنان من الكتب الجـديـدة لكتـاب افاضـل . صحيح انها كـانت كتباً عـظيمةً رائعـةً ، إلا أنها كـانت قـد كتب للتـاريخ ، وللنخبـة من النـاس ، وليس للناس العاديين من الطبقات المتوسطة .

لقد كانت السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية سنـوات حـرب اعنف وأشـد ، حـرب العقـائـد والأفكـار والايـديولـوجيات التي وفـدت عـلى الشـرق مـع مـاورد من الغـرب من بضـائـع وعـادات . إلا أنها كـانت حـربـاً غـير متكـافئة ، وقـودهـا الـطبقـة الكـادحـة ، والشبـاب المثقف الأعـزل ، الذي لـولا تأصـل فطرتـه الدينيـة وتشبثه بمبـادئه الأصيلة ، لجرفه التيار العارم . ومع ذلـك فالخسـائر لم تكن قليلة ، فقد اخذ التيار الكثير ، ولقـد كان بـالإمكان تقليـل الخسـائر إلى ادنى حـد ، لو ان المـدافعين كـانوا قـد تسلحوا بمثل ما تسلح به رجال الـدين الأفاضـل في ايران ، فهم إلى جـانب تضلعهـم في العـلوم الـدينيـة ، درسـوا العـلوم الحـديثة ، واخـذوا من لغة العصر جـانباً مهـماً اعـانهم عـلى إيصـال الأسس التي بني عليهـا الإسـلام إلى قلوب الكثـرة الكـاثـرة من عمـوم أبناء الشعب ، بلغـة سهلة ، ومنـطق سليم ، وقـرع الحجة بـالحجة ، ودحض المفتـريات بـالأدلة

الـدامغة ، مما حفظ لـلأمـة الاسـلاميـة في ايـران وحـدتهـا وتوحدها ، وتمسكها بعلمائها الأعلام .

واليوم ، وانا نزيل طهـران ، أجدني محـاطاً بحشـدٍ من خيـرة العلماء المتنـورين المجـاهـدين ، وبفيض من الكتب القيمة التي تعين عامة الناس على التمسك بالإسلام ديناً ، وخلقاً ، وسلوكاً .

ولقـد اتـاح لي حسن الحظ ان أقـوم بجـولـة مـاتعـة في مجموعة مؤلفـات الأستاذ الشهيـد مرتضى مـطهري ، اطـاعة لوصية امام الأمة ، وإذا بي استرجع ذكرى الأيام الخـوالي ، وإذا بالكلمة تند من فمي « وجدته » .

نعم وجـدته ، فهـذا انسان عـرف نفسه ، وعـرف بني جلدتـه ، وعرف ما ينبغي لهم ، فقـدمـه في تـدرج سليم ، وفي لغـة سائغـة ، خطبـاً ، ومحـاضـرات ، وكتبـاً ، بخبـرة الـطبيب النـطاسي العـارف بـالـداء ، والعـارف بـالـدواء ، فيصفـه بنيّة خـالصة تقـرباً إلى الله تعـالى . فما كـان مني إلا أن عقـدت العـزم ، بعـون الله عـلى أن أقـدم هـذه الكتب النفيسـة إلى أبناء اللغـة العربيـة ، تلك اللغة الشـريفة التي مـا فتيء شهيدنـا الاستاذ مـطهري ينـادي في كتبـه بضـرورة تعلمها وتعميمها حتى في المدارس الإبتدائية .

وإنـي إذ اضـع اليوم بـين يـدي القـاريء العـربي هـذا الكتـاب الأول من سلسلة « القرآن » ليحـدوني الأمل في ان يمد الله تعالى في توفيقي ، فاقدم ما بقي من كتبـه ودراساتـه وبحـوثه ،فأكون قد حققت بذلك مـا كـان ينبغي ان يتحقق من قبل لسد الفـراغ الذي مـا زلنا نحسـه في نفوس شبيبتنـا وطلابنا حتى اليوم .

ولا يسعني هنا إلا أن اسجل تقديري وشكري لمؤسسة « بنيـاد بعثت » التي كـانت سببـاً في مـا حبـاني بـه الله من توفيق ، والله لا يضيع اجر من أحسن عملاً .

جعفر صادق الخليلي

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

« معرفة القرآن » . سلسلة من الخطب ، كان الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري يلقيها في جلساته الأسبوعية التي كان يعقدها في طهران .

كان الاستاذ مطهري خلال الخمس والعشرين سنة من إقامته في طهران ، يعقد جلسات متنوعة مع مختلف الطبقات ، أسبوعية ، أو شهرية ، أتت أكلها ثمراً يانعاً . ومن جملة تلك الجلسات ، كانت جلسته الأسبوعية لتفسير القرآن ، والتي كان يحضرها العامة من أبناء الشعب .

ولا شك في إنه لو كان الاستاذ الشهيد قد ألقاها في مجمع علمي ، بما كان لديه من إحاطة شاملة بالعلوم الاسلامية ، وبما امتاز به من دقة النظر ، ومن عشق عميق

للقرآن ، لكان لتفسيره شأن آخر . و لكن بالنظر إلى طبيعة تكوين المجتمع العلمي ، خليق بنا أن نقول ان الاستاذ لم يكن يرمي إلّا إلى أن يتعرف العامة من المستمعين على القرآن الكريم .

لا نعلم بالضبط في أية سنة بدأ الاستاذ بهذه البحوث ، ولا من أي جزء من القرآن بدأها ، ولكن بعض القرائن تدل على أنه قد بدأ بسورة مريم حتى نهاية القرآن ، ثم عاد من بداية القرآن حتى الآية الثالثة والعشرين من سورة البقرة .

على كل حال ، إن ما هو موجود بين أيدينا واستخرجناه من أشرطة التسجيل ، يشمل الجزء ٢٩ و ٣٠ من القرآن (مع فِقدان بعض السور) وتفسير سورة الفاتحة والبقرة ، بالاضافة الى ما ورد في هذه المجموعة . ولكننا نرى أنها ربما تكون قد بحثت بعد سنوات من تسجيل الجزءين ٢٩ و ٣٠ إذ إن هذا القسم يحتوي على وجهات نظر جديدة .

كانت هذه البحوث قد بدأت في فترة أخذت فيه بعض الجهات المنحرفة والمدعية بتفسير القرآن تفسيراً يتماشى مع ميولها وأذواقها ، ومع أسس المادية . ولعل الاستاذ الشهيد مطهري هو أوّل من تنبه إلى ما يجري

واكتشف مواضع الانحراف، فدق ناقوس الخطر بشدة، وراح يكتب ويخطب كلما وجد فرصة مناسبة، يكشف فيها ذلك الأعوجاج والانحراف. ومن ذلك هذه التفاسير القرآنية التي كان يرد بها على تخرصاتهم، ويدافع بها عن الحقائق القرآنية دفاع المستميت، حتى دفع في النهاية حياته ثمناً لذلك.

وفي السنوات الأخيرة من حياته، كثيراً ما طولب الأستاذ بتدوين هذه البحوث وطبعها ونشرها، بعد أن كانت مسجلة على أشرطة التسجيل، لكي تكون في متناول الجميع. وبقي الأستاذ ينتظر الفرصة المناسبة، إلا إنه اضطر أخيراً إلى أن يعهد إلى أحد أصدقائه بمهمة إعداد تلك البحوث وتحضيرها للنشر.

لقد بوشر في العمل بتفسير سورة الفاتحة، وبعض من سورة البقرة، تحت نظر الأستاذ الذي أجرى عليها بعض التعديلات والأضافات، قبل أن يقع له الحادث المفجع. فتوقف كل شيء عدا تفسير الجزءين ٢٩ و ٣٠ من القرآن، اللذين أعدا للنشر بعد حذف الجمل المتكررة المألوفة في الخطب.

كان الأستاذ الشهيد قد بدأ سنة ١٣٥٢ هـ. ش بإلقاء سلسلة من المحاضرات في « كلية صناعة شريف » بعنوان

« معرفة القرآن » ، على أن تكون مدخلاً لسلسلة من البحوث العقائدية العميقة الرئيسة حول معارف القرآن ، ولكنها توقفت على إثر اضرابات الطلبة في تلك السنة ، وقيام الحرس المأجور بمهاجمة قاعات الدرس ، وتعطيل الدراسة في الجامعة . كل الذي بقي ذكرى من تلك المحاضرات خمس خطب ، أعدت وهيئت لتكون مدخلاً إلى تفسير القرآن المدرج في هذا الكتاب ، ونشر كجزء أول له .

من المأمّل أن تكون هذه المجموعة ، مثل باقي آثار الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري القيمة والتي تعتبر فريدة في بابها ، أو قليلاً نظيرها ، موضع تقدير القراء وفائدتهم .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة القرآن :

إن معرفة القرآن لكل فرد عالم باعتباره عالماً ، ولكل فرد مؤمن باعتباره مؤمناً ، أمر ضروري وواجب . إلا أن ضرورة معرفة القرآن لعلماء النفس ولعلماء الاجتماع ، تتأتى من حقيقة أن هذا الكتاب كان ذا تأثير على المجتمعات الاسلامية ، بل وفي مصير المجتمع البشري برمته

إن نظرة إلى التاريخ ، تؤيد القول بأنه لم يكن لأي كتاب ما كان للقرآن من الأثر في المجتمعات الانسانية والحياة البشرية[1] . ولهذا يدخل القرآن عنوة إلى ميدان علم

---

(١) اما من حيث اتجاه الأثر ، وهل كان نحو تغيير سير التاريخ باتجاه سعادة البشر ورفاههم ، أم باتجاه التفسخ والانحطاط ، أو انه بسبب هذا الكتاب ظهرت في التاريخ وثبة وحركة . فسرت في عروق المجتمعات البشرية دماء جديدة ، أو انه العكس . ذلك موضوع خارج عن نطاق هذا البحث .

الاجتماع ، ويصبح جزءاً من مواضيع بحث هذا العلم .وهذا يعني أنّ إجراء أية دراسة أو تحقيق حول تاريخ العالم خلال الأربعة عشر قرناً الماضيات ، ومعرفة المجتمعات الاسلامية على وجه الخصوص ، لا يمكن ان يتيسر قبل أن نعرف القرآن .

أما ضرورة معرفة القرآن للمسلم المؤمن ، فناشئة من كونه أصل إيمان المسلم ، ومنبع دينه وأساس فكره ، فما يمنح حياة المسلم حرارتها ومعناها وحرمتها وروحها إنما هو القرآن .

والقرآن ليس كباقي الكتب الدينية التي تطرح سلسلة من المسائل الغامضة فيما يختص بالله والخليقة والتكوين ، ومن ثم يتقدم بسلسلة من المواعظ الأخلاقية الساذجة فحسب ، بحيث أن المؤمنين لا يرون مندوحة عن اللجوء إلى مصادر أخرى يستقون منها القوانين والأفكار .

إن القرآن يبين أصول المعتقدات والأفكار والآراء اللازمة للإنسان كفرد « مؤمن » وذي عقيدة ، وكذلك يضع أصول التربية والأخلاق والنظام الأجتماعي والأسري ، ولم يترك على عاتق السنة أو الاجتهاد سوى ما يتطلبه التوضيح ، والتفسير ، والتشريح ، والاجتهاد احياناً ، وتطبيق الأصول على الفروع لذلك فكل رجوع الى أي

مصدر آخر ، يقتضي أولاً الرجوع إلى القرآن ومعرفته . إذ أن القرآن هو المقياس والمعيار لكل المنابع الأخرى . فالحديث والسنة علينا نقيسهما بمعيار القرآن لكي نرى إن كانا يطابقان القرآن فنتقبلهما وإلا فلا .

إن أهم مصادرنا المقدسة ـ بعد القرآن ـ في الحديث هي « الكتب الأربعة » . وهي : « الكافي » و« من لا يحضره الفقيه » و« التهذيب » و« الإستبصار » ، وفي الخطب « نهج البلاغة » ، وفي الأدعية « الصحيفة السجادية » . إلا إنها جميعاً فروع من القرآن ، وليست لها قطعية بت القرآن . أي إن إعتبارنا لحديث الكافي ، يعتمد على مقدار تطابقه مع القرآن وتعليماته . وعلى ألا يكون بينهما اختلاف . كان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الأطهار يقولون : اعرضوا أقوالنا على القرآن ، فما لم ينطبق عليه منها ، فاعلموا إنه موضوع ومختلَق ومنسوب إلينا . فنحن لا نقول ما يخالف القرآن .

انواع معرفة القرآن :

أما وقد شخصنا ضرورة معرفة القرآن ، فقد بقي أن نعرف طرق معرفة هذا الكتاب . إن لمعرفة كل كتاب ودراسته ، عموماً طرقاً ثلاثاً :

الأول : المعرفة السندية أو الإنتسابية :

في هذه المرحلة ، نسعى لمعرفة مدى انتساب الكتاب إلى مؤلفه . فلنفترض اننا نريد معرفة ديوان حافظ (الشيرازي) أو خَيّام . إن الخطوة الأولى هي أن نرى إن كان ما يطلق عليه اسم ديوان حافظ كله من نظم حافظ ، أو إن بعضاً منه فقط من نظمه ، وإن بعضه الآخر مضاف إليه . كذلك الأمر بشأن خيام وغيره .

وهنا تبرز قضية تعدد النسخ ، وعلى الأخص أقدمها تاريخاً واكثرها اعتباراً ، فنلاحظ إن أياً من هذه الكتب لا يستغني عن المعرفة والتمحيص . فديوان حافظ الذي طبعه المرحوم القزويني ، إستناداً إلى اكثر النسخ اعتباراً ، يختلف اختلافاً بيناً عن دواوين حافظ المعروفة التي طبعت في ايران أو في بمبي ، والتي يحتفظ بها الناس في دورهم . فالدواوين التي طبعت قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة تكاد تبلغ ضعفي حجم الدواوين التي يعتمدها الباحثون اليوم . على الرغم من إننا نجد بين الأشعار التي يعتبرها الباحثون منحولة أبياتاً لا تقل جودة عن شعره الموثوق .

وعندما ننظر إلى الرباعيات المنسوبة إلى خيام نجد ثمة ٢٠٠ رباعية تكاد تكون متقاربة المستوى ولا يتعدى ما

فيهـا من اختـلاف تلك الحـدود المتعـارف عليهـا عنـد الشعـراء . ولكننا كلما تقـدمنـا تـاريخياً مقتـربـين من عصر الخيـام نجد أن مـا لا يشـك في نسبتـه إلى الخيـام من ذلـك العـدد لا يتجاوز عشرين ربـاعيـة . والبـاقي إمـا أن يكـون مشكوكاً في انتسابه إليه ، أو أنه لشعراء آخرين حتماً .

وعليه ، فإن المرحلة الأولى في معرفـة كتاب مـا هي أن ننـظر إذا كان مـا بين أيـدينا يمكن إسنـاده إلى مؤلفه أم لا . وإلى أي مدى يصح ذلك . هل إن مستنـداتنا تؤيـد كل مـا بـين أيـدينـا ، أم أنها تصـح عـلى بعض دون بعض ؟ وفي هـذه الحالـة ، ما هي النسبـة المئويـة لصحـة المنسـوب إلى المؤلف ؟ ثم ما دليلنا على صحة الانتسـاب ، أو على الشـك في الانتساب ؟ .

إن القرآن غني عن هذا النوع من المعرفـة ، وهـو ، لهـذا السبب ، كتاب فريد بابـه في العالم القـديم ، فما من كتـاب بين الكتب القـديمة يمكن ان تمـر عليـه قـرون طـويلة ويبقى مـع ذلك لا تنـاله شبهـة أو اعتراضـات من قبيل أن تكـون السورة الفلانية مشكوكٌ فيها ، أو أن الآية الفـلانية مـوجودة في النسخـة الفـلانيـة وغـير مـوجـودة في غيـرها ، ليست مـطروحـة اسـاسـاً . إن القـرآن متقـدم عـلى النسخ وعلم المعـرفـة بـالنسـخ ، فليس ثمـة أدنى شـك في إن الـذي أتى

بجميع تلك الآيات هو محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على اعتبار أنها معجزة ، وأنها كلام الله . وإن أحداً لا يستطيع أن يدعي بوجود نسخة مختلفة من القرآن ، ولا الزعم باحتمال وجودها . ولم يظهر من المستشرقين أحد يحاول تناول القرآن من هذه الناحية ، ليقول إن علينا أن نبحث عن نسخ القرآن القديمة جداً لكي نرى ما فيها وما ليس فيها ولئن كانت كتب مثل التوراة والإنجيل والأفستا ، أو مثل « شاهنامة » فردوسي و « كلستان » سعدي وغيرها تستلزم هذه الطريقة، فإن القرآن غني عن كل ذلك .

في هذا الموضوع سبق أن قلنا إن القرآن متقدم على النسخ والعلم بالنسخ ، فهو فضلاً عن كونه كتاباً مقدساً سماوياً وينظر إليه أتباعه من هذا المنظور ، فإنه أقوى دليل وبرهان على صدق دعوى الرسول وأكبر معجزة من معاجزه .

ثم إن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كالتوراة لتظهر عندئذ مشكلة التساؤل عن النسخة الأصلية ، بل تتابع نزول القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة . ومنذ اليوم الأول من نزوله أخذ المسلمون يعبون منه مثلما يعب العطشان من ماء الفرات عباً ، فكانوا يستوعبون آياته ويحفظونها في

قلوبهم. حيث كان المجتمع الاسلامي يومئذٍ مجتمعاً بسيطاً وليس عنده كتاب آخر يقرؤه ويحفظه إلى جانب القرآن، فكان يمتاز بخلو الذهن وقوة الحافظة. كما إن تفشي الأمية بينهم حملهم على أن يتناولوا معلوماتهم ومعارفهم من بين ما يرون ويسمعون.

لذلك فقد ارتسم القرآن على قلوبهم ـ وهو الذي نزل منسجماً مع ما لديهم من عاطفة وإحساس ـ ارتسام النقش على الحجر. ولما كان القرآن عندهم كلام الله، لا كلام بشر، فقد راحوا ينظرون اليه بتقديس، ولا يسمحون بأن يتبدل فيه حرف واحد ولا أن يتغير مكان كلمة واحدة تقديماً وتأخيراً، بل كانوا لا يفتأون يتلونه ويرتلونه تقرباً إلى الله تعالى. ولا بد ان نذكر ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد انتخب منذ الأيام الأول عدداً من الكتبة عرفوا باسم « كتاب الوحي ». هذه ميزة أخرى تضاف إلى مميزات القرآن لم تكن من نصيب أي كتاب آخر. إذ إن تدوين كلام الله منذ البداية يعتبر من جملة الأسباب الرئيسة في حفظه وصيانته من التحريف.

* * *

إن من المظاهر الأخرى التي كانت سبباً في حسن استقبال الناس للقرآن، هو جانبه الأدبي والفني الرفيع.. جانب

فصاحته وبلاغته . كانت لقوته الأدبية جاذبية تشد الناس إليه شداً وتحملهم على سرعة استيعابه ، بخلاف ما هو عليه الأمر بشأن كتب الأدب الأخرى ، مثل ديوان حافظ وأشعار مولوي وغيرهما ، فقد كان المولعون بها لا يتحرجون من التلاعب بما فيها لكي يزيدوها اكتمالاً على ما يدعون . إلا أن أحداً لم يجز لنفسه أن يمد يداً في القرآن ، وقد نزل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا الوَتِينَ ﴾(١) .

وآيات غيرها تبين وخامة التقول على الله سبحانه . وعلى ذلك ، وقبل أن يطرأ أي تحريف على هذا الكتاب السماوي ، تواترت آياته حتى بلغت مرحلة لم يعد بالإمكان معها حدوث أي تصحيف أو تحريف أو انكار . ولهذا فلسنا بحاجة إلى أن نبحث هذا الجانب من جوانب القرآن ، كما لا يحتاج ذلك أي خبير متضلع في القرآن . بيد أننا لا بد أن نتطرق إلى نقطة بهذا الخصوص ، وهي إنه على أثر سرعة انتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجاً ، وبسبب ترامي اطراف بلاد المسلمين وبعدها عن

---

(١) الحاقة ـ آية : ٤٤ ـ ٤٦ .

المدينة المنورة ، مركز الصحابة وحفظة القرآن ، فقد ظهر احتمال وجود خطر يهدد القرآن ، وعلى الأخص في المناطق النائية ، حيث يمكن أن يقوم بعضهم من باب التعمد أو السهو ،بإضافة أو حذف أو تغيير في نسخ القرآن هناك ، غير إن ذكاء المسلمين وحسن تقديرهم للأمور ، حال دون وقوع هذا الإحتمال ، إذ إنهم تنبهوا إلى ذلك مبكراً في النصف الأول من القرن الأول الهجري ،وأدركوا أن عليهم أن يدرأوا خطر أي تغيير متعمد ، أو غير معتمد في القرآن ، فاستفادوا من حفظته ومن الصحابة . وأرسلوا نسخاً مصدقة من المدينة إلى تخوم الإسلام البعيدة ، وبذلك وقفوا بوجه أي تخريب من هذا القبيل ، وعلى الأخص بوجه اليهود الذين كانوا أساتذة فن التزوير والتحريف المشهورين .

الثاني : المعرفة التحليلية :

في هذه المرحلة يكون تحليل الكتاب هو موضع الدراسة ، أي دراسة ما يشتمل عليه الكتاب من مطالب ، وما يقصد إليه من أهداف ، ما هي نظرته إلى الكون ؟ وإلى الإنسان ؟ وإلى المجتمع ؟ ما هي طريقة عرضه لتلك المطالب وأسلوب معالجته إياها ؟ أينطوي على

منظور فلسفي ، أو كما نقول اليوم ، أفيه منظور علمي ؟ أينظر إلى الأمور بعين العارف ، أم أن له أسلوبه الخاص ؟ وثمة سؤال آخر : أيحمل هذا الكتاب رسالة ما موجهة للبشرية ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب ، فما هي تلك الرسالة ؟ .

في الواقع إن المجموعة الأولى من الأسئلة تتعلق بوجهة نظر الكتاب في الكون والإنسان والحياة والموت ، أو بعبارة أشمل تتعلق بوجهة نظره الكونية ، وهو ما يصطلح عليه فلاسفتنا اليوم بحكمته النظرية . أما المجموعة الأخرى من الأسئلة فتتعلق بما إذا كان الكتاب يعرض خطة لمستقبل الإنسان ، وعلى أي طراز يريد أن يبني الإنسان والمجتمع ؟ وهذا ما نطلق عليه اسم : رسالة الكتاب .

على كل حال ، هذا الضرب من المعرفة يخص المحتوى ، ويمكن إخضاع أي كتاب إلى هذه المعرفة سواء أكان كتاب « الشفاء » لابن سينا ، أو ديوان « كَلستان » لسعدي .. وقد نجد كتاباً ليس فيه (منظور) ولا (رسالة) أو قد يكون له (منظور) بغير رسالة ، أو قد يضمهما كليهما .

* * *

اما من حيث معرفة القرآن معرفة تحليلية ، فينبغي علينا أن نعرف المسائل التي يتناولها وكيفية تناوله إياها ، وكيف تكون استدلالاته ومجادلاته في مختلف المواضيع .

وإذا كان القرآن حارس الإيمان ومحافظاً له ، ورسالته رسالة الايمان ، فهل ينظر إلى العقل بعين الرقيب المنافس محاولاً صد هجماته ، أو انه بالعكس ينظر دائماً إلى العقل بعين الحامي والمدافع محاولاً الاستعانة به ؟ هذه الأسئلة ، ومئات غيرها مما يطرح خلال المعرفة التحليلية ، هي التي تقودنا إلى إدراك ماهية القرآن .

الثالث : معرفة الأصل :

في هذه المرحلة ، وبعد الاطمئنان إلى نسبة الكتاب إلى مؤلفه ، وبعد التحليل التام لمحتواه ، علينا أن نبدأ البحث لنعرف إن كانت محتويات الكتاب ومطاليبه من إبداعات فكر المؤلف نفسه ، أم إنها مدينة إلى افكار الآخرين . ففيما يتعلق بديوان حافظ ، مثلاً ، وبعد الإنتهاء من مرحلتي المعرفة المستندية والمعرفة التحليلية ، علينا ان نتساءل إن كانت هذه الأفكار والآراء التي أفرغها حافظ في قوالب الكلمات والجمل والأبيات ، وعبر عنها بلغته الخاصة ، قد ابتدعها بنفسه ، أم إن ابوتّه لها إنما

تقتصر على الألفاظ والكلمات وجمالها الفني فحسب ، وإن الأفكار والآراء تخص غيره من الناس ؟ وبعبارة اخرى إننا بعد ان نتأكد من اصالة حافظ الفنية ،ينبغي أن نتأكد من اصالته الفكرية ايضاً[1] .

---

(١) إذ يمكن أن يكون حافظ مجرد فنان لا مفكراً ولا عالماً ، ولكنه ايضاً يمكن يكون في الوقت نفسه فناناًوعالماً معاً . إنما الذي نسلم به هو أن حافظاً كان عالماً قبل أن يكون شاعراً ، وكان عارفاً بالمفكرين الآخرين عن طريق كتبهم ، كالشعراء والأدباء والمفسرين والفقهاء . والمتصوفين على وجه الخصوص . ولقد كان أكثر علمه بهم عن طريق اساتذته . إنما نحن اليوم نعرف حافظاً شاعراً اكثر من كونه عالماً ، بينما كان في أيامه عالماً وإن نظم الشعر أحياناً ، ففي الكتب التي تم تأليفها في زمانه وفيها ذكر له ، نجده موصوفاً بما يوصف به العلماء لا الشعراء .
فإذا كان هذا العالم واقفاً على آداب زمانه ، ومطلعاً على سير العلماء وسلوكهم ، ومتعمقاً في معرفة متصوفة عصره ، بحيث إنه استطاع ان يضع كل ذلك في الشعر بأفضل مما يستطيعه أي شاعر آخر ، فهل كان عرضه لتلك الأفكار متأثراً بأحد ممن سبقه ؟ أم إن ذلك كان من ابتداعه وابتكاره ؟ وهل إن لمحي الدين الأندلسي ، الذي يعد أبا التصوف الاسلامي ، أي أثر على حافظ ؟ أفهل يستبعد أن يكون لابن الفارض المصري - وهو اسبق من حافظ ، ولا يقل مكانة في الأدب الصوفي العربي عن مكانة حافظ في الأدب الفارسي - تأثيره في التكوين الشكلي لأفكار حافظ ؟ إن وظيفة (معرفة الأصل) هي البحث في أمثال هذه المسائل وإيجاد الإجابة عليها .

هـذا النوع من المعـرفة بخصـوص حـافظ أو أي مؤلف آخر هو معـرفة أصـول أفكار المؤلف وآرائـه . وهذه المعـرفة فـرع يتفـرع من المعـرفـة التحليليـة . أي إننـا يجب أولاً أن نعـرف محتـوى أفكـار المؤلف بـدقـة ، ومن ثم نتـوجـه إلى معـرفة أصـوله ، وبغـير هذه الـطريقة يكـون حاصـل عملنا مشابهاً لما يقوم به بعض المؤلفين في كتابة تاريخ العلوم بدون أن يكون لهم أي علم بها أو مثل بعض المؤلفين الذين يكتبون في الفلسفة ، كأن يكتبوا عن ابن سينا وأرسطو ويحاولون إيجاد ما يتشابهان فيه وما يختلفان ، ولكنهم مع الأسف لا يعرفون ابن سينا ولا أرسطو .

إنهم مـا إن يجدوا عنـدهمـا بعض الألفـاظ المتشـابهـة ، حتى يأخذوا بإصدار الأحكـام ، مع إن عليهم عنـد المقارنـة أن يتعمقـوا في فهم الفكـرة ، وإن التعمق في إدراك عـمق افكـار اشخـاص مثـل ابن سينـا وأرسـطو ليستغـرق عمـراً بـأكمله ، وليس مـا يقـال غـير ذلـك سـوى تخمـين وخبط عشواء .

عند بحث القرآن ومعرفته ، وبعد أن نكون قد أنجزنا مـطالعتنا التحليليـة ، يأتي دور المقـارنة والمعـرفة التـاريخية . وهـذا يعني إن علينا أن نقـارن القرآن بكـل محتـويـاتـه مـع كتب أخـرى كـانت مـوجـودة في عصـره ، وعلى الأخص الكتب الدينية . ولأجراء هذه المقـارنة لا بـد من توفـر جميع

الشروط ، مثل مدى ارتباط شبه الجزيرة العربية بالمناطق الأخرى ، ونسبة الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة يومئذ في مكة . . . الخ ، ثم نقوم بالتقويم والقدير .

ترى هل كل ما وجد في القرآن موجود ايضاً في كتب اخرى ؟ فإذا وجد ، فما هي نسبة وجوده ؟ وهل إن المطالب الموجودة في الكتب الأخرى تتخذ شكل الاقتباس أم إنها مستقلة ، أم إنها لا تعدو أن تكون مجرد تصحيحات وتوضيحات لما قد يكون فيها من تحريف ؟ .

اصالات القرآن الثلاث :

عندما نقرأ عن القرآن تتضح لنا « اصالات القرآن الثلاث » :

أولاها : اصالة الانتساب ، أي إننا بغير أن يخامرنا ادنى شك، أو أن نحتاج إلى دراسة النسخ القديمة ، نكون واثقين بأن ما يقرأ اليوم بإسم القرآن المجيد ، هو الكتاب عينه الذي نزل على محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

والأصالة الثانية : هي اصالة المحتوى ، أي إن المعارف القرآنية ليست ملتقطة ولا مقتبسة ، بل هي

مبتكـرة . والتحقيق في هـذا الجـانب تتكفـل بـه المعـرفـة التحليلية .

والأصالة الثـالثة : هي الأصـالة الإلهيـة ، أي إن هذه المعـارف قد فـاضت مما وراء أفق الـرسول (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) الذهني والفكـري ، وإنه لم يكن سـوى نـاقـل هذا الوحي ومبلغ هذه الرسالة ، وهذا ما تتكفـل به معـرفة أصل القرآن .

إن معـرفة الأصـل ، أو بعبارة أخـرى معـرفـة إصـالـة المعـارف القرآنيـة ، مبنية عـلى النـوع الثـاني من المعـرفـة . ولـذلك فـإننا سنبـدأ من المعرفـة التحليلية ، أي أننـا سنبدأ ببحث محتـويات القـرآن ، وماهيـة المسائـل المطروحـة فيه ، والمسائل التي تنال حظاً أوفـر من التوكيـد ، وطريقـة عرض تلك المسـائل . فـإذا استطعنـا في المعرفـة التحليليـة أن نفي تلك المسائل والمـطالب حقها ، وأن نـزداد معرفـة بالمعـارف القـرآنية ، نكـون ، كما قلنـا ، وصلنا إلى اصـالـة هي اهم اصالات القرآن ، وهي (الأصالة الإلهية) أي كون القـرآن معجزة .

شروط معرفة القرآن :

يتطلب التعرف على القرآن بعض المقدمات التي سـوف

نوردها فيما يلي :

إن من أهم الشروط اللازمة للتعرف على القرآن هو معرفة اللغة العربية ، فبمثلما يتطلب التعرف على حافظ وسعدي معرفة اللغة الفارسية ، كذلك لا يمكن التعرف على القرآن المكتوب باللغة العربية إلّا بمعرفة اللغة العربية . والشرط الآخر هو معرفة تاريخ الإسلام ، ذلك لأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة مثل التوراة والانجيل . وإنما استغرق نزوله ثلاثاً وعشرين سنة من حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . من بعثته حتى وفاته ، في غضون سنوات ثائرة من تاريخ الإسلام . ولذلك فإن لآيات القرآن (شأن نزول) . ولا يعني هذا إن معنى الآية محدد بحدودها ، بل على العكس من ذلك ، إذ إن معرفة شأن النزول تساعد كثيراً على توضيح مضمون الآية وتمهد السبيل لفهمها . والشرط الثالث هو معرفة اقوال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ إنه ، حسبما ورد في القرآن ، المفسر الأول لهذا الكتاب :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ . . . ﴾[1] .

---

(١) النحل ـ آية : ٤٤ .

وكما في آية اخرى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ﴾[1] .

فالرسول ، بحسب القرآن ، هو المبين لهذا الكتاب والمفسر له ، وكل ما وصلنا منه يعيننا على تفسير القرآن . أما نحن الشيعة المعتقدين بالأئمة الأطهار . والمؤمنين بأن ما كان عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الله قد نقله إلى أوصيائه الأكرمين ، نرى الروايات الموثوقة التي وصلتنا منهم لها ما للروايات الموثوقة التي وصلتنا من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه . ولذلك فإن الموثوق به مما يروى عن الأئمة يعيننا على التعرف على القرآن كذلك .

ثمة نقطة مهمة تجب ملاحظتها عند دراسة القرآن والبحث فيه ، وهي إن مجموع آيات القرآن تؤلف بنياناً متماسك الأجزاء ، أي إننا لو أخذنا آية واحدة وقلنا إننا نريد أن نفهم هذه الآية وحدها ، فلن نكون قد اتخذنا سبيلاً سوياً . لا شك إن فهمنا لتلك الآية قد يكون صحيحاً ، ولكنه عمل غير سليم ، فالقرآن يفسر بعضه

---

(١) الجمعة ـ آية : ٢ .

بعضاً، وهذا ما أيده الأئمة الأطهار حسبما ورد على لسان بعض كبار المفسرين . إن للقرآن طريقة خاصـة في بيان المسـائل ، ففي كثـير من الأحيـان يكـون لـلآيـة إذا أخـذت منفـردة مفهـوماً يختلف كـل الإختلاف عن مفهـومها إذا مـا وضعت إلى جنب الآيات المشابهة لها في المضمون .

كمثال على طريقة القـرآن الخاصـة ، يمكن أن نشير إلى آياته المحكمات والمتشابهات والتي يحمل العـامة عنهـا تصوراً معينـاً ، ويـظن بعض ان المحكمـات هي تلك الآيـات التي تـرد فيها المسـائل بصـورة صريحـة وبسيطة ، والمتشـابهات ، عـلى العكس ، هي التي ترد فيهـا المـواضيـع بصـورة ألغـاز ومعميات ورموز . وعـلى هذا يحق للنـاس أن يقتصروا عـلى التـدبر في محكمـات آياتـه الصريحـة ، ظانـين إن متشابهـاتـه عصية على الفهم والتدبر .

وهنا يبرز هـذا السؤال : ما هي فلسفـة وجود الآيـات المتشـابهات ؟ لمـاذا يعرض القـرآن آيات غـير قـابلة للفهم ؟ إن الجواب إجمالاً هو إنه لا المحكمات صريحـة في معناهـا ، ولا المتشابهات غـامضة المعنى . إن الغـامضة من التعـابير ، هي مـا يكـون معنـاهـا مبهـماً ومجمـلاً وفي كلمـات لا تفيـد المعنى بصورة مستقيمة . فمثـلاً عندمـا كافـأ السلطان محمود (الغزنوي) فـردوسي الشاعـر مكافـأة ضئيلة على الـرغم مما

عـاناه من تعب ، فـإنه رفض صلة السلطان ، وأخـذ يهجوه في شعـره ، متهـماً إيـاه بـالبخـل والإمسـاك ، وكـان بعض هجوه صريحاً ، وبعضه الآخر مبهماً .

من ذلك قوله ما معنـاه : « لو كـانت ام السلطان ملكة لبلغ ذهبي وفضتي ركبتي »[1] .

ويقـول في مكـان آخـر : « إن كف السلطان محمـود ، فاتح البلاد ، عادت تسعة في تسعة وثـلاثة في أربعـة »[2] . فما معنى هذا ؟ .

هنا يستخدم فـردوسي تعبيراً غـامضاً أشبـه باللُغـز وهو يـقـصـد أن يـقـول : ٩ × ٩ = ٨١ و٣ × ٤ = ١٢ والمجمـوع = ٩٣ وهـذا يعني إن كف السلطان محمـود تشبـه الـرقم ٩٣ ، أي إن كفه مضمـومة ضـماً شـديـداً بـاستثناء الإبهـام الـذي يكـون مـع السبـابـة الـرقم ٩ . ويؤلف مـع الأصابع الثـلاثة الأخـرى الرقم ٩٢ . وبهـذا يشير فـردوسي إلى خسة السلطان محمود .

---

(١) اگر مادر شاه بانو بدا
مرا سيم وزر تابه زانو بدى

(٢) كف شاه محمود كشور كَشاي
نه أندر نه آمد سه اندر چهار

والآن، هل في القرآن آيات ذوات الغاز؟ إن هذا يتنافى مع نصوص القرآن التي تقول إن القرآن كتاب ينير الطريق ، ويفهمه كل الناس ، وآياته نور وهداية . إن السر في ذلك هو أن بعض المسائل المطروحة في القرآن تدور حول ما وراء الطبيعة والأمور الغيبية . وهي أمور غير قابلة للإفصاح عنها بالألفاظ .

وكما يقول الشيخ الشبستري :

« لا يمكن ضم المعاني في الحرف ، بمثلما لا يمكن ضم البحر اللامتناهي في اناء »[١] .

ولكن لما كانت لغة القرآن هي لغة الناس ذاتها . فكان لا بد لتلك المواضيع الدقيقة المعنوية أن ترتدي تعابير مما يستعملها الناس للمواضيع المادية . ولغرض الحيلولة دون وقوع سوء فهم . فقد طرحت بعض الآيات بحيث لا تكون مندوحة عن الرجوع إلى آيات اخرى للاستعانة بها في تفسيرها . وما من سبيل غير هذا في ذلك . مثلاً ، إن القرآن أراد أن يتطرق إلى حقيقة « رؤية الله قلبياً » . أي إن الإنسان قادر على أن يرى الله بقلبه .

---

(١) معانى هرگز أندر حرف نايد
كه بحر بيكران در ظرف نايد

هذه الحقيقة وردت هكذا :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرة. إلىٰ رَبِّها نَاظِرةٌ ﴾[١] .

فالقرآن يستخدم هنا لفظة النظر لعدم وجود كلمة اخرى تناسب المقصود . ولكنه لكي يحول دون حدوث أي سوء فهو يقول في مكان آخر :

﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ ﴾[٢] .

فلا شك في إن القاريء سوف ينتبه . على الرغم من التشابه اللفظي . أن ليس بين هذين الأمرين علاقة . وإنهما منفصلان كل الانفصال . ولئلا تختلط تلك المعاني الرفيعة الشامخة بالمعاني المادية . يطلب القرآن منا أن نرجع بالمتشابهات على المحكمات :

﴿ هُوَ الَّذِيْ أَنْـزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هَنَّ أُمُّ الكِتَابِ ﴾[٣] .

والمحكمات هن اللواتي لا يمكن اخراجهن عن معانيهن ، ولا أن نستنتج منهن معاني اخرى . تلك هي

---

(١) القيامة ـ آية : ٢٢ و٢٣ .

(٢) الأنعام ـ آية :١٠٣ .

(٣) آل عمران ـ آية : ٧ .

الآيات الأم . فكما إن الطفل يرجع إلى أمه ، وهي مرجع طفلها ـ أو كما إن أم القرى هي مرجع المدن الصغرى ، كذلك تكون الآيات المحكمات مراجع للآيات المتشابهات . فالمتشابهات للفهم والتدبر ، ولكن بعد الرجوع إلى المحكمات ، فبغير عون الآيات الأم لا يكون ما نأخذه من الآيات المتشابهات موضع اعتبار .

ما معنى معرفة القرآن ؟ :

عند تحليل القرآن ومعرفة محتواه ، يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : أيمكن تعرف القرآن ودراسته أصلاً ؟ أيمكننا أن نتدبر القرآن ونفكر في آياته . أم إنه لم ينزل لكي يتعرفه الناس ، بل نزل لمجرد التلاوة والقراءة ، ولنيل الثواب والتبرك والتيمن ليس غير؟ قد يبدو لأول وهلة أن لا داعي لأيراد مثل هذا السؤال ، وإنه لا شك في أن القرآن نزل لكي يعرف . ولكن بما أنه قد ظهرت في دنيا الإسلام أمور يؤسف لها بحيث ما زالت ذات جذور لأفكار منحطة وخطيرة في مجتمعنا ، فقد رأينا إن علينا أن نورد ما يوضح هذا الجانب من الأمور .

قبل ثلاثة قرون أو أربعة ، ظهر من بين علماء الشيعة افراد اعتقدوا إن القرآن ليس حجة ، ورفظوا القبول بثلاثة

من أصـول الفقه الأربعـة التي كـان علماء الإسـلام قـد اعتبـروهـا معيـاراً لمعـرفـة المسـائـل الإسـلاميـة ، وهي : القرآن ، والسنة ، والعقل ، والإجماع .

ففيما يتعلق بالإجماع كانوا يقولـون : إن هذا من تقـاليد أهل السنة فلا يمكن اتّباعه .

وبخصوص العقل كـانوا يقـولون : كيف يجـوز اعتماد العقل وهو كثير الأخطاء .

أمـا عن القـرآن فكـانـوا يـدعـون من بـاب التقـديـر والاحتـرام : إنـه اكبـر من أن نتمكن نحن التـافهـين من البشر أن نطالعه ونتفكـر فيـه ، بـل إن الـرسـول والأئمـة وحـدهم الـذين يحق لهم أن يـتلوا آيـاتـه ، وهـؤلاء هم الأخباريون . لذلك كان مرجـع الإخباريـين الوحيـد الجائـز هـو الأحاديث والأخبـار . وقـد ينتـابكم العجب إذا علمتم إن في بعض التفـاسير التي كتبهـا هؤلاء ، كـانـوا يـدرجـون الآيـة إذا كـان لهـا ثمـة حـديث ، ويغفلون إدراجهـا إذا لم يكن لهـا حديث ، وكـأنها ليست من القرآن . هـذا لون من الظلم والجفوة بحق القرآن .

ومن البديهي إن مجتمعاً يهمـل كتابـه السماوي . كتـاباً كـالقرآن ، بهـذه الصورة ويـطرحـه في زاويـة النسيـان ، لا يمكن أن يكون سائراً على هدي القرآن .

كان هناك غير هؤلاء جماعات أخرى أيضاً ، اعتقدت بضرورة إبعاد القرآن عن أيدي العامة . ومن هؤلاء الأشاعرة الذين كانوا يعتقدون بأن معرفة القرآن لا تعني تدبر آياته ، بل تعني فهم معانيها الحرفية ، أي إن علينا أن نقبل بالمعنى الظاهر للآيات ، ولا شأن لنا بعد ذلك بالباطن .

لا شك في أن هذه النزعة تؤدي إلى الإنحراف والضلال ، وذلك لأن هؤلاء كانوا مضطرين إلى توضيح معاني الآيات ولكنهم ، بإلغائهم عمل العقل ، لم يكن امامهم من القرآن إلا مفهوم هو أقرب إلى مفهوم العوام . وهم لذلك سرعان ما انحرفوا عن جادة الصواب ، واعتنقوا معتقدات غير صحيحة .

من ذلك مثلاً تجسيدهم الله (سبحانه) ومئات أخرى من المعتقدات الخرافية ، كأمكان رؤية الله تعالى عياناً ومخاطبته ، وإلى غير ذلك .

وفي مقابل هذه الجماعات التي تركت القرآن فعلاً ، ظهرت جماعة أخرى جعلت من القرآن وسيلة للوصول إلى غاياتهم وأهدافهم . أخذ هؤلاء يؤولون القرآن كيفما اقتضت منافعهم ، ونسبوا إلى القرآن أموراً لم تكن فيه إطلاقاً . وكانوا يردون على كل اعتراض قائلين بأنهم

وحدهم الذين يدركون المعاني الباطنية للقرآن وإن تأويلاتهم تلك متأتية من معرفتهم بآياته .

إن أبطال هذه الجماعات فئتان : الفئة الأولى هم الاسماعيلية ،ويعرفون بالباطنية ايضاً . والثانية هم المتصوفة . واكثر الاسماعيلية في الهند وقليل منهم في ايران . وقد بلغ بهم الأمر أنهم أنشأوا حكومتهم ايضاً ، وهي الدولة الفاطمية في مصر . ويعرف الأسماعيليون بأنهم من الشيعة الذين يعترفون بستة من الأئمة . غير أن المقطوع به ، وبإجماع واتفاق تام من علماء الشيعة الاثني عشرية ، إن هؤلاء أبعد ما يكونون حتى عن غير الشيعة . أي إن أهل السنة الذين لا يرون في أئمة الشيعة ما يرى الشيعة فيهم ، أقرب إلى التشيع من هؤلاء المحسوبين على الشيعة[1] .

إن هؤلاء ، بسبب تشبثهم بالباطنية ، أساءوا إلى

---

(١) في مؤتمر « التقريب بين المذاهب الاسلامية » الذي عقد قبل حوالي ٣٥ سنة ، والذي جمع اصحاب مختلف المذاهب الإسلامية لإزالة كل سوء تفاهم ، حضر ايضاً عدد من الاسماعيليين ، غير أن الشيعة والسنة الحاضرين اتفقوا بالاجماع على عدم اعتبار هؤلاء من جملة الفرق الاسلامية ، ومنعوهم من الإشتراك في المؤتمر .

الإسلام وخانوه خيانات عديدة في التاريخ الإسلامي ، وكان لهم دور كبير في إيجاد الإنحرافات في أمور الإسلام .

بعد هؤلاء نأتي إلى المتصوفة الذين كانت لهم اليد الطولى في تحريف الآيات وتأويلها بحسب عقائدهم الخاصة . وكمثال على ذلك ، نذكر نموذجاً من تفاسيرهم ، ليتبين طرز تفكيرهم ، بحيث يستطيع القاريء أن يقرأ المفصل من هذا المجمل :

لقد جاء في القرآن ذكر ابراهيم وابنه اسماعيل ، وأن الله قد أمر ابراهيم في المنام عدة مرات بذبح اسماعيل تقرباً اليه . ويعجب ابراهيم أول الأمر لهذا الأمر ، ولكنه بعد تكرر الرؤيا يؤمن بذلك ويسلم أمره لله ، ويفاتح ابنه بذلك ، فيستسلم اسماعيل استسلام المخلص له :

﴿ يَا بُنَيَّ إنِّي أرَىٰ في المَنَامِ أنِّي أذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] .

المقصود هنا هو هذا التسليم أو الرضا بقضاء الله ، ولذلك عندما قام الأب والأبن ، بكل خلوص نية ونقاء سريرة بإعداد العدة لتنفيذ أمر الله تعالى ، توقف التنفيذ

---

(١) الصافات ـ آية : ١٠٢ .

بـأمر من الله ايضـاً . أما المتصـوفـة فيـرون في تفسـير هـذه الآيـة إن ابراهيم هـو العقل ، وإن اسمـاعيل هـو النفس ، وإن العقل ههنا كان ينوي قتل النفس .

من الواضح أن هـذا المفهوم لا يعـدو أن يكون تـلاعباً بـالقرآن ، ولـوناً من المعـرفة التحـريفية . إن هـذه المفاهيم المنحرفة المبنيـة على الأهـواء الشخصية ، هي التي قـال فيها الـرسول (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) : « من فسر القرآن بـرأيه فليتبـوأ مقعده من النار » . إن هـذا التـلاعب خيـانـة للقرآن بل خيانة عظمى[1] .

والقــرآن ، في قبــال جمــود الأخبــاريــين وجفــاف تفكيـرهم ، وكـذلـك في مـواجهــة انحـرافـات البـاطنيــة ومفـاهيمهم الخاطئـة وأمثـالهم ، يعـرض سبيـلاً وسـطاً هـو التأمل والتـدبر الخـالص المنصف وبغير تغـرض . إن القرآن لا يحـرض المؤمنين فحسب عـلى التفكير في آيـاته ، بـل إنـه

(١) إنـه لمـا يؤسف لـه في هـذا الـزمـان أن تكـون سـوق المفــاهيم المنحرفة والتفاسير الإعتباطية رائجـة ، فتظهـر الآراء اللاإسـلامية بلبوس الإسلام ، ولقد أعلن الاستاذ الشهيـد حربـاً شعواء عـلى أمثـال هذه الأمـور ، فبارز بـافكاره وبقلمـه الجبار ، حتى إنـه في آخــر الأمــر ضـحى بـحيــاتــه في سـبيـل ذلــك تـضـحـيــة صادقة ـ الناشر .

يحث المخالفين له على ذلك أيضاً ، ويطلب منهم ألا يتحزبوا ، بل يتأملوا في آياته ، ويقول :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[1] .

وفي آية اخرى يقول :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[2] .

أي إنه كتاب غزير الثمر ، كثير البركة ، وإن تدبر آياته لا يعني تقبيله ومن ثم وضعه على الرف ، بل يعني تدبر آياته والتفكير فيها .

إن هذه الآيات وعشرات أُخرى في توكيد تدبر القرآن ، تجيز كلها تفسير القرآن ، وتؤيده ولكن لا التفسير المبني على هوى النفس ، بل المبني على أساس من الصدق والأنصاف والتجرد عن الغرض . فعندما نتأمل في القرآن صادقين وغير مغرضين ، لن تكون هناك ثمة ضرورة إلى أن تكون لنا القدرة على حل كل مسائله .

إن القرآن من هذا المنظور أشبه بالطبيعة . ففي

---

(١) سورة محمد ـ آية : ٢٤ .

(٢) سورة ص ـ آية : ٢٩ .

الطبيعة كثير من الأسرار التي ما زالت تفتقر إلى الحل ، وليس بالإمكان حلها في الظروف السائدة فعلاً ، ولكنها سوف تحل في المستقبل . ثم إن الإنسان في سعيه لمعرفة الطبيعة ينبغي عليه أن يلائم بين تفكيره والطبيعة كما هي ، لا أن يفسر الطبيعة على حسب ما يشاء هو . وكذلك هو القرآن ، فإنه لم ينزل لزمان واحد ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لانكشفت أسراره منذ أمد ، ولفقد هذا الكتاب السماوي كل جاذبيته وجدته وتأثيره . غير أننا نرى إن الرغبة في تدبره والتفكير فيه واستكشاف جديده لم يزل باقياً كما كان ، وهذه ملاحظة سبق أن شرحها النبي والأئمة .

فقد ورد في حديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : « مثل القرآن كمثل الشمس والقمر ، فهو مثلهما في جريان دائم » . أي إنه ليس على وتيرة واحدة ولا هو قد سمّر في مكان واحد . وقال ايضاً : « القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق » .

وجاء في عيون اخبار الرضا (عليه السلام) عن الامام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه سئل عن السر في أن القرآن تزداد طراوته وجدته بتقادم الزمان عليه وبتكرار تلاوته . فقال : لأن القرآن لم ينزل لزمان دون زمان

ولناس دون ناس ، بل إنه نزل لكل الأزمان وكل الناس . إن منزّله قد صاغه بحيث إنه يتقدم على كل تطور في العلم والتفكير ، على الرغم من التطور الهائل في المعارف والعلوم ، كما إنه يعرض من المعاني والمفاهيم القابلة للدرك بما يتسع لظرفية الزمان واشباعه .

* * *

معرفة القرآن تحليلياً

نريد في هذا الفصل ان نبحث في محتويات القرآن . وطبيعي اننا لو اردنا تناول موضوعاته موضوعاً موضوعاً لاقتضانا ذلك أطناناً من الورق . وعليه فسوف نعالج الكليات أولاً ، ثم نعود على بعض الجزئيات .

يتناول القرآن كثيراً من المطالب بالبحث ، وفي غضون ذلك يؤكد بعضها توكيداً أكبر دون بعض . ومن جملة الأمور التي جرى بحثها في القرآن إله الكون والكون . علينا ان نرى كيف ينظر القرآن إلى الله . هل يعرفه معرفة فلسفية ، أم معرفة تعبدية ؟ هل يذهب ، مثل التوراة والانجيل ، مذهباً دينياً ، أم أنه يسير كما تسير الديانات الهندية ، أم إن له مذهبه الخاص والمستقل في معرفة الله ؟ .

والموضوع الآخر هو الكون . لا بد لنا أن ندرك النظرة التي ينظر بها القرآن إلى الكون . فهل ينظر إلى الخليقة والكون نظرة عبث ولهو ؟ أم إنها نظرة الصدق

والحق ؟ فهل يرى جريان العالم يسير على وفق سنن ونواميس . أم يراه يجري على غير هدى أو قاعدة ، بحيث لا يبدو أي شيء سبباً لأي شيء آخر ؟ .

ومن جملة المسائل الكلية المطروحة في القرآن مسألة الإنسان . فلا بد من تجليل نظرة القرآن إلى الإنسان . أتراه يتحدث عن الإنسان متفائلاً ، أم إن نظرته إليه سلبية ومتشائمة ؟ أيرى الإنسان حقيراً ، أم يرى أن له كرامة وعزة ؟ .

ومسألة أخرى هي مسألة المجتمع الإنساني . أفهل يرى القرآن للمجتمع الانساني أية اصالة ، أم يرى الفرد هو الأصيل ؟ وهل للمجتمع الانساني في نظر القرآن حياة وموت ورفعة وانحطاط ، أم إن هذه الصفات تختص بالفرد فحسب ؟ وهنا تدخل مسألة التاريخ ، وكيف ينظر القرآن إليه . ترى ما هي القوى المحركة للتاريخ ، وما هو مقدار تأثير الفرد في التاريخ ؟ .

هنالك مسائل كثيرة أُخرى يطرحها القرآن ، ونحن نورد هنا سرداً لبعض منها : نظرة القرآن إلى القرآن ، ثم مسألة الرسول في القرآن ، وكيف يعرف القرآن الرسول ، وكيف يحادثه . . . ثم مسألة تعريف المؤمن في القرآن ، وماهية صفات المؤمنين ، وغيرها .

ولا شك ان لكل واحدة من هذه المسائل الكلية مسائل فرعية ، فمثلاً عند الكلام على الانسان ، لا بد لنا أيضاً أن نتكلم على الأخلاق ، أو إذا تحدثنا عن المجتمع ، لا بد أن نتحدث عن روابط الأفراد ، وعن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن مسائل الطبقات الاجتماعية . . . وغير ذلك كثير .

كيف يعرف القرآن نفسه ؟ :

من الأفضل في تحليل القرآن أن نبدأ من ملاحظة رأيه في نفسه ، وكيف يعرف نفسه . إن أول ما يطالعنا بهذا الشأن هو قوله إن هذه الكلمات والعبارات هي كلام الله . إنه يعلن صراحة إن الرسول ليس هو منشيء القرآن ، بل إنه إنما يبين ما ينزل به روح القدس أو جبرائيل بإذن الله .

والأمر الآخر الذي يوضحه القرآن هو تعريف رسالته . وهي إنها هداية أبناء البشر وقيادتهم للخروج بهم من الظلمة إلى النور :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[1] .

---

(١) سورة ابراهيم ـ آية : ١ .

ولا شك إن من مصاديق هذه الظلمات الجهالة . فالقرآن يقود البشر من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولكن لو كانت هذه الظلمات تنحصر بالجهل فحسب ، فقد كان بامكان الفلاسفة أن يقوموا بتلك المهمة ، غير أن هناك ظلمات أخرى أخطر بكثير من ظلمة الجهل ، ولا يستطيع العلم أن يعالجها . فهناك مثلاً حب المال ، والأنانية ، واتباع الشهوات ، وغيرها . . . مما يعتبر من الظلمات الفردية الأخلاقية . وثمة ظلمات اجتماعية كالظلم ، والتمييز ، وغيرهما . . . والظلم من مشتقات الظلام ، مما يوحي بنوع من الظلام الإجتماعي المعنوي ، وإن مكافحة هذه الظلمات من شأن القرآن والكتب السماوية الأخرى .

يخاطب القرآن موسى بن عمران قائلاً :

﴿ أنْ آخرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلىٰ النُّورِ . . . ﴾[1] .

إنها ظلمات الظلم ، ظلم فرعون والفراعنة ، والنور هو نور الحرية والعدالة .

إن مما التفت اليه المفسرون هو إن القرآن لا يورد كلمة

---

(١) سورة ابراهيم ـ آية : ٥ .

« الظلمات » إلا بصيغة الجمع ، ومقرونة بالألف واللام ، لتدل على الاستغراق ، فتشمل كل ضروب الظلمات ، ولكنه يورد النور بصيغة المفرد . وهذا يعني إن الطريق الصحيح واحد لا أكثر ، بينما سبل الانحراف والضلال عديدة . من ذلك مثلاً الآية التالية :

﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَىٰ الظُّلُماتِ ﴾[1] .

وهكذا يعين القرآن هدفه : تحطيم اغلال الجهل والضلال والظلم والتردي الأخلاقي والإجتماعي . وبكلمة واحدة : القضاء على الظلمات ، والهداية نحو العدالة والخير والنور .

معرفة القرآن :

المسألة الأخرى ، مسألة معرفة لغة القرآن وتلاوته . يظن بعضهم إن القصد من تلاوة القرآن هو قراءته طمعاً في الثواب دون إدراك شيء من معانيه . هؤلاء الذين

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٥٧ .

« يختمون » القرآن مرّات عديـدة ، ولكننا إذا سألنا أحـدهم إن كان قد فهم معنى مـا يقرأ فسـوف يعجز عن الجـواب . إن قراءة القرآن بقصد تفهم معانيـه أمر لازم ومـطلوب ، لا بقصد الحصول على الثواب فقط .

إن لإدراك معاني القرآن مستلزمات لا بد من الإهتمـام بهـا . إن ما يحصـل عند القـارىء الذي يـريد تعلم كتـاب مـا ، هو سلسلة من الأفكـار الجديـدة لم تخطر له من قبـل . فههنـا يكـون العقـل وقـوة فكـر القـارىء همـا الفـاعـلان النشيـطان . وفيـها يتعلق بـالقـرآن يجب أن يكـون التعلم والإدراك هما القصد من قراءته . والقرآن هو نفسه يقول :

﴿ كِتَـابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ مُبَـارَكٌ لِيدَّبَـرُوا آياتِـهِ وَلْيَتَذَكَّـرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[1] .

إن واحـدة من وظائف القـرآن التعليم . وهنـا يخـاطب القـرآن عقـل الانسـان بلغـة المنـطق والاستـدلال . ولكن للقـرآن لغـة أُخـرى لا يخـاطب بهـا العقـل ، بـل القلب ، ويطلق على هذه اللغة الثانية اسم الإحساس. فمن يريد أن يتعـرف على القـرآن وأن يأنس بـه ، عليه أن يعـرف هاتـين اللغتين ، وأن يستفيد منهـما معاً ، إذ إن الفصـل بينهما يؤدي إلى الخطأ ، وسوء الفهم ، وما هذا إلّا خسران كبير .

---

(١) سورة ص ـ آية : ٢٩ .

إن ما نطلق عليه اسم القلب هو ذلك الإحساس العظيم والعميق الكامن في داخل الإنسان ، وقد يطلقون عليه أيضاً اسم الإحساس بالوجود ، أي ذلك الإحساس الذي يرتبط بالوجود المطلق . إن من يعرف التكلم بلغة القلب ويخاطب به الإنسان ، فإنه يهزه من أعماق حياته وكنه وجوده ، وعندئذٍ لا يكون العقل وحده تحت التأثير ، بل الوجود بأكمله يكون متأثراً .

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً للغة الإحساس ، فإننا نضرب بالموسيقى مثلاً لذلك . فالموسيقى ، على اختلاف انواعها ، تشترك في امر واحد ، وهو إنها تعالج إحساس الإنسان . إنها تهيج روح الإنسان وتغرقه في عالم خاص من المشاعر . وبالطبع تختلف انواع الهيجانات باختلاف انواع الموسيقى .

فقد يمتاز نوع باثارته مشاعر البطولة والحماس ، فهو يخاطب الإنسان بهذه اللغة . إنكم تعرفون انهم يعزفون الموسيقى العسكرية والأناشيد خلال الحروب . إن تأثير هذه الموسيقى يكون أحياناً من القوة بحيث إن الجندي المرتعد خوفاً من العدو داخل خندقه ، يندفع خارجاً متحدياً هجمات العدو ويقابله بالهجوم .

ونوع آخر من الموسيقى قد تثير أحاسيس الشهوة ،

فيرتخي الإنسان ، ويرتمي في أحضان الشر . من الملاحظ أن هذا اللون من الموسيقى متفش وواسع الإنتشار ، ولعله أقدر من أي شيء آخر على هدم جدران العفة والأخلاق . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالغرائز والمشاعر الأخرى ، التي يمكن السيطرة عليها ووضعها تحت المراقبة ، سواء عن طريق الموسيقى أو أية وسيلة أخرى .

إن من أرفع غرائز الإنسان واحساساته هي حسه الديني ، وفطرته في البحث عن الله . فتوجه القرآن يكون نحو مخاطبة هذا الحس الشريف السامي[١] .

القرآن نفسه يوصينا أن نقرأه بلحن لطيف وجميل . إن هذا اللحن السماوي ، هو اللحن الذي يخاطب به القرآن فطرة الإنسان الإلهية ويجتذبها إليه[٢] . عند وصف القرآن ذاته يقول إنه يتكلم بلغتين ، فهو مرة كتاب الفكر والمنطق الاستدلالي ، ومرة اخرى كتاب المشاعر والعشق

---

(١) لقد قيل الكثير في شرق العالم وغربه عن هذا الحس الديني . إننا هنا سوف نوجز أقوال عالمين من علماء العالم . اوّلهما هو انشتاين. ففي احدى مقالاته يتطرق إلى الدين ويقول إنه يعتقد بأن في العالم عموماً ثلاثة انواع من الأديان .

(٢) كان الأئمة (عليهم السلام) يقرأون القرآن بكثير من الانفعال والتهيج بحيث كان المستطرقون المستمعون اليهم يتوقفون عنوة وتنقلب احوالهم ويجهشون في البكاء .

وبعبارة أخرى ، ليس القرآن غذاء العقل والفكر بحسب ، بل هو غذاء الروح ايضاً .

والقرآن يؤكد موسيقاه الخاص توكيداً كبيراً . تلك الموسيقى التي يكون تأثيرها في استثارة مشاعر الإنسان العميقة والسامية أقوى من كل موسيقى . فالقرآن يطلب من المؤمنين أن يقضوا بعض ليلهم في تلاوته . وأن يقرأوه كذلك خلال الصلاة عند توجههم إلى الله . إنه يخاطب الرسول قائلاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ . . . ﴾[1] .

قم ناج ربك ، ورتل القرآن في صلاتك ، والترتيل يعني عدم الاسراع في القراءة لئلا تتداخل الكلمات فلا تفهم ، وعدم الابطاء إلى درجة فصم الرابط بين المعاني . يقول اقرأ القرآن بتأن وبتوجه إلى المعنى . ويضيف في آيات أخرى في السورة نفسها مخاطباً الناس : إذا ما الجأتكم أعمالكم اليومية ، كالتجارة والجهاد في سبيل الله . إلى فترة نوم اطول ، فلا تنسوا خلوة العبادة .

إن السبب الوحيد الذي كان يزيد نشاط المسلمين ،

---

(١) سورة المزمل ـ آية : ١ و ٢ .

وقـدرتهم الـروحيـة ، وخلوصهم ، وصفـاء بـواطنهم ، هـو مـوسيقى القـرآن . لقـد أحـال نـداء القـرآن ، في فتـرة وجيـزة ، النفـوس الخشنـة الجـافـة في جـزيـرة العـرب إلى مؤمنين ثابتـة أقدامهم . تمكنـوا من مصارعـة أقوى سلطات زمـانهم والقضـاء عليهم . لم يكن المسلمـون ينـظرون إلى القـرآن على أنـه مجرد كتـاب للدرس والتعليم فحسب ، بل كـانوا يـرون فيه غـذاء للروح ، ومادة لكسب القـوة وازدياد الايمـان . كانـوا يتلونه أثنـاء الليل بنيـة خالصة[1]. يناجـون ربهم ، وفي النهار يهجمون على الأعداء كالأسود الضـارية . ولقـد كان القـرآن يتـوقـع هـذا من المؤمنـين بـه . إذ يقـول مخاطباً الرسول :

﴿ فَـلَا تُـطِعِ الْكَـافِـرِينَ وَجَـاهِـدْهُمْ بِـهِ جِهَـاداً كَبِيراً ﴾[2] .

إن قصـة حياة الـرسول نفسهـا مصداق لهـذا القـول . فهـو بمفرده ، وبغـير سند ، يـرفع القـرآن ، ويبدأ ثـورته ،

---

(١) جـاء في دعـاء الامـام زين العـابـدين (عليـه السـلام) لختم القـرآن : « واجعـل القـرآن لنـا في ظلم الليـالي مـونسـاً » . أي امنحنـا الفهم والعشق لنـألف كتـابـك ونـأنس بـه في ظلمـات الليالي .

(٢) سورة الفرقان ـ آية : ٥٢ .

فيكـون القـرآن لـه كـل شيء ، يعـد لـه الجنـد ، ويهيء السـلاح والعـدة ، وأخيـراً يجبر العـدو عـلى الخضـوع والتسليم ، ويجتذب افراد العدو لينحنوا أمام رسول الله ، وهكذا يفي الله بما وعد[1] .

عنـدما يسمى القـرآن لغتـه بلغـة القلب ، إنمـا يقصـد ذلـك القلب الذي يـريد أن يصقله ويهـذبه بـآياتـه ويثيره . وهذه غير لغة الموسيقى التي تغـذي أحيانـاً رغبات الإنسـان الشهـوانية ، وهي كـذلك غـير لغـة المـارشـات العسكـريـة والأنـاشيد الحـربيـة التي يعـزفـونها في الجيش لاستثـارة روح الحـرب في الجنـود ، بـل انها تلك اللغـة التي تجعـل من أعراب البادية مجاهـدين قيل فيهم : « حملوا بصـائرهم عـلى اسيافهم » .

أولئـك الـذين وضعـوا معـارفهم ونـظراتهم وأفكـارهم النيرة ومداركهم الإلهية والمعنوية على اسيـافهم التي شهروهـا في سبيل تلك المعتقدات . لم تكن لديهم منافع شخصية ولا مسـائل فـردية . وعـلى الرغم من أنهم لم يكـونوا معصـومين من الخطأ، وكانت تصدر عنهم أخطاء. إلا أنهم كانوا

---

(١) يتحقق وعد الله الحق هذا في زماننا أيضاً ، فيظهر رجل من ذرية الرسول ، يؤمن ، كجده ، بالقرآن وحده ، فينزل بجند الكفر وجيش الباطل هزيمة مهلكة ـ الناشر .

يمثلون مصداق القول : « قائم الليل وصائم النهار » .
كانوا دائماً على ارتباط عميق بالوجود ، فيقضون ليلهم بالعبادة ونهارهم بالجهاد[1] .

فالقرآن بالنظر لخصوصيته في كونه كتاباً للقلب والروح ، يثير الأشجان ، ويسيل الدموع ، ويهز الأفئدة .
ويصدق هذا حتى على أصحاب الكتب الأخرى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وإذا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمنَّا بِهِ إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا ﴾[2] .

ويؤكد في آية أخرى إن النصارى من أهل الكتاب

---

(١) في الخطبة رقم ١٩٣ من خطب نهج البلاغة المعروفة بإسم « المتقون » يعدد امير المؤمنين (عليه السلام) صفات المتقين . وبعد أن يذكر كيف هم قولاً وفعلاً ، يصف حالهم في الليل ، أو كما يقول سعدي : يصف ليالي رجال الله قائلاً :
« أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن ، يرتلونها ترتيلاً ، يحزنون به أنفسهم » أي إنهم يقرأون القرآن قراءة تفهم وتأمل ، لا كما يقرأ بعضنا القرآن اليوم ، بغير أن نفهم شيئاً من معناه ، وهم يقرأونه بلحن محزون خاص ، ينبعث من قلوبهم، وإذا ما بلغوا آية فيها إشارة إلى رحمة الله ، نظروا بشوق . وإذا ما بلغوا آية تشير إلى غضب الله . هلعت قلوبهم ، وكأنهم يسمعون صراخ أهل النار .
(٢) سورة القصص ـ آية : ٥٣ .

أقرب إلى المسلمين من اليهود والمشركين :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾[١] .

ثم يصف النصارى الذين يؤمنون عند سماع القرآن فيقول :

﴿ وإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلىٰ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[٢] .

وعند الإشارة إلى المؤمنين عموماً . يصفهم هكذا :

﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾[٣] .

في هذه وفي كثير غيرها من الآيات (مثل الآية : ٥٨ من سورة مريم ، والآيات الأول من سورة الصف) يشير

---

(١) سورة المائدة ـ آية : ٨٢ .

(٢) سورة المائدة ـ آية : ٨٣ .

(٣) سورة الزمر ـ آية : ٢٣ .

القرآن صراحة إلى أنه ليس كتاباً علمياً وتحليلياً فحسب . بل إنه في الوقت الذي يستفيد فيه من منطلق الإستدلال . كذلك يتحدث مع مشاعر البشر وأذواقهم ، ويضع أرواحهم تحت تأثيره .

من يخاطبهم القرآن :

من النقاط الأخرى التي ينبغي استنباطها من معرفة القرآن هي معرفة الذين يخاطبهم .إننا نجد في القرآن تعابير مثل : ﴿ هدى للمتقين ﴾ و ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ و ﴿ ولينذر من حي ﴾ . وهنا نتساءل : إن الهداية لا لزوم لها للمتقين . لأنهم متقون .

ومن جهة أخرى نجد القرآن يعرف نفسه قائلاً :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة ص ـ آية : ٨٧ .

هذه واحدة من آيات القرآن العجيبة . فعند نزولها كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة ، وكان يحادث أهل إحدى القرى . لقد كان مما يثير ضحك الناس أن يسمعوا شخصاً وحيداً يقول بكل اطمئنان : إن خبر هذه الآية سيأتيهم =

إذن ، هل نزل الكتاب لكل الناس أم للمؤمنين دون غيرهم ؟ وفي آية أخرى يخاطب الله رسوله فيقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[1] .

سيأتي توضيح ذلك مفصلاً عند الكلام على التاريخ في القرآن . ولكننا هنا نجمل قائلين إن الآيات التي تخاطب أهل العالم كلهم ، يقصد منها القول في الواقع بأن القرآن لا يختص بقوم أو بجماعة بعينها ، فمن يقترب صوب القرآن ينج .

أما الآيات التي تخاطب المؤمنين والمتقين ، فالمقصود هو الإشارة إلى نوع الناس الذين سيجتذبهم القرآن اليه ، والنوع الذي سيبتعد عنه في نهاية الأمر . والقرآن لا يشير إلى قبيلة بعينها أو قوم معينين على أنهم عن المرتبطين به والمؤيدين له . وهو لا يقول إنه يختص بقوم دون قوم ولا هو يضع اصبعه على منافع طبقة معينة كما تفعل باقي المذاهب ، فلا يقول إنه جاء لحماية مصالح الطبقة الفلانية فحسب . إنه لا يقول مثلاً إنه جاء ليحمي مصالح الطبقة

= فيما بعد ، أي سيعرفون ما فعل هذا الكتاب بالعالمين في مدة وجيزة .

(1) سورة الأنبياء ـ آية : ١٠٧ .

العاملة دون غيرها ، أو لتأييد طبقة الفلاحين فقط ، بل إنه يؤكد كونه كتاباً جاء ليبسط العدل .

ويقول بشأن الرسل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ وَالمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ ﴾[1] .

يريد القرآن القسط والعدالة لكل المجتمعات الانسانية ، لا لهذه لطبقة أو لتلك ، أو لقوم دون قوم . يريد القرآن ، بخلاف بعض المذاهب ، كالنازية ، أن يجتذب الناس ، فيضع اصبعه على مواطن عصبيتهم . وكذلك هو ، بخلاف الماركسية مثلاً ، لا يستند إلى ما في الانسان من روح النفعية والمصلحية ، ولا يحركه عن طريق منفعته[2] .

وكما إن القرآن يقول باصالة الانسان العقلية . يقول أيضاً باصالته الوجدانية والفطرية . وإن فطرة البحث عن الحق والعدالة هي التي تحمل الانسان على السير والحركة .

---

(١) سورة الحديد ـ آية : ٢٥ .

(٢) حيث في هذه الحالة لا تكون العدالة والحق من اهداف أتباعه ، بل سيكون هدفهم الوصول إلى منافعهم واتباع رغباتهم .

لـذلك فـرسالـة الرسـول ليست موجهـة إلى العمال أو الفلاحين أو المحرومين أو المستضعفـين . إن القرآن يخـاطب كلا الظالم والمظلوم ، يدعوهما إلى طريق الحق .

مـوسى يبلغ رسالتـه لبني اسرائيـل ولفـرعـون كليهـما ، ويطلب منهما الإيمان بالله والمسير في طريقـه . كذلـك عرض محمـد (صلى الله عليـه وآله وسلم) رسـالتـه ودعـوتـه عـلى سـراة قريش ، وعـلى امثـال أبي ذر وعمّـار . يـورد القـرآن نمـاذج عـديـدة لتحـريض الفـرد عـلى التمـرد عـلى ذاتـه ، والرجوع عن طريق الضلال والفسـاد إلى طريق التـوبة . لا شك إن القرآن ذاته يعلم إن توبـة الذين كـانوا يعيشـون في رفاه ونعيم أصعب بكثير من تـوبة المحـرومين والمـظلومين ، فهؤلاء يسيـرون بمقتضى الطبـع في طـريق العـدالـة . أمـا الأولـون فعليهم أن يتنـازلـوا عن مصـالحهم الشخصيـة وامتيازاتهم القبلية وأهوائهم .

يقـول القـرآن إن اتبـاعـه هم ذووا الأرواح الـطاهـرة النقية . وإن تبعية هؤلاء للقرآن متأتية من حبهم الفطري للبحث عن الحقيقة والعدالة ، وليس لميولهم الدنيوية ومنافعهم المادية وأهوائهم الخاصة .

العقل في نظر القرآن

تكلمنا في الفصل السابق باختصار على لغة القرآن ، وذكرنا إن القرآن يستعين بلغتين في ابلاغ رسالته ، وهما لغة الاستدلال المنطقي ، ولغة الاحساس . ولكل من هاتين اللغتين مخاطبوها المختصون . فالأولى تخاطب العقل . والثانية تخاطب القلب . في هذا الفصل سوف نتناول بالبحث وجهة نظر القرآن في العقل .

علينا أن نعرف إن كان القرآن يعتبر العقل سنداً ، أو ، كما يقول علماء الفقه والأصول ، هل العقل حجة ؟ أي إذا كان المكتشف حقاً من مكتشفات العقل الصحيحة . فهل ينبغي على البشر أن يحترموه وأن يعملوا بموجبه أم لا ؟ فاذا عمل به وارتكب في ذلك أحياناً خطأ ما ، فهل سيعذره الله على ذلك أم سيعاقبه ؟ وإذا لم يعمل به ، فهل سيعاقبه الله على عدم العمل به مع إن عقله قد حكم بذلك ، أم لا ؟ .

دلائل كون العقل حجة :

إن كون العقل حجة وسنداً في نظر الإسلام أمر ثابت ، كما إن علماء الاسلام جميعاً ، ومنذ البداية وحتى الآن ـ عدا مجموعة صغيرة ـ لم يشكوا في سندية العقل ، واعتبروه أحد مصادر الفقه الأربعة .

١ ـ الدعوة الى التعقل في القرآن :

بما اننا نبحث في القرآن ، فلا بد لنا من الرجوع إلى القرآن نفسه للحصول على الدليل الذي يثبت كون العقل حجة . إن القرآن يضع توقيعه على مستند سندية العقل بطرق مختلفة . وأوكد : بطرق مختلفة . فمن الآيات يمكن أن نعد ستين أو سبعين آية وردت في القرآن تشير إلى أن موضوعاً ما قد طرح لكي يتدبره العقل . ولنضرب مثلاً احدى الآيات العجيبة في القرآن :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1] .

من الواضح بالطبع ، إن المقصود بالصم البكم ليس العضوي منهما ، بل المقصود هو الجماعة من الناس الذين

---

(١) سورة الأنفال ـ آية : ٢٢ .

لا يريدون أن يسمعوا الحقيقة ، وإذا سمعوها لا يعترفون بها بألسنتهم . فالأذن التي تعجز عن سماع الحقائق ، ولا تعجز عن سماع لغو الكلام الفارغ ، لهي في القرآن أذن صماء . واللسان الذي يقتصر على الشقشقة والهراء ، لهو في القرآن لسان أبكم .

أما « الذين لا يعقلون » فهم الذين لا ينفعهم تفكيرهم . وهؤلاء لا يراهم القرآن جديرين بصفة (الإنسان) ، فأدرجهم في سلك الحيوانات والدواب ، فيخاطبهم بهذا المنظور[1] .

وفي آية أخرى تطرح مسألة التوحيد ، بقوله :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلاّ بِإذْنِ الله ﴾[2] .

وعلى اثر طرح هذه المسألة الغامضة التي لا يتسع بعض القول لدركها . تستأنف الآية قولها :

﴿ وَيَجْعَلِ الرِّجْسَ عَلَى الّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾[3] .

---

(١) يورد سعدي هذا المضمون في بيت شعر جميل :

به نطق آدمى بهتر است از دواب

" دواب از تو به كر نكوئى صواب

« الإنسان خير من الدواب بنطقه لكن الدواب خير منك إن لم تقل صوابا » .

(٢) و (٣) سورة يونس ـ آية : ١٠٠ .

في هاتين الآيتين اللتين اوردتهما مثالين ، يدعو القرآن إلى إعمال العقل بدلالة التطابق ، حسب تعبير أهل المنطق . هنالك آيات كثيرة أخرى يؤكد فيها القرآن سندية العقل بدلالة الالتزام[1] . أي إنه يتكلم بأمور يستحيل قبولها دون القبول بسندية العقل وحجته . فهو مثلاً يطلب من الخصم استدلالاً عقلياً ، حيث يقول :

﴿ قُلْ هَاتُوْا بُرْهانَكُمْ ﴾[2] .

أي إنه يريد أن يبين ، بدلالة الالتزام ، إن العقل حجة وسند . أو إنه لكي يثبت وحدة الوجود صراحة يعتمد القياس المنطقي :

---

(١) عندما يقودنا وجود امر الى امر آخر ، نطلق على ذلك إسم الدلالة . والدلالات انواع شتىٰ . ومنها الدلالة اللفظية ، وهذه تتخذ صوراً ثلاثاً :
الأولى : دلالة التطابق أو المطابقة ، أي ان اللفظة تدل على كل معناها ، كأن نقول : سيارة ونقصد كل اجزائها .
الثانية : دلالة التضمين ، أي إن اللفظة تدل على جزء من المعنى ، كأن نقول : السيارة هنا ، ونفهم من ذلك ان هيكلها أو محركها موجود ايضاً .
الثالثة : دلالة الالتزام ، أي إن في اللفظة دلالة على أمر خارج معناها ، كأن نسمع اسم حاتم فيخطر لنا جوده وكرمه .

(٢) سورة البقرة ـ آية : ١١١ .

﴿ لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلاّ الله لَفَسَدَتَا ﴾[1] .

وهنا يقيم القرآن قضية شرطية ، فقد استثنى المتقدم وأهمل المتأخر . إن القرآن ، بتوكيده العقل ، يريد إبطال أقوال بعض الأديان التي تقول إن الإيمان غريب على العقل ، وإنه ، لكي يؤمن المرء ، عليه أن يعطل عمل العقل ، وأن يكتفي بعمل القلب ، لكي يدخله نور الله .

٢ ـ الاستفادة من العلة والمعلول :

إن من الأدلة الأخرى على قول القرآن باصالة العقل هو تبيان بعض المسائل باستخدام العلية والمعلولية .

فالعلة والمعلول ، وأصل العلية ، قواعد للفكر العقلاني ، وهذا ما يحترمه القرآن ويعمل به . وعلى الرغم من أن القرآن كلام الله ، وأن الله هو خالق العلة والمعلول ، وأن الكلام يدور على ما وراء ما تقع العلة والمعلول دونه ، فانه مع ذلك لا يغفل عن ذكر السببية والمسببية لهذا العالم ، ويضع الوقائع والظواهر تحت سيطرة هذا النظام .

من ذلك الآية التي تقول :

---

(١) سورة الأنبياء ـ آية : ٢٢ .

﴿ إنَّ الله لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] .

وهو بهذا يريد أن يقول إنه مع إن كل المصاير بيد الله ، فإن الله يحمّل البشر مصايرهم بسبب اختيارهم وتصميمهم وعملهم ، ولا يقوم بعمل جزافاً ، بل حتى المصاير لها نظام ، ولن يغير الله مصير مجتمع على عواهنة وبغير بديل ، إلا إذا غير المجتمع ما به ، كأن يغير نظامه الأخلاقي أو الاجتماعي . . .

والقرآن من ناحية اخرى يحث المسلمين على النظر في احوال الأقوام السالفة ومصايرها ، يستخلصون منها الدروس والعبر . من البديهي إنه لو كانت مصاير الأقوام والملل وانظمتها قد سارت خبط عشواء ، ومصادفة . أو لو كانت تلك المصاير مفروضة من فوق ، لما كان ثمة داع لدرس أو عبرة . فبهذا التوكيد يريد القرآن أن يشير إلى أن مصاير الأقوام تتحكم بها أنظمة واحدة ، أي لو تشابهت ظروف مجتمع ما مع مجتمع آخر لتشابه مصيراهما .

وقد جاء في آية اخرى :

---

(١) سورة الرعد ـ آية : ١١ .

﴿فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1] .

نجد في كل هذا ان قبول النظم بدلالة الالتزام يؤيد النظام المبني على العلة والمعلول . والقبول بحجة العلة والمعلول ، قبول بسندية العقل .

٣ ـ فلسفة الأحكام :

من الدلائل الأخرى على القبول بحجة العقل في نظر القرآن، هو القول بوجود فلسفة للدساتير والأحكام . أي إن العلة في وضع الدستعور هي المصلحة . يقول علماء الأصول ان المصالح والمفاسد تتدرج في سلسلة علل الأحكام . فمثلاً ، يقول القرآن : أقيموا الصلاة .

ثم يذكر في مكان آخر فلسفة هذا الأمر :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[2] .

فيشرح الأثر الروحي للصلاة ، وكيف أنها ترتفع

---

(١) سورة الحج ـ آية : ٤٥ و ٤٦ .

(٢) سورة العنكبوت ـ آية : ٤٥ .

بالانسان عن الفحشاء ، فيبتعد عن المفاسد والموبقات . أو أنه يذكر الصوم ، ويأمر الناس به ، ثم يقول :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

وهكذا الأمر فيما يتعلق بأحكام اخرى ، كالزكاة والجهاد ، فقد بين القرآن في جميع الموارد مردوداتها الفردية والاجتماعية . وعليه فإن القرآن يمنح هذه الأحكام جانبها الدنيوي ، على الرغم من كونها سماوية ومن الأعلى ، ويطلب من الإنسان أن يتأملها ، ويتفكر فيها ، لكي يستبين له كنه الأمور ، ولئلا يحسبها مجرد سلسلة من الرموز أسمى من فكر البشر .

٤ ـ مكافحة شطحات العقل :

ثمة دليل آخر ، اقوى مما سبق ، على اصالة العقل في نظر القرآن ، وهو مكافحة القرآن لشطحات العقل . ولكي نوضح هذا الأمر لا بد لنا من ايراد مقدمة قصيرة .

لا شك ان فكر الانسان يقع في الخطأ في كثير من الأحيان ، وهذا أمر معروف وشائع ، ولكنه ليس مقصوراً

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ١٨٣ .

على العقل ، فالحواس والمشاعر تخطيء أيضاً ، وقد أحصوا لحاسة البصر عشرات الأنواع من الأخطاء . ففيما يتعلق بالعقل ، كثيراً ما يتفق أن يستدل الانسان على أمر ، ويتوصل الى نتيجة ، ومن ثم يتضح ان استدلاله كان خطأ من أساسه . وهنا يطرح هذا السؤال نفسه : أيجب علينا أن نلغي عمل العقل بسبب خطأه هذا ، أم ينبغي أن نوجد وسائل وأسباباً تحول دون العقل وارتكاب الخطأ ؟ في الرد على هذا السؤال يقول السفسطائيون إن الاعتماد على العقل غير جائز ، بل إن الاستدلال لغو لا طائل وراءه . ويرد الفلاسفة عليهم ردوداً مفحمة ، قائلين ، مثلاً ، إن الحواس تقع ايضاً في الخطأ كالعقل ، غير إن أحداً لم يحكم بتعطيل الحواس وبعدم استعمالها . ولما لم يكن بالامكان الاستغناء عن العقل اضطر المفكرون إلى الحيلولة دون وقوعه في الخطأ .

وفي غضون بحثهم في هذا الموضوع لاحظوا أن كل استدلال يتكون من قسمين : المادة ، والصورة ، كما هي الحال عند تشييد عمارة ، إذ نكون بحاجة إلى السمنت والحديد والجص الخ . . (المادة) وإلى هيكل البناء وشكله (الصورة) . ولكي تبنى العمارة على خير ما يكون ، علينا أن نهيّء أفضل المواد ، وأجمل خريطة مكتملة لا نقص فيها . كذلك الأمر في الاستدلال ، فلكي يكون صحيحاً

لا بد أن تكون مادته وصورته صحيحتين . وللتوصل الى صورة صحيحة للاستدلال ، ظهر منطق ارسطو ، أو المنطق الصوري . وكانت وظيفة المنطق الصوري هذا أن يبين صحة صورة الاستدلال ، أو عدم صحتها ، فيعين العقل لكيلا يخطىء في صورة الاستدلال[1] .

إن القضية الرئيسية في ضمان صحة الاستدلال هي إن المنطق الصوري وحده لا يكفي لأثبات صحة الاستدلال . فهذا المنطق إنما يضمن جانباً واحداً ، ولكي نطمئن إلى صحة مادة الاستدلال لا بد من اللجوء إلى

---

(١) من جملة الأخطاء التي ظهرت منذ عدة قرون في دنيا العلم وكانت سببا في كثير من سوء الفهم ، هو اعتقاد بعضهم بأن وظيفة المنطق الأرسطي هي الحكم على صحة مادة الاستدلال أو عدم صحته ايضاً . ولما لم يكن هذا من وظائف المنطق الأرسطي . فقد أفتوا بعدم صلاحية هذا المنطق إطلاقاً . وإنه لمما يؤسف له ان هذا الخطأ ما يزال يتكرر في زماننا هذا ، وهو أمر يدل على ان المفتين لم يعرفوا منطق أرسطو ولم يفهموه . لو عدنا الى مثالنا السابق عن العمارة ، لنا أن نقول ان مثل وظيفة منطق ارسطو في تعيين صحة الاستدلال ، كمثل الشاقول في تعيين استقامة الجدار . إن الشيء الوحيد الذي يكشفه لنا الشاقول هو استقامة الجدار ، أو اعوجاجه . إن منطق أرسطو ، الذي اكتمل على يد علماء آخرين وازداد غنى ، لا يصدر حكمه إلا على صورة الاستدلال ، لا على مادته .

منطق المادة أيضاً ، أي إننا نحتاج الى معيار نقيس به المادة الفكرية كذلك .

لقد سعى علماء من أمثال « بيكن » و « ديكارت » لوضع منطق لمادة الاستدلال ، مثلما وضع أرسطو منطقه لصورة الاستدلال. ولقد نجحوا في ذلك الى حد ما ، ولكنهم لم يبلغوا به الكمال الذي اتصف به منطق أرسطو وإن استطاع الانسان أن يستعين به لدرء أخطاء الاستدلال . ولكن الذي قد يثير عجبكم هو أن القرآن قد عرض بهذا الخصوص أموراً لها على مقترحات أمثال ديكارت فضل التقدم وتقدم الفضل .

منشأ الخطأ في نظر القرآن :

من جملة مناشيء الخطأ التي ذكرها القرآن هي إن الانسان يأخذ الشك مأخذ اليقين[١] . إذا تقيد الانسان دائماً باليقين ولم يقبل بالظن ، فلن يقع في الخطأ[٢] . وهذا

(١) وهذه هي القاعدة الأولى عند ديكارت . إذ يقول إنه لا يصدق شيئاً إلا بعد التأكد ، فإن وجد فيه ١٪ من احتمال الخطأ ، نبذه ولم يأخذ به . وهذا هو معنى اليقين .

(٢) لا بد ان نشير هنا إلى أنه في حالات الظن والشك ، حيث لا يمكن بلوغ اليقين ، يجب أن نأخذ تلك الحالات بنظر =

مـا يؤكده القـرآن كثيراً ، حتىٰ إنـه يصرح بـأن أكبـر مـزالق الفكر البشري هو اتباعه الظن .

وفي مكان آخر يخاطب النبي قائلًا :

﴿ إنْ تُـطِعْ أَكْثَـرَ مَنْ في الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيْـلِ اللهِ إنْ يَتَّبِعُونَ إلّا الظَّنَّ وَإنْ هُمْ إلّا يَخْرُصُونَ ﴾[1]

وفي آية اخرى :

﴿ وَلَا تَقفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[2] .

هـذه تـذكـرة تصـدر من القـرآن لأول مـرة في تـاريـخ البشر ، تنهي الانسان عن ارتكاب مثل هذا الخطأ .

المنشـأ الثاني لحصـول الخـطأ في مـادة الاستـدلال ، وبخـاصـة في الأمـور الاجتمـاعيـة ، هـو التقليـد . فبعض النـاس يثقون بصحـة الأمر مـا دام المجتمـع يثق بصحتـه . أي إن الأمـر المقبـول عنـد المجتمـع ، أو إن الأسـلاف الأقـدمين قـد ارتضوه ، يكـون مقبولاً عنـد الجيـل الحـاضر ايضاً[3] .

= الاعتبار . أي أن نقبل بالظن على أنه ظن ، والاحتمـال على أنـه احتمـال ، لا أن نأخـذ الظن والاحتمـال على انهما يقـين ، إذ إن هذا يقود إلى الخطأ .

(١) سورة الأنعام ـ آية : ١١٦ .

(٢) سورة الاسراء ـ آية : ٣٦ .

(٣) لقـد ورد هـذا المـوضـوع في احـدى محـاضرات « بيكن » حيث =

أما القرآن فيقول : عليكم أن تزنوا كل أمر بميزان العقل . لا أن تثقوا بكل ما كان أجدادكم يفعلون ، ولا أن تنبذوه كلياً لهذا السبب . ثمة مسائل كثيرة طرحت في الماضي ، وكانت خطأ في الوقت نفسه ، ولكن الناس تقبلوها . وثمة مسائل أخرى كانت صحيحة في زمانها ، ولكن الناس رفضوها من باب الجهل . لا بد من أخذ رأي العقل في قبول الأمور أو رفضها ، لا أن نقلد الآخرين فيها تقليداً أعمى . والقرآن يضع اتّباع الآباء والأجداد ، في معظم الأحوال ، في تعارض مع العقل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(١) .

يؤكد القرآن إن قدم الفكرة لا يكون دليلاً على صحتها أو خطأها . إن لتقادم الزمن أثراً في الأمور المادية ، ولكن حقائق الوجود لا يمكن أن يصيبها البلى مهما تقادم عليها الزمان . فحقيقة **﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ**

= يطلق على هذا النوع من التقليد الأعمى اسم « عبادة الصنم الاجتماعي » ضمن الاصنام الأخرى التي يعبدها الناس

(١) سورة البقرة ـ آية : ١٧٠ .

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ تظل صادقة ما دامت الدنيا قائمة . يقول القرآن إنه تجب مواجهة الأمور بسلاح العقل والفكر . فلا ينبغي نبذ عقيدة صحيحة لمجرد كون بعضهم يلصقها بالناس ، ولا أن نتقبل أخرى لمجرد كونها تقترن باسم هذا أو ذاك من الشخصيات المعروفة . بل يلزم القيام بالدرس والتحقيق في كل المسائل[١] .

من العوامل المؤثرة في حصول الخطأ والمذكورة في القرآن هو اتباع هوى النفس ، وميولها ، أغراضها المريضة . وفي ذلك يقول مولوي ما مضمونه : إذا ما برزت الأغراض حجب الفن ومد مئة ستار بين القلب والعين . فما من انسان استطاع ان يكون سليم التفكير إلا إذا ابتعد عن شر التغرض والتحيز . أي إن العقل يستطيع أن يعمل في محيط يخلو من أهواء النفس .

هنالك بهذه المناسبة ، حكاية تروى عن العلامة الحلي جديرة ان نضرب بها مثلاً هنا . سئل العلامة الحلي مرة

---

(١) إن مسألة تقليد الاسلاف ، والكبار ، والبدع المعاصرة ، والصيغة الاجتماعية ، التي نهى القرآن عنها بشدة يجب ألا تختلط بمسألة تقليد المجتهد الأعلم والأعدل ، المذكورة في الفقه ، إذ هي أمر واجب ومبني على الاستفادة من العلم والتخصص .

عن مسألة فقهية ، وهي أنه إذا مات حيوان في بئر وبقيت الميتة النجسة في البئر ، فكيف يمكن الاستفادة من ماء البئر ؟ وقد حدث من باب المصادفة والاتفاق أن وقع حيوان ميت في بئر دار العلامة الحلي نفسه . الأمر الذي اضطر معه إلى أن يستنبط لنفسه حكماً شرعياً بهذا الشأن . لم يكن امامه غير طريقين : فإما أن يعمي البئر نهائياً ، ويستفيد من بئر اخرى ، أو أن يستخرج مقداراً معيناً من ماء البئر ، ومن ثم يستعمل البئر دون وازع . ولكنه رأى إنه لا يستطيع أن يحكم في هذه المسألة دون أن يلتفت الى مصلحته الشخصية . فكان أن أمر بدفن البئر أولاً . ومن ثم راح يفكر براحة بال ودون وسوسة النفس في استنباط الحكم .

وفي القرآن اشارات كثيرة إلى اتباع هوى النفس ، منها :

﴿ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الأنْفُسُ ﴾[1] .

---

(١) سورة النجم ـ آية : ٢٣ .



القلب في نظر القرآن

لعله لا حاجة بنا إلى أن نقول ان المقصود بالقلب في المصطلح الأدبي والديني ليس ذاك العضو العضلي الذي يقع في الطرف الأيسر من الجسم ويضخ الدم كالمضخة في العروق . ففي قول القرآن : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكرىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾[1] .

أو ما جاء في هذا التعبير الأدبي اللطيف لحافظ :

« هلع قلبي وإني أيها الدرويش غافل
فماذا جرى يا ترى لهذا الصياد الحائر »[2]

يتضح إن المقصود من القلب شيء سام ورفيع ، يختلف عن عضو الجسم هذا كل الاختلاف . وإن أصابه

---

(١) سورة ق ـ آية : ٣٧ .

(٢) دِلَم رَمِيده شُد غافِلم من دَرْويش

كه اين شِكارى سَركشتِه راجه آمد يش

المـرض أيـضـاً ﴿ فـي قُلُوْبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزَادَهُـمُ الله مَرَضاً ﴾[1] .

إلا أن معـالجـة هـذه الأمـراض ليست من اختصـاص أطبـاء القلب . وإذا كانت ثمـة طبيب يعالجها ، فـذاك هـو الطبيب المختص بالأمراض الروحية .

تعريف القلب :

إذن مـا المقصود بـالقلب ؟ علينا أن نبحث عن جـواب هذا السؤال في حقيقة وجـود الانسان . فعـلى الرغم من إن الانسـان كائن فـرد واحـد . فـإن لـه مئـات الأبعـاد ، بـل آلافـها . فـالـ(أنا) إنسـان يتألف من العـديد من الأفكـار والآمـال . ومن الخوف والـرجاء والحب ، الـخ . . . وكـل هذه الأفكار أشبه ما تكـون بالأنهر والنهيـرات التي تلتقي في مركز واحد . وهذا المـركز نفسـه بحر عميق ، لم يـدّع أحد من البشر بعد أنه قد سبر أعماقه وعرف كنهه . على الرغم من أن الفـلاسفـة ، والـروحـانيـين ، وعلماء النفس ، قـد وصـل كـل منهم الى كشف بعض أسـراره . ولكن الـظاهـر ان الـروحانيـين ، كانـوا أكثر تـوفيقاً من غيـرهم . فـالـذي يسميه القرآن بـالقلب هو في الحقيقـة ذلك البحـر ، وإن ما

---

(1) سورة البقرة ـ آية : ١٠ .

نسميه نحن بالروح إن هو إلا الأنهر ، والروافد ، التي تتصل بهذا البحر .

وبما أن القرآن يتحدث عن الوحي ، فإنه لا يذكر العقل ، بل يقتصر على التوجه إلى قلب الرسول . وهذا يعني ان القرآن لم يحصل للرسول عن طريق قوة العقل ، ولا بالاستدلال العقلي . وانما هو قلب الرسول الذي بلغ حالة لا نستطيع نحن تصورها . فأصبح فيها قادراً على إدراك تلك الحقائق السامية وشهودها . إن كيفية هذا الارتباط مبينة إلى حد ما في آيات من سورتي النجم والتكوير[1] .

---

(١) نقرأ في سورة النجم الآيات التالية :
﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ .
يذكر القرآن كل هذه الأمور لكي يبين إن مستوى هذه المسائل أرفع من مستوى العقل ، فالحديث هنا عن الرؤية والسمو .
ونقرأ في سورة التكوير : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ، لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ، وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .
يقول اقبال اللاهوري في تعبير لطيف بهذا الخصوص : « إن =

وإذ يتحدث القرآن عن الوحي ، وإذ يخاطب القرآن القلب ، يكون بيانه أوسع من العقل ولكنه ليس ضده . ذلك لأن ما يعرضه القرآن أوسع في منظوره من منظور العقل والشعور ، بحيث لا يقدر العقل على إدراكه ويعجز عن نيله .

مميزات القلب :

القلب في نظر القرآن أداة من أدوات المعرفة، إذ إن القرآن في معظم رسالته يخاطب القلب ، تلك الرسالة التي تستطيع أذن القلب وحدها سماعها وما من أذن أخرى قادرة على سماعها . لذلك فالقرآن كثيراً ما يعني بالحفاظ على هذه الأداة . وبتعهدها وتربيتها . هنالك الكثير من الآيات في القرآن نقرأ فيها عن تزكية النفس ، ونور القلب ، وصفته :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾[1] .

﴿ كلَّا بلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] .

﴿ إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾[3] .

= الرسول هو من تفيض عنه الحقائق إذ يمتليء بها ، فيعرض مما أوتي على الناس لكي يغير ويبدل ويرتب وينظم » .

(١) سورة الشمس ـ آية : ٩ .

(٢) سورة المطففين ـ آية : ١٤ . (٣) سورة الأنفال ـ آية : ٢٩ .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1] .

وبالنظر إلى أن السيئات تلقي الظلام على روح الانسان وتكدر صفاءه ، وتبعد عنه حبه للخير وسعيه اليه ، فقد تكرر القول في القرآن بهذا الشأن ، وقد جاء على لسان المؤمنين :

﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[2] .

أو يقول في وصف المسيئين :

﴿ كلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3] .
﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾[4] .

أو إنه يتحدث عَنْ إغْلاق القلوب وختمها وقساوتها :

﴿ خَتَمَ الله عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾[5] .
﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ ﴾[6] .
﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَىٰ قُلُوبِ الكَافِرِينَ ﴾[7] .
﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[8] .

---

(١) سورة العنكبوت ـ آية : ٢٩ . (٥) سوررة البقرة ـ آية : ٧ .
(٢) سورة آل عمران ـ آية : ٨ . (٦) سورة الأنعام ـ آية : ٢٥ .
(٣) سورة المطففين ـ آية : ١٤ . (٧) سورة الأعراف ـ آية : ١٠١ .
(٤) سورة الصف ـ آية : ٥ . (٨) سورة الحديد ـ آية : ١٦ .

كل هذه الآيات تؤكد إن القرآن يرى الانسان في جو روحي ومعنوي عال . ويرى أيضاً إن على الانسان أن يحافظ على هذا الجو نظيفاً ، نقياً . ولما كان كل سعي يقوم به الفرد في الحفاظ على طهارته ، في مجتمع غير سليم ، يعود في الأغلب عقيماً غير موفق ، فإن القرآن يحث الناس على بذل الجهد لتصفية مجتمعهم ، وتزكية محيطهم . ويشير القرآن صراحة إلى أن ما تستثيره آياته من العشق ، والايمان ، والرؤى ، والتطلعات السامية ، وتقبل النصح ، وغير ذلك ، يتوقف كله على تجنب المجتمع الانساني والانسان نفسه الرذائل ، والدناءات ، وحب الذات والشهوات .

يؤخذ من تاريخ البشر أنه كلما ارادت القوى الحاكمة أن تبسط سيطرتها على مجتمع ما ، لاستغلاله ، سعت الى ذلك المجتمع فنشرت فيه الفساد ، فتيسر لافراده مجالات اشباع الشهوات ، وتحثهم على اتباع الملذات .

لقد ظهرت أمثولة هذا الاتجاه الشائن ، الفاجع ، ذي العبرة ، في اندلس الاسلام ـ الأندلس الذي كان يعتبر من منابع عصر النهضة ، وكان من اكثر دول اوربا تقدماً ـ فلكي ينتزع المسيحيون الأندلس من المسلمين ، أخذوا يفسدون روحية الشباب المسلم وأخلاقه ، فلم يألوا جهداً

في توفير أسباب اللهو واللعب ، والانغماس في الملذات للمسلمين ، ولقد نجحوا في هذا إلى درجة أن القادة ، وكبار رجالات الدولة ، وقعوا في حبائلهم ، فلوّثوا نفوسهم ، وبذلك تمكنوا من أن ينتزعوا ما كان في المسلم من عزم ، وارادة ، وقوة ، وشجاعة ، وايمان ، وطهارة روح ، فأحالوهم الى أفراد جبناء ، ضعفاء ، شهوانيين ، يشربون الخمر ، ويرتكبون الموبقات . ومما لا ريب فيه هو أن قهر شعب هذا شأنه ليس بالأمر العسير .

لقد انتقم المسيحيون من حكومة المسلمين ، ذات القرون العديدة إنتقاماً يخجل التاريخ أن يذكره ، ويشمئز من ترديد تلك الجنايات الشائنة ، لقد كانوا هم أولئك المسيحيون الذين كان المسيح (عليه السلام) قد علمهم أن يديروا خدهم الأيسر لمن يصفعهم على خدهم الأيمن . لقد اجروا في الاندلس بحاراً من دماء المسلمين ، فبيضوا بذلك وجه جنكيز (المغولي) . وبالطبع كان السبب في هزيمة المسلمين ضعف همتهم ، وفساد روحهم ، جزاء اهمالهم تعاليم القرآن ودستوره .

وفي زماننا هذا ، حينما وضع المستعمرون قدماً في بلادنا ، كان اعتمادهم على الحالة نفسها التي حذر منها القرآن . أي إنهم سعوا الى افساد القلوب . وإذا فسدت

القلوب ، انقلب العقل الى قيد أكبر ، يغل أيدي الناس وأقدامهم . ولهذا نجد إن المستعمرين ، والمستغلين ، لا يخشون إنشاء المدارس والجامعات ، بل يؤسسونها بأنفسهم ، ولكنهم يسعون ، في الوقت نفسه ، وبكل قواهم ، الى افساد روح الطالب وقلبه . انهم يدركون حق الادراك ان القلب المريض لن يكون قادراً على المقاومة ، بل يستكين الى كل انحطاط ، واستغلال ، واستثمار .

لذلك يولي القرآن أهمية كبرى لطهارة روح المجتمع ، إذ يقول : **﴿ وَتعاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ وَالتَقْوَىٰ وَلاَ تَعاوَنُوا عَلَىٰ الإثْمِ والعدوان ﴾**[1] .

فيطلب من الناس ان يتوجهوا اولاً الى عمل الخير ، وتجنب الأثم ، ثم ان يكون توجههم هذا جماعياً ثانياً .

فيما يتعلق بالقلب ، سأورد لكم بعض اقوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) لتكون حسن الختام لهذا الموضوع . جاء في كتب السير ، ان رجلاً قدم على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال إن لديه ما يسأل عنه . فقال له الرسول : أتريد أن تسمع الجواب أم تريد ان تسأل ؟ فقال أريد الجواب .

---

(١) سورة المائدة ـ آية : ٢ .

فقال الرسول : لقد جئت تسأل عن البر والخير ، وعن الأثم والشر . فقال الرجل هو ذاك . فضم الرسول ثلاثة اصابع وضرب بها صدر الرجل بلطف وقال : استفت قلبك ، ثم قال : لقد صنع قلب المرء بحيث يكون متصلاً بالخير ، فهو يهدأ بالخير ، ويضطرب بالشر . مثل ذلك مثل الجسم ، إن دخله ما لا يتجانس معه ، اختل نظامه وتوازن اعضائه . كذلك روح الانسان ، يختل بالأعمال القبيحة . إن ما يسمى عندنا بعذاب الضمير ، ينشأ من عدم انسجام الروح مع الآثام والأعمال الشائنة .

﴿ اسْتَفْتِ قَلْبِكَ وَإِنْ افْتَاكَ المَفْتُون ﴾[١] .

هنا يضع الرسول اصبعه على أمر مهم ، وهو أنه اذا كان الانسان باحثاً عن الحقيقة بتجرد ، وخلوص نية ، فان قلبه لن يخونه أبداً ، وإنما يهديه الى الطريق الصحيح . في الحقيقة إن الانسان ما دام باحثاً عن الحق والحقيقة ويتقدم على طريق الحق ، فإن كل ما يصادفه هو الحق والحقيقة . إلا أن ثمة نقطة ظريفة تبعث على سوء الفهم ، وهي أنه إذا ضل الانسان طريقه ، فالسبب هو انه كان منذ البداية متوجهاً وجهة خاصة ، بعيدة عن

(١) اوضحت في كتاب « جولة في نهج البلاغة » إن الاسلام يضع فرقاً بين أن يكون للمرء علاقة بالدنيا وأن يكون متعلقاً بها .

البحث عن الحقيقة بخلوص النية .

لقد أجاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الشخص الذي سأله عن « البر » قائلاً له إنك إن كنت حقاً تبحث عنه ، فاعلم انك إن وجدت ضميرك قد استراح إلى أمر ، فذاك هو البر ، ولكنك إن رغبت في شيء لم يرتح له قلبك ، فاعلم إن ذاك هو الإثم .

ويسألون النبي عن معنى الايمان فيقول : إن من إذا ارتكب القبيح قلق وندم ، وإذا عمل صالحاً سر وفرح ، فهذا له نصيبه من الايمان .

ينقل عن الامام الصادق (عليه السلام) إنه قال : إذا تحرر المرء من تعلقه بالدنيا احس بحلاوة حب الله في قلبه ، فيرى الأرض قد ضاقت به ، ويسعى بكل وجوده للتحرر من عالم المادة ، والخروج منه . وهذا ما أكد أولياء الله والمنقطعون اليه صحته بطريقة معيشتهم . لقد جاء في سيرة حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنه زار مرة بعد صلاة الصبح أصحاب الصفة ، وكانوا جماعة من الفقراء ، لا يملكون من متاع الدنيا شيئاً ، يعيشون بجوار مسجد النبي . فوقع نظر الرسول على واحد منهم اسمه زيد ، أو حارث بن زيد ، ورآه واهناً نحيفاً ، قد غرقت عيناه في محجريهما ، فسأله :

كيف اصبحت ؟ فقال الرجل : أصبحت وحالي حال أهل اليقين .

فقال النبي : هذا زعم كبير . فما علامة ذلك .

فقال الرجل : علامة يقيني هي إن النوم قد جفا عيني ليلاً ، وأنا بالنهار في صوم دائم ، أقضي الليل حتى الصباح مضطرب الجوانح في العبادة .

فقال النبي : هذا لايكفي ، زدني .

فأخذ الرجل يسرد العلامات الأخرى ، فقال : يا رسول الله ، انا الآنا في حالة وكأني أرى أهل الجنة وأهل النار وأسمع أصواتهم ، وإن اجزتني أخبرتك بباطن أصحابك فرداً فرداً .

فرد النبي قائلاً : صمتاً ، صمتاً ! لا تزد . بل قل لي ما ترجو .

فقال : أرجو أن أجاهد في سبيل الله .

يقول القرآن ان صقل القلب يوصل الانسان الى مقام بحيث إنه إذا رفعت دونه الحجب ـ كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) ـ لما زادته يقيناً .

إن ما يرمي اليه القرآن بتعليماته هو تربية الانسان ، مستفيداً من سلاح العلم والعقل ، ومن سلاح القلب

أيضاً . وهو يستعملها بأفضل أسلوب ، وأرفع طـريقة ، في سبيـل الحق ، ذلـك الأنسـان الـذي يجسـده في أمثلة حيـة أئمتنا وتلامذتهم الصالحون حقاً .

* * *

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

﴿ الْحَمْـدُ لله رَبِّ العَالَمِين (٢) الـرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ (٣) مَالِكِ يَوْمَ الدِّيْنِ (٤) إيّـاكَ نَعْبُدُ وإيّـاكَ نَسْتَعِينُ (٥) إهْدِنـا الصِّـرَاطَ المُسْتَقِيم (٦) صِـرَاطَ الَّـذِينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْـرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الظَّالِّيْنَ (٧) .

عند البدء بكتابة القرآن ، كانت كـل سورة تفتتـح بسم الله الـرحمن الـرحيم ـ بـاستثنـاء سـورة البـراءة ـ أي ان كل سورة تبدأ بـاسم الله . ولكن حصل خـلاف كبير منـذ زمن طويل بين الشيعة والسنّـة حول مـا إذا كانت البسملة جـزءاً من كـل سورة أم لا . أهـل التسنن يرون إنها ليست جـزءاً من أيـة سورة ، وإنمـا يعتبرون البسملة في بـداية كـل سورة مثـل البدء بهـا عند الشـروع في أي عمل ، مـع انها ليست

جزءاً من العمل . وهم قد يقرأون سور القرآن بغير أن يقرأوا البسملة . وفي الصلاة عند تلاوة سورة الفاتحة أو أية سورة أخرى ، لا يقرأون البسملة معها .

غير إن الشيعة باتباعهم الأئمة الأطهار (عليهم السلام) يخالفون أهل السنّة في ذلك ، حتى نقل عن الأئمة قولهم : « قتل الله الذين يحذفون اكبر آية من آيات القرآن » .

فلو حذفنا هذه الآية من بدايات السور كلها ، لما بقيت هذه الآية في القرآن ، سوى في سورة النمل حيث جاءت بصيغة مقول القول نقلاً عن ملكة سبأ يوم أن جاءتها رسالة سليمان ، فقالت : ﴿ **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ** ﴾ .

إن الشيعة ، على كل حال ، يرون إن هذه الآية جزء من القرآن ، وليست منفصلة عنه كانفصالها عن أي عمل إذا ما قرأت عند الشروع فيه ، أي إنها لست إضافة تضاف إلى السور القرآنية[1] .

---

(١) يتفق أهل التشيع جميعاً بهذا الشأن ،غير ان أهل التسنن يختلفون فيما بينهم ، فبعض يؤيد الشيعة فيما ذهبوا اليه ، وبعض يخالفهم أشد المخالفة ، وبعض قائل بالتفصيل. =

. . . .

= فأما الذين يؤيدون البسملة جزءاً من السورة ، فمنهم : ابن عباس ، وابن مبارك ، وعاصم ، والكسائي ، وابن عمر ، وابن زبير ، وابو هريرة ، وعطاء ، وطاووس وكذلك الامام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير ، وجلال الدين السيوطي ، وفي الاتقان ، حيث يقولون بتواتر الروايات بهذا الشأن .

وبعض آخر ، مثل مالك وأبو عمر ويعقوب ، يقول انها جزءاً من السورة ، بل وضعت في أوائل السور تيمّناً ، وبمثابة فواصل بينها .

وهنالك بعض آخر من اتباع الشافعي ، وحمزة ، يقولون بالتفصيل ، أي ان البسملة جزء من سورة الفاتحة فقط وليست في السورة الاخرى ويرى بعض المؤرخين أن أحمد بن حنبل يؤيد القول الأول (تفسير ابن كثير ج١ ص١٦) ، ويقول غيرهم انه يؤيد التفصيل (تفسير الألوسي ج١ ص٣٩) .

أما من حيث قراءة البسملة في الصلاة من وجهة نظر الفقهاء عموماً ، فهي هكذا :

١ ـ الحنفية قالوا : يسمي الإمام والمنفرد سرّاً .

٢ ـ المالكية قالوا بكره الأتيان بالتسمية في الصلاة المفروضة .

٣ الشافعية قالوا : البسملة آية من الفاتحة فالاتيان بها فرض .

٤ ـ الحنابلة قالوا التسمية سنّة وليست آية من الفاتحة . « نقل بإيجاز من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة) . =

ابتداء الأعمال بسم الله :

إنكم تلاحظون إن الآية التي نحن بصددها تتألف من جارٍ ومجرور ، وليست جملة تامة ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف ، وقد اختلفت آراء المفسرين في هذا المحذوف وما هو . ومن ذلك قولهم إن المحذوف : « أستعينُ » أو « أبتديءُ » أو « أسمُ » وهو الاحتمال الأقوى .

تكون الدوافع والأهداف عند التسمية متنوعة . فقد يرىٰ أحدهم أن يطلق اسماً فردياً على مؤسسة ما ، وهو يرمي بذلك إلى الحصول على فائدة مادية من ذلك الاسم . أو حسبما جرت العادة أن يسموا الوليد باسم شخص كان ذا حظوة عندهم في الماضي ، مستهدفين تجديد حياة ذلك الشخص في المولود الجديد لكي تبقى ذكراه حيّة .

= لكن الشيعة ، استناداً إلى روايات من أهل البيت ، وتمسّكاً بسيرة المسلمين ، فقد أفتوا بأنها جزء من السور ، وأوجبوا الاتيان بها . ويمكن الرجوع الى هذه الروايات في « فروع الكافي » باب قراءة القرآن ص٨٦ ، وفي « الاستبصار » باب الجهر بالبسملة ج١ ص٣١١ ، وفي « التهذيب » باب كيفية الصلاة وصفتها ص١٥٢ ، وفي « وسائل الشيعة » باب ان البسملة من الفاتحة ج١ ص٣٥٢ .

ولكن ترى ما هو الدافع وراء الطلب من البشر أن يبدأ كل أعماله بسم الله ؟ الدافع هو أن تتسم أعماله بالقدسية والعبادة ، وأن تنال أعماله البركة .

إن الانسان الذي يضم في قلبه إحساساً فطرياً بالله ، ويراه وجوداً قدسياً ومنبعاً للخير ، يعني بوضعه اسم الله على أعماله إنه يريد أن يضفي القدسية على عمله في ظل قدسية الله وسموه وكرمه .

وبما أن الابتداء باسم شخص يعني اعتباره قدوساً ، منزهاً عن جميع النقائص ومنبعاً للكمال ، وإنه يريد أن ينتسب عمله الى ذلك الشخص ابتغاء بركته ، لذلك لا يمكن الابتداء بأي اسم كان ، حتى باسم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا هو السر في الأمر بالتسبيح باسم الله الوارد في سورة « الأعلى » .

يتكرر في القرآن ورود تعابير مثل : ﴿ يُسبِّحُ لله ﴾ أو ﴿ سَبَّحَ لله ﴾ أو ﴿ سُبْحانَ الله ﴾ ، ولكن التسبيح باسم الله لم يرد في القرآن إلا في سورة « الأعلى » ، حيث يقول : ﴿ سَبِّح اسمَ رَبِّك الأعلىٰ ﴾ .

أرى ان خير نظرية بهذا الشأن هي نظرية صاحب « الميزان » ، إذ يقول إن معنى تسبيح اسم الله هو إنه

عندما يكون المقام مقام تقديس وتكريم ، فينبغي ألا يردف اسم مخلوق باسم الله ، أو إذا كان لا بد من ذكر اسم الله ، فلا يجوز ذكر اسم كائن آخر ، أي إنه لا يجّوز ذكر اسم أحد مع ذكر اسم الله ، ولا يجوز ذكر اسم أحد بمكان ذكر اسم الله ، فكلا الحالتين شرك .

لقد شكّ مؤخراً بين الجماعات التي تدّعي مكافحة الشرك ، أمر هو نفسه من مظاهر الشرك . فبدلاً من أن يبدأوا أعمالهم باسم الله ، يقولون : بّسم الشعب ! .

فإذا كان وضع اسم الرسول بمكان اسم الله يعد شركاً ، فان الابتداء باسم الشعب يعد أيضاً بمثابة اصطناع خليفة لله . إنها شريعة القرآن التي تطالبنا بالتسبيح باسم الله دائماً ، والشروع في أعمال البشر باسم الله ، لا بإسم آخر ، لكي تتسم تلك الأعمال بالقداسة وبالبركة .

الله :

الله اسم من اسماء الخالق . إن التسمية التي توضع للأفراد قد تكون علامة وقد تكون صفة.. ففي الحالة الأولى لا تكون معاني الأسماء هي المقصودة ، على الرغم من أن لتلك الأسماء معانيها الخاصة . بل يكون المقصود هو التشخيص والتعرف ، لذلك لا يزيد حكمها على حكم

العلامات . وقد يتفق الاّ يطابق الاسم المسمى ، بل وقد يكون ضده ، كأن تسمي زنجياً باسم كافور ، مثلاً .

في القسم الثاني من التسمية يحكي الاسم جانباً من جوانب المسمى ، فيبين صفة من صفاته .

ليس لله سبحانه وتعالى اسم من اسماء العلامات ، فكل اسمائه تبين حقيقة من حقائق ذاته القدسية .

نجد في القرآن ما يقرب من مئة اسم من اسماء الله ، وهي في الحقيقة مئة صفة من صفاته ، وقد جاء بعض منها في هذه السورة : الله ـ الرحمن ـ الرحيم ، مالك يوم الدين . ولكن أياً منها لا يتصف بالشمول كاسمه هذا ، لأن كل واحد منها يدل على واحد من كمالاته ، غير أن هذا الاسم يبين جميع صفاته الكمالية ذاتها .

كلمة « الله » كانت في الأصل « الأآله » ثم حذفت الهمزة بالاستعمال .

أما من حيث أصل الكلمة فثمة آراء متعددة . منهم من يقول إنها من « آلَهَ » ويقول آخرون إنها من « وَلَهَ » وإن « آلـه » فِعال بمعنى المفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب .

فاذا كانت مشتقة من « ألَهَ » فتكون بمعنى « عَبَدَ » ، فتعني كلمة « الله » الذات الكاملة الحقيقة بالعبادة وذلك

لأن أي كائن هو نفسه مخلوق وفيه ما فيه من نقص ، فلا يكون جديراً بالعبادة فاذن ، كما قلنا ، الإله يعني تلك الذات التي استجمعت كل صفات الكمال ، وتنزهت عن كل عيب ، فحقت علينا عبادتها .

أما إذا كانت مشتقة من « وَلَه » بمعنى تحيّر ، ووالـه بمعنى الحيران أو العاشق المفتون ، فان كلمة « الله » تكون بمعنى الذي يحار العقل في ذاته المقدسة ، أو أنه يتوجه اليه توجه العاشق الواله ويحتمي به .

سيبويه ، العالم النحوي العربي المعروف الذي عاش في أواخر القرن الثاني واوائل القرن الثالث الهجري ، والذي يعتبر نابغة زمانه ، ويعد كتابه المعروف بـ« الكِتاب » من الكتب الفريدة في بابها ، مثل المنطق لارسطو ، والمجَسْطي لبطلميوس في علم الهيئة (علم الفلك) ، ويعتبر رأيه في اللغة والأدب سنداً موثوقاً به ، يرى إن أصل كلمة « الله » من الحيرة في قبال عظمة الخالق ، أو من الوله والعشق .

وقد جاء ذلك في مثنويات مولوي الذي يقول في هذين البيتين :

« في معنى الله قال سيبويه

يولهون في الحوائج هم لديه

قــال : الهنــا في حــوائجنــا الـيــك
والتمسنــاهــا وجــدنــاهــا لــديــك »

يشير مولوي هنا إلى حالات من الحاجة تصيب الانسان فيحار في أمره ولا يجد ملجأ يلجأ اليه ويحتمي به سوى « الله » ومن ذلك أيضاً قوله[1] :

« مئـات الألـوف من العقـلاء عنـد الألم
يئنـون جميعـاً امـام الـدّيـان الفـرد
بـل كـل الأسـمـاك في الأمـواج
وكـل الـطيـور في عـليـائـهـا
بـل كـل الأمـواج الـلعـوب
مـشتـاقـة اليـه جهـاراً وعيـانـاً »

ليس الانسان وحده هو الذي يتوجه وقت الحاجة الى الله ، بل أسماك البحار بين الأمواج ، والطيور في عنان

---

(١) صـد هـزاران عـاقـل انـدر وقت درد
جـمـلـه نـالان پـيش آن ديـان فـرد
بـلكـه جمله مـاهـيـان در مـوجـهـا
جـمـلـه پـرنـدكـان در أوجـهـا
بـلكـه جمله مـوجـهـا بـازيـكـنـان
ذوق وشـوقش راعيـان انـدر عيـان

مثنوى : طبع كلاله خاور ص ٣٤ الأبيات ٣٧)

السماء ، بل وحتى تلك الأمواج الميتة نفسها في اليم ، تئن في حضرة الله ! .

وهناك احتمال قوي في أن تكون كلمتا « ألَـهَ » و « وَلَـهَ » لغة واحدة ، أي إن الكلمة كانت في البداية « وله » ثم تطور استعمالها فصارت « أله » ثم دخل على صورتها معنى العبادة . وعلى ذلك يكون معنى « الله » هكذا :

تلك الذات التي تعشقه الموجودات كلها بوله ، بغير أن تدري ، وهي الحقيقة التي تستحق العبادة .

ترجمة كلمة « الله » :

نستطيع أن نقول إننا في اللغة الفارسية ليست لدينا كلمة يمكن أن تكون مرادفة لكلمة الله بحيث تقوم مقامها ، فجميع ما عندنا لا يفي بايصال معنى الله ايصالاً كاملاً . إذ لو وضعنا كلمة « خُدَا » مكان « الله » لقصرنا عن ايصال المقصود ، لأن كلمة « خُدَا » مخففة كلمة « خُـدْآي » وهذه تعطي المعنى الذي يطلق عليه الفلاسفة اسم « واجب الوجود » ، أو لعلها أقرب إلى صفة « غني » الواردة في القرآن منها إلى كلمة « الله » . وإذا استعملنا كلمة « خُداوَنْد » لكنا قاصرين ايضاً ، لأن هذه الكلمة

تعني « صاحب » (صاحب الشيء) مع إن الله « صاحب » أيضاً ، ولكنه ليس مرادفاً له ، فكونه صاحباً يعتبر شأناً من شؤونه .

الرحمن الرحيم :

هنا ايضاً ليس لدينا في الفارسية ما يمكن أن يقوم مقام هاتين الكلمتين بحيث يكون ترجمة صادقة لهما . أما قولهم « بَخْشَنْدِهء مِهْرَبانْ » فليس ترجمة صادقة ، لأن « بَخْشَنْدِه » تعني « الجواد » ، و « مِهْرَبَانْ » ، تعني « رؤوف » وكلاهما من صفات الله الواردة في القرآن .

الجواد « بَخْشَنْدِه » هو الذي عنده ما يعطيه إلى الآخرين بغير عوض . ولكن « الرحمن » و « الرحيم » كلاهما مشتقان من « الرحمة» ، وفيها معنى اضافي كالآتي :

عندما يكون المرء محتاجاً ومستحقاً ، يكون ، لفظياً ، كمن يمد يده طلباً للصدقة ، فهو يستحق أن يوصل اليه شيء ، وفي هذه الحالة يكون هذا الشيء هو الرحمة ، غير أن رحمة الانسان لا تصل الى المستحق ، إلا إذا وقع تحت تأثير المستحق ورق قلبه له ، ولكن الله منزه عن هذه الحالات .

إذن عندما نقول « الرحمن الرحيم » ، يتجسد في ذهننا معنيان : الأول هو حاجة البشر العظيمة ، وكل المخلوقات التي تمديدها جميعاً ، كل بطريقته ، نحو الغني بتضرع متوسلين . والثاني هو إنه يرسل اليهم رحمته الواسعة فيعطي سؤلهم ، ويقضي حاجتهم .

لذلك فقد رأى بعض المترجمين المتأخرين انه ما من كلمة تستطيع أن توصل معاني تلك الكلمات في الآية الشريفة : بسم الله الرحمن الرحيم ،فترجموها هكذا :

« بِه نامِ اللهِ رحمن رحيم »

الفرق بين الرحمن والرحيم :

من اللازم أن نوضح بأن وزن « فَعْلان » في العربية يدل على الكثرة ، مثل عطشان ، اي العطش الكثير . والكلمات التي تأتي على وزن فعيل تسمى « الصفة المشبهة » وتدل على نوع من الثبات والدوام .

فالرحمن ، التي هي على وزن « فَعْلان » تدل على الكثرة والسعة ، وتدل على أن رحمة الله منتشرة وتشمل كل شيء .

إن شيئية كل شيء أصلاً تساوي رحمة الله ، أي أن الكينونة ذاتها هي الرحمة عينها ، كما ورد في سورة

الأعـراف ، الآيـة ٥٦ : ﴿ ورحمتي وسعـت كـل شيء ﴾ ونقرأ في دعاء كميل « ورحمتك التي وسعت كل شيء » .

هذا النوع من الـرحمة ليس فيـه استثناء ، فـلا يعني أنه يشمـل الانسـان ولا يشمـل غـير الانسـان ، أو أنـه يشمـل الانسـان المؤمن فحسب ، كـلا ، بـل إن الكـون بـأكمله تشمله رحمـة الله ، أو أنـه هـو رحمـة الله . أي إن مـا هـو موجود في عالم الوجود هو رحمة الله .

إن الـدرس الـذي نستـطيـع أن نستخلصـه من آيـة ﴿ بسم الله الـرحمن الرحيم ﴾ هـو أن كل مـا يصـل من الله الى العـالم ليس الخير والشر ، بـل ان ما يصـل منه كله خـير ورحمـة ، وهي رحمـة تشمـل الجمـاد والنبـات والحيـوان والانسان ، لأن الوجود قد افتتح برحمة الله .

أمـا الرحيم ، عـلى وزن فعيل ، فتـدل عـلى رحمـة من الله دائمة لا تنقطع . قلنا إن « الرحمن » تدل على رحمة الله الواسعة التي تشمل كل الموجودات ، غـير إن في هذا العـالم مجمـوعـات من المـوجـودات التي تفنى ، و(الـرحيم) تـدل عـلى تلك الرحمـة الخالـدة التي لا تشمل إلاّ الـذين وضعـوا أنفسهم في مهب هذه الرحمة بايمانهم وأعمالهم الصالحات .

وعلى ذلك، فان لله رحمة عامة ورحمة خاصـة. فبرحمتـه الغـامـة يضم جميـع الكـائنـات، ومنهـا الانسـان، ولكن

الانســـان هـو الكــائن الـوحيـد المكلف وهـو المسؤول عن نفسه ، فاذا أنجز ما بعهدته من تكاليف ووظـائف، شملتـه رحمة الله الخاصة . فـالرحمن اشـارة الى الرحمـة الشاملة بغير تفريق بين مؤمن وكافر ، وحتى الانسـان والجماد والنبـات . والرحيم اشارة الى الـرحمة الخـاصة التي تقتصر عـلى الانسان المطيع[1] .

الحمد لله :

هنـا أيضاً لا بـد من القول بـأننا لا نملك في الفـارسيـة كلمة نترجم بها كلمة (الحمد) . هنالك في الواقع كلمتان يمكن أن يقـاربا معنى « الحمـد » ، ولها مـرادفان بـالفارسيـة يستفـاد منهـما في تـرجمـة « الحمـد » . الأولى هي « المـدح » ويرادفها بـالفارسيـة كلمة « سِتـايِشْ » والأخرى « الشكـر » ويقـابلها « سِپـاسْ » بالفـارسيـة ، ولكن لا يمكن لأي منهـما بمفردها أن توصل معنى كلمة « الحمد » .

كلمـة « المـدح » قـريبـة في المعنى من « الحمـد » ، بـل

---

(١) ورد في الروايات عن الفرق بـين الرحمن والـرحيم كما يـلي : عن الصادق (عليه السـلام) (في حديث) : « والله آله كـل شيء الرحمن لجميع خلقـه ، والرحيم بـالمؤمنين خـاصة » . (الكـافي ـ توحيد الصدوق ـ تفسير العياشي) .

يـرى بعضهم ان هناك احتمـالاً قـويـاً أن تكـون اللفـظتـان لكلمة واحدة . إذ إن في العربية الكثير من نظائـرها ، مثـل خلص ولخص ، وأيس ويئس ، حيث نـرى إن حـروفهـا واحدة وإن اختلفت مواضعها .

والمدح من المشاعر التي يختص بها الانسـان . فالانسـان هو وحده الـذي يبلغ من الأدراك والاحساس بحيث انـه إذا واجـه الكمـال والجـلال والجمـال والبهـاء ، أثـار فيـه هـذا الشعـور رد فعـل يحمله عـلى المـدح . هـذا الأحسـاس لا وجـود له في الحيـوان ، فلا هـو يدرك ذاك الكمـال والجلال والعظمة ، ولا هو قادر على أن يمدح تلك الأوصاف .

قـد يتدنى المـدح في الانسان أحيـانـاً فيـظهـر في صـورة منحـطة ، وهو مـا يطلق عليـه عندئـذٍ اسم « المـداهنـة » . وهذه من الرذائـل ، وهي تحدث عنـدما يمـدح المرء أمـراً لا حقيقة له . إنه لمن القبيح أن يستعمل الانسان تلك القدرة التي وهبهـا الله لـه كي يمـدح الجمـال والعـظمـة عـلى حقيقتهـا ، فيمـدح بها مـا لا يستحق المـدح بـالمرة لمجـرد الـطمـع . ومـا تلك القـدرة السـامية عـلى تمجيـد الكمـال وتكريمه إلا لكي يشبعهـا الانسان ويـرضيها ، لا أن يضعهـا في خدمة اللطمـع ، ذلك النـوع الخسيس من الأحساس . أما المدح الحقيقي فلا يخالطه شيء من الطمع ، انما هو أمر

فطري وطبيعي في الانسان عندما يصادف مظهراً من مظاهر الجمال ، فلو رأى ، مثلاً ، ورق القرآن الذي كتبه (بايْسنْقَر) قبل سنين لدهش من جماله ولما وسعه إلا أن يمدحه ويثني عليه . فلو سئل هذا الانسان : ما الذي حملك على المدح ، أيدفعون لك شيئاً لقاء ذلك ؟ ترى ماذا سيكون جوابه ؟ سيقول : وهل يلزم أن يدفع أحد شيئاً ؟ أنا إنسان ، والانسان اذا وقف امام الجمال والكمال والعظمة والجلال لا يسعه إلا أن يحني رأسه ، وأن يمدح ما يرى . هذا هو معنى كلمة « المدح » ، ولكن كلمة « الحمد » لا تعني المدح فقط .

في الانسان ثمة احساس آخر ، الاحساس بالطهارة ، وهذا ايضاً من خصائص الانسان ، و هو ما يسمى بالشكر . ويحصل هذا عندما ينال الانسان خيراً ، حيث تقضي انسانية الانسان أن يظهر امتنانه للذي اناله الخير . فلنفترض ان رجلاً في سيارته يريد العبور فيصادف سائق سيارة آخر له حق السبق بالمرور ، فاذا توقف هذا وسمح للأول بالمرور ، فان الآداب الانسانية، وهي فطرية ، تقضي أن يشكر صاحب الحق على كرمه ، أو حتى أن يلوح له بيده أو برأسه . إن هذه الخصلة ، وإلى هذا الحد ، غير موجودة في الحيوان ، بل يختص بها الانسان . وما سؤال القرآن : ﴿ **هل جزاء الاحسان إلا الاحسان** ﴾

إلا خطاب موجه الى فطرة الانسان السليمة ، والمجيب هو ضميره الطاهر ووجدانه .

لقد قيل ان من عرف نفسه فقد عرف ربه . وهذا أمر صادق وعظيم ، إذ إن معرفة الانسان نفسه توصله الى معرفة ربه . وان من طرق معرفة الانسان نفسه هو أن يعرف مشاعره الانسانية الخاصة ، ومنها هذا الاحساس بالشكر والامتنان ، والذي يهيمن عليه الضمير ، ولا علاقة له بالتربية والمحيط والعادات المحلية ، ولا يتعلق باقليم دون آخر . فالآداب والعادات يغيرها الزمان والمكان ، بل قد ينقلب الى ضده . فقد تجد في بلد ما إنهم يرفعون قبعاتهم ويعيدونها الى رؤوسهم تحية ، ولكنك قد لا تجد هذا سائراً في بلد آخر . ولكن لا يمكن ان يكون جزاء الاحسان إساءة في بلد معين ، ثم يقال ان هذا من عادات ذلك البلد وآدابه ! .

والحمد لا هو مدح خالص ولا هو شكر خالص : فما هو إذن ؟ يمكن القول اننا إذا مزجنا الأثنين كان الحمد . اي تلك الحالة التي تستوجب المدح لجلالها وعظمتها وحسنها وكمالها وبهائها ، وفي الوقت نفسه تستوجب الشكر أيضاً لما وصلنا منها من خير واحسان . ههنا يكون موضع استعمال (الحمد) .

الحمد يكون لله :

ليس من المستبعد ان يكون للحمد مفهوم آخر ، وهو مفهوم العبادة . وعلى ذلك يدخل في مفهوم الحمد عناصر ثلاثة في وقت واحد : المدح ، والشكر ، والعبادة . فالحمد ، بعبارة أخرى ، هو مدح الشاكر العابد . وقد جاء في الآية : ﴿ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ﴾ فلعل هذا هو منشأ مفهوم العابد في كلمة « الحمد » .

يجمع المفسرون على أن معنى الآية هو أن « الحمد » كله لله ، فاذا لم تكن الكلمة تتضمن معنى الخضوع والتواضع ، بالأضافة الى معنى العبادة ، وأنها تعني الشكر فقط ، فلماذا يمتنع الانسان عن الشكر ازاء النعم التي وهبها الله له ؟ بل ان على الانسان ان يشكر حتى المخلوقات التي جعلها الله وسيلة لأيصال الخير الى الانسان ، حتى لقد قيل : « من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق » كالأب والأم ، والمعلم ، وكل أولئك الذين كان الانسان مشمولاً دائماً بخيرهم واحسانهم . ولا يقبل الاعتذار بأن على الانسان أن يشكر الخالق ، وليس عليه ذلك تجاه المخلوق ، فينساهم وينسى احسانهم . والمسألة ليست ان نعلم انه ليس مستقلاً بذاته ، وانه انما كان بعون الله أن أوصل الينا خيره ، فوجب الشكر لله قبل

ذلك .

يتضح من اختصاص الحمد بالله أن معناه ليس الشكر فقط ، بل المدح والعبادة ايضاً .

ولما كان الله هو وحده الجدير بالعبادة ، وبما أنه هو الرحمن الرحيم ، فاننا نمدحه ونشكره ونعبده .

الخلاصة هي ان « الحمد » من الأحاسيس الانسانية الباطنية الطاهرة . احساس يعجب بالجمال والجلال ، فيثني عليهما ويخضع لهما . لذلك فان سورة الفاتحة تستلزم معرفة الله . أي إذا لم يعرف الانسان ربه معرفة كاملة ، فلن يكون قادراً على قراءة سورة الفاتحة قراءة صحيحة واقعية ، فتكون مجرد لقلقة .

مثلاً ، إذا صادفت انساناً ذا روح عالية كبيرة وملكات وفضائل ، وإذا ألّمت بك حاجة وجدته يسرع الى نجدتك ورفع حاجتك بدون تحفظ أو تقاعس ، فيصل اليك خيره واحسانه ، تجد انك تكبره في نفسك وتجله ، وإذا ما ورد ذكره في مجلس تسرع ، كالبلبل الواله امام الورد ، بمدحه والثناء عليه بكل ما في قلبك من امتنان وعرفان بالجميل . إن ثناءك هذا ينبع من اعماق روحك ، وانك لتشعر باللذة والراحة إذ تفعل ذلك .

والانسان تصيبه حالة مماثلة في الصلاة . لقد سبق أن

قلنا مراراً اننا نعتقد ان العبادة لازمة لمعرفة الله ، واذا لم تكمل معرفة الله ، لم تبلغ العبادة مراقي السمو .

هنا تجدر الاشارة الى إن هناك بعد « الحمد لله » أربع صفات هي : « رب العالمين ـ الرحمن ـ الرحيم ـ مالك يوم الدين » . وكل صفة منها باب الى معرفة الله ، مما سوف يرد توضيحه .

ولكن قبل أن نصل الى تلك الصفات ، نجد ان اختصاص « الحمد » بالله ـ تلك الذات التي تستحق العبادة والثناء ـ يدل على أرفع الدرجات . اي انه الذات التي يجدر بنا ان نحمدها ونعبدها ، بصرف النظر عن نعمها علينا واحسانها الينا ، وبصرف النظر عن معرفة البداية والنهاية في العلم والمعرفة ، وخلق الانسان ، وهذا الكون الفسيح .

لا شك ان بلوغ هذه الدرجة ليس في متناول كل انسان ، فذاك علي بن ابي طالب الذي يقول : « إلهي مَا عَبَدْتُك طَمعاً في جَنَّتِك ولا خوفاً مِنْ نارِك ، بَل وَجَدتُكَ أهلاً للعبادة فَعَبَدْتُكَ » .

أي إن عبادتي لك ليست لأنك خلقتني وأحسنت الي ، وليست لأنك وعدت عبادك بأن لهم الجنة في الدار

الآخرة ، بل لأنك أنت أنت ، وإنك أهل للعبادة[1] .

يقول سعدي ما معناه :

« إذا كانت عينك من الصديق على احسانه فانت تحب ذاتك لا الصديق . وهذا خلاف « الطريقة» أن يتمنى الأولياء من الله غير الله »[2] .

رب العالمين :

فيما يتعلق بكلمة « رب » لا بد أن نشير الى انه ليس في الفارسية كلمة تقوم مقامها ، فهي قد تكون بمعنى المربي ، ولكن يجب الانتباه الى ان « رب » تأتي من « رَبَبَ » لا من « رَبَيَ » . فالمربي مأخوذة من مادة « ربّي » . وقد تأتي أحياناً بمعنى « صاحب » أو « ولي الأمر » كما جاء في قول عبد المطلب : « أنا رَبُّ الإبلِ وللبيت رَبٌّ » .

---

(١) جاء في نهج البلاغة ان عبادات العابدين انواع ثلاثة : « قوم عبدوا الله رغبة ، فتلك عبادة التجار ، وقوم عبدوا الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله شكراً ، فتلك عبادة الأحرار » .

(٢) كر از دوست چشمت به احسان اوست
تو دبند خويشي نه در بند دوست
خلاف طريقت بود كاوليـاء
تمنا كنند از خدا جز خدا

على كل حال ، إن أي اشتقاق من هذين لا يفيد المعنى المتضمن في « رب » ، على الرغم من أن كلاً منهما صفة من صفات الله ، ولكن يبدو ان في كلمة « رَبّ » مفهوماً يؤدي معنى الألوهية ، وكذلك معنى ولي الأمر أو صاحبه ، ومعنى المربي . والله هو وحده ولي أمر العالم كله ، وموصله الى مرتبة الكمال .

لا شك إن الله قد خلق عوالم وموجودات كانت منذ البداية كاملة لا نقص فيها . أي انها لا تملك أية قوة أو استعداد للتكامل ، بل انها قد خلقت متكاملة منذ بدء خلقها ، أي إن « بدءها » و « عودها » شيء واحد ، وهي من حيث كونها مخلوقة ومُبدَعة ، تكون مربوبة لله ، والله ربها .

أما العالم الذي نعيش فيه نحن ، عالم المادة هذا ، فانه عالم متدرج ؛ يبدأ نظامه من النقص ويتجه نحو الكمال . أي إن « بدءه » و « عوده » ليسا شيئاً واحداً ، بل هما شيئان اثنان . موجوداته مخلوقات الله ، وهي مربوبة له .

وفي الوقت نفسه يختلف عالم الطبيعة عن العوالم الأخرى ، بالنظر لما فيه من التنوع . ولكل نوع من أنواعه عالم خاص به ، مثل عالم الجماد ، وعالم النبات ، وعالم

الحيوان ، وعالم الانسان ، وعالم الأفلاك . وكلها تسير من النقص الى الكمال في حركة مستمرة ، وان أياً منها لم يكن منذ خلقه كاملاً ، وان الله هو الذي يوصل هذه العوالم الى الكمال ، فهو رب العالمين .

يستفاد من القرآن أن هذا العالم عالم التربية . والانسان ، الذي ينقسم بدوره الى مجموعات مختلفة ، منها الصالح ومنها الطالح ، يمر بفترة التربية . وان مما يلفت النظر ان العالم يبدو وكأنه محيط زراعي يصلح لكل انواع البذور ، تنمو فيه وتترعرع . والصالح هو وحده الذي يسير نحو التكامل ، فالطالح (أي الذي يبذر بذوراً طالحة) يمر كذلك في هذا العالم بمراحل تطوره . لقد جاء في سورة اسرائيل :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجّلْنَا لَهُ فِيهَا ما نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْموماً مَدْحوراً (١٨) وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشكُوراً (١٩) كلاًّ نُمُدُّ وهؤلاَءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠)﴾ .

أي إن من يطلب الدنيا ويبذر بذراً دنيوياً فسوف يجعل الله تلك البذور تثمر ، انما الى الحد الذي يريده الله ، وللشخص الذي يشاء . أي ان ذلك لا يتبع نظاماً

قاطعاً بحيث انه يعطي كل باذر بذرة دنيوية ثمراً .

والسبب في ان وصول طالب الدنيا الى نتيجة ليس قطعياً هو ان هذه الدنيا تعج بالآفات ، والتزاحم ، والعقبات ، وليست لتربية امثال هذه البذور . ولكن الله يقول ان من كان هدفه محصوراً بالدنيا وخرج عن مسيرة الانسان الصحيحة ، فان مصيره النار .

ولكن الذي لا يستهدف اهدافاً دنيوية ، فيبذر بذوراً للآخرة ويجتهد في سبيل ذلك ، فان الله لن يضيع عمله ويوصله الى غرضه ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هؤلاَءِ وَهؤُلاَءِ ﴾ .

وعليه فان نظام هذا العالم قد وضع بحيث ان كل من يبذر بذراً يجد في النظام عوناً على نمو بذرته وتربيتها نفسها ، غير ان بعض البذور تصل الى نتيجة كاملة مئة بالمئة ، وتلك هي البذرة التي توضع على الصراط المستقيم . وثمة بذور فيها إمكانية النمو ، الا انها قد لا تنمو النمو الكامل المطلوب منها . وعلى ذلك فان الذين يخططون لأعمال قبيحة ويصلون الى بعض نتائجها ، لا يمكن ان يحتجوا بأنهم لم يكونوا ليصلوا الى النتيجة لو ان خططهم لم تكن صحيحة . كلا ، ان وصول اية نظرية الى نتيجة لا يدل على صحتها وأحقيتها ، بل هو نظام الكون الذي يقول ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء ﴾ .

الرحمن الرحيم :

سبق ان بحثنـا بعض الشيء في هـاتـين الصفتـين ، ولعلنا نضيف هنا فنقول ان وصف الله بهاتين الصفتين يتطلب معرفة كاملة بالله ، فالرحمن صفة من كانت رحمته كثيرة ، ولكنها ليست بالضبط بالمعنى الذي نفهمه من كلمة (كثيرة) ، بل المعنى ان كل ما في الوجود قد جاء منه ، وان كل ما يجيء منه خير ورحمة . والرحيم صفة من تفيض رحمته على الانسان دائماً .

هاتان صفتان : أولاهما ترتبط بنظام الوجود ، والأخرى تختص بعالم الانسان . إن الإنسان ليحتاج الى معرفة عميقة جداً حتى يستطيع ان يدرك اتصاف الله بالصفة الأولى بحيث يقدر أن يبصر ارجاء العالم وقد غرقت في فيض رحمة الرحمن ، وحتى يبعد عن نفسه الثنائية لكي لا يقسم العالم الى خير وشر ، بل يرى العالم الذي نشأ عنه وعاءٌ من الرحمن والخير ليس غير . وهذا هو مصداق العدل الالهي .

ينبغي على العبد ان يتذكر دائماً هذا الأمر ، وكما جاء في بعض الأدعية ، كالدعاء الذي يقرأ بعد التكبيرة الخامسة من التكبيرات المستحبة قبل الصلاة :

« لبيكَ وَسَعْدَيك والخير في يَديك ، والشرُّ ليْس اليك » .

فاذا عرفنا الله انه هو الرحمن ، فقد عرفنا العالم على انه المظهر الأتم لحكمة الله البالغة ونظامه الأكمل . على الانسان عندما يصف الله بهذه الصفة أن يرى في نظام الكون نظاماً كله خير ورحمة ونور . أما الشر ، والحقد ، والظلمة ، فهي أمور نسبية وغير حقيقية . لا شك انه ليس بمقدور كل فكر ناضح أن يزعم ان لهُ مثل هذا المنظور الى العالم . وليس بامكان احد ان يكون له هذا المنظور بالقوة أو حتى بالتعبد . فاذا أرادنا القرآن ان نحمد الله بهذه الصفة ، فانه يريدنا ان نعرف الله والعالم بهذه الصورة . وان معرفة كهذه تعني اننا ندرك امراً شامخاً عظيماً كهذا بطريقة صحيحة ، عن طريق العقل والبرهان . وفي هذا كله دعوة ضمنية للتفكير في الالهيات وتأييدها .

أما فيما يتعلق بالصفة الثانية « الرحيم » ، فهنا ايضاً يجب ان نقول ان معرفة الله بهذه الصفة تقتضي ان يكون الانسان على معرفة تامة بموقعه بين الكائنات في هذا العالم .

إنَ مَا يمتاز به الانسان بين الكائنات ، هو انه الأبن البالغ لهذا العالم . انه ليس الأبن القاصر لهذه الأسرة

ليبقى تحت قيمومة الأب والأم الأجبارية ، وانما هو قد بلغ من الرشد والتعقل الى درجة قيل له ان عليك أنت ان تختار طريقك . بينما نرى الكائنات الأخرى تقع بالأكراه تحت سيطرة عوامل هذا العالم . فالانسان هو وحده الذي يستطيع بعقله أن يكون حراً في اختيار أحد طريقين امامه :

..﴿ إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إما شاكراً وإمَّا كفُوراً ﴾[1] .

فإذا سار الانسان في الصراط المستقيم وطريق الحق ، أصبح تحت رحمة من الله خاصة شاملة ، لكأن العالم قد صيغ بحيث ان السائر في طريق الله لابد أن يكون الله في عونه ، فيهديه وأخذه يده ، ويسبغ على قلبه النور والقوة :

﴿ والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2] .

ويهيء له اسباب الرزق وسبله « من حيث لا يحتسب » ،ويبلغ بعد ذلك مرحلة يشعر فيها أنه في مرحلة الأخذ والعطاء مع ربه ، إذ يرى انه كلما ازداد خلوصاً في عمله ، ازدادت عناية الله ورحمته به . تلك هي مرحلة الرضا والتسليم .

---

(١) سورة الدهر ـ آية : ٣ .

(٢) سور العنكبوت ـ آية : ٦٩ .

مالك يوم الدين :

تقرأون في « الرسائل العمَلية »،إن هذه الآيـة يجوز أن تقـرأ على وجهـين : « مـالـكُ يـوم الـدين » و« مَلِكِ يَـوْمِ الـدِّين » . فهــل يؤدي هــذا الاختــلاف في القــراءة الى اختلاف في المعنى ؟ .

ملك ومـالـك لهـما في الاستعمالات اليــومية معنيــان مختلفـان ، فـالأول عــلاقـة سيـاسيـة ، والآخــر عـلاقــة اقتصـادية . فحيثـما يكون الانسـان مالكـاً لشيء يكون معنى ذلك ان له أن ينـال فائـدة من ذلك الشيء . أمـا قول ملك فيعني وجود قوة فوق اخرى لها حق السياسة والتدبير .

غـير ان كلا الجانبـين يفتقر ان الى الـواقعيـة ، بـل همـا اتفاق ليس غير . أي اننـا اذا قلنـا أن فـلانـاً مـالـك الـدار الفلانية ، فهـذا يعني انه اتفق عـلى ان يكون الأمـر كذلـك في الوقت الحاضر ،واذا قيل ان فلانـاًملك الناحيـة الفلانيـة ، فهـذا ايضاً لا يـزيد عـلى ان يكـون مجـرد اتفـاق واعتبار . وعليـه ،فاذا صادف أن تبدل هـذا الاعتبار ونقض الاتفـاق ، لم يعد لأي منهما وجـود ،أي يمكن في لحظة واحـدة .ان يصبح مـالـك تلك الـدار وملك تلك النـاحيـة شخصـين آخــرين وباتفاقين جديدين .

ففي حـالات مثل هـذه حيث تتعين المـالكية والملكيـة في

نطاق الاعتبارات والاتفاقات ، يكون لكل منهما معان ومميزات تختلف عما للأخرىٰ ، أي إن ملك لا تقوم مقام مالك ، ولا هذه مقام تلك ، فههنا واحدة مُلك وواحدة مِلك .

ولكن في حالات اخرى تكون هذه الروابط حقيقية وواقعية . فإذا قال احد، مثلاً ، انه مالك قواه البدنية ، فيعني انه حرفي الاستفادة منها ، أي إن فيه قوة يستطيع استعمالها وقتما يشاء ، كأن يتحدث بها ، وان لم يشأ لم يفعل . وهكذا ترون إن مفهومي ملك ومالك شيء واحد هنا ، أي إننا مالكوا أعضائنا وجوارحنا ، وفي الوقت نفسه هن ملكنا ونحن مسلطون عليها ، وذلك لأنه أمر تكويني وليس مجرد اتفاق .

أما فيما يتعلق بالله ، وهو خالق الكون ، وارادته فوق كل ارادة ، فان توحد المعنى في ملك ومالك أمر بيّن ، وهنا تكون الرابطة الحقيقية بين المالك والمملوك . وقد جاء في القرآن بخصوص يوم القيامة :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لله الوَاحِدِ القَهَّارْ ﴾[1] .

وفي آية أخرى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾[2]

(١) سوره المؤمن ـ آية . ١٦ .

(٢) سورة آل عمران ـ آية . ٢٦ .

في هـذه الآية يصبـح «ملك» و « مـالك » كـلاهمـا تحت عنـوان « مملوك » . وهـذا هـو معنى « لِمَن المُلكُ » ، فـالـلام هنا لام الأفادة ، أي : من المالك ؟ فيكـون الجواب : الله وهكذا يتّضح ان « مِلك » و « مُلك » ليستـا بعيدتـين بعض عن بعض ، ولا هما تمشيان في خطين منفصلين .

فهـل الله مـالـك وملك في يـوم القيـامـة فقط ، لا في الدنيا ؟ فالله مالك الدنيا والآخرة وملكهما معاً ،وانمـا الفرق هو ان الانسان في هـذه الدنيـا لا يملك عيناً تـرى الحقيقة ، لذلك فهو ينظر الى المالكين والملاك نظرة اعتبـارية مجـازية ، ويرى نفسه وغيره مالكاً للأشيـاء وملكا عليها ، فيقول : أنـا مالـك هذه الـدار ، ولكنه عنـدمـا تنكشف لـه حقـائق الدنيا وينظر الى العالم نـظرة واقعية ، عنـدئذ سيـرى ان كل مـالـك وملك مصـطنـع ومـا مـالـك أو ملك حقيقي الا وجوده :

﴿ وَلَقَدْ كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[1] .

والرواية التالية تؤيد هذا الموضوع أيضاً :

« عن جـابر عن أبي جعفـر (عليه السـلام) أنه قـال : الأمـر يومئـذ واليوم كله لله . يـا جابـر اذا كان يـوم القيامـة

---

(١) سورة الاحقاف ـ آية : ٢٢ .

بادت الحكام فلم يبق حاكم إلا الله »[1] .

إياك نعبد وإياك نستعين :

على الرغم من أن المرء يحسب ان التوحيد واحد من المسائل الاسلامية ، وان هناك آلاف المسائل الأخرى الى جانب التوحيد ، ولكن النظرة الدقيقة تكشف له ان الاسلام كله توحيد ، أي ان جميع المسائل ، سواء أكانت ترتبط بأصول العقائد ، أم ترتبط بالأخلاقيات وبالتربية وبالتعاليم اليومية ، كلها توحيد .

ثمة اصطلاح في المنطق اسمه التحليل والتركيب ، وهما كلمتان مأخوذتان من ميدان العلوم الطبيعية ، حيث يكثر استعمالهما . والمقصود بهما هنا هو إنه مثلما يوجد تركيب وتحليل في عالم المادة ، أي ان جميع المركبات قابلة للتحليل الى عناصرها الأولية ، وانه اذا أعيد تركيب تلك العناصر عاد المركب ثانية ، كذلك الأمر في الآراء والأفكار .

يقول الفلاسفة ان أفكار البشر وآراءهم تعود جميعاً الى أصل واحد هو عدم التناقض ، أي إذا حللناها فان رجوعها الى هذا الأصل أمر حتمي .

---

(١) الميزان ج٢ ص٢٢٩ .

إن في الاسلام أصلاً كهذا هو التوحيد ، أي إننا إذا حللنا جميع المباني الاسلامية لعادت جميعها الى التوحيد .

إذا أخذنا النبوة والمعاد ، وهما أصلان من أصول العقيدة ، أو لو حللنا الأمامة ، لرأينا انها هي التوحيد .

إذا بحثنا القواعد الأخلاقية أو الأحكام الاجتماعية الاسلامية ستتضح انها شكل من اشكال التوحيد .

إلى هنا نكتفي بهذا المقدار من هذا البحث ، مؤجلين التفصيل فيه الى مناسبة أخرى ، كما إن في « تفسير الميزان » تفاصيل أكثر .

التوحيد النظري والتوحيد العملي :

في الاسلام توحيدان : نظري وعملي . التوحيد النظري يتعلق بعالم المعرفة والفكر ، أي معرفة الله بالوحدانية . والتوحيد العملي هو جعل الذات عملياً ذاتاً واحدة باتجاه الذات .

وبعبارة أخرى ، التوحيد النظري يعني معرفة وحدانية الله ، والتوحيد العملي يعني بلوغ وحدانية الإنسان ! إن النقطة التي أود ذكرها هي ان ما ذكرناه حتى الآن من سورة الفاتحة يتعلق بالنوع الأول من التوحيد ، أي التوحيد النظري ، ولكننا من هنا (إياك نعبد) نبدأ ببيان التوحيد العملي . وههنا يستطيع الانسان ان يدرك عظمة

هـذه السورة الصغيـرة التي لا نظير لهـا ، والتي تعد نمـوذجاً واضحـاً لأعجـاز هـذا الكتـاب الكـريم . الحق ان المـرء لا يستـطيع ان يمنـع نفسـه من الـدهشـة والعجب ، إذ كيف يمكن لـرجل أمي ، لم يـدخل مـدرسة وعـاش في محيط أمي يجهـل كل شيء عن العلوم والحضـارات ، أن يجري لسـانـه بـذلك العمق الـذي حمل علماء الـلاهوت عـلى الأنغمـار في التفكـير والتأمـل ، وبتلك السلاسـة والعذوبـة ، بحيث أن المرء لا يشبع أبداً من تكراره .

واليكم توضيح ذلك :

إن الجمـل والكلمـات التي مـرت بنـا من أول السـورة حتى « مـالك يـوم الدين » كـانت مجموعـة من المسائـل التي تتعلق بمعـرفـة الله ، فهـو « الله » وهـو« الـرحمن » وهـو « الرحيم » وهو « رب العالمين » وهو « مالك يوم الدين » . ويضـاف الى ذلك أنـه « محمود » عـلى الاطلاق ، وكـل حمد وشكر يختص به .

في الـواقـع ان جميـع الألهيـات قـد تضمنتهـا هـذه الكلمات ، فهي تشمل أهم المسائل الالهية .

لقـد صدق العلماء والحكـماء عندمـا استنبطوا بـأن قيـام القرآن بطرح هـذه المسائـل انما هـو دعوة الى ولـوج أعماقـه وسبر أغوار حقائقه . لا يريدنا القرآن أن نـدير كلمـاته عـلى

السنتنا في لقلقة فارغة ، بل يريدنا ان ندرك حقائقها .

إن من يذكر الله في صلاته بهذه الصفات ، فانه يدّعي ،في الحقيقة ،بأنه يعرف الله بصفاته وأسمائه تلك .

إن معرفتنا بأنه هو « لله » تعني معرفتنا ذاته الكاملة الجديرة بالعبادة ، وإن كل الكائنات تتوجه اليه بالفطرة . وبعبارة أُخرى ، هي معرفة موجود مطلق الكمال والأعتراف به ، وعلى انه منزه عن كل نقص وعدم وحاجة ، ولذلك فان كل شيء منه وإليه .

أما معرفتنا بأنه (رحمن) فيجب حقاً ـ كما سبق لنا قوله ـ أن يكون الانسان دقيقاً جداً في تفكيره حتى يقدر على معرفة الله متصفاً بهذه الصفة . أي أن يدرك أن الوجود بكلية مظهر من مظاهر (رحمانيته) وأن ما يصدر عنه ليس إلا الخير والرحمة ، وان كل موجود من حيث كونه موجوداً ، ومن حيث كونه منتسباً الى ذات الله ، ومن حيث كونه أمراً واقعياً ، ليس سوى الخير والرحمة . أما الشر والحقد وغيرهما فلها جانبها العدمي أو النسبي أو هي حالات اضافية ، وليس لها وجود في نفس الانسان[1] .

معرفة الله على أنه (رحيم) تعنى إن من يصف الله

---

(١) للحصول على تفاصيل أوفى راجع « العدل الإلهي » للأستاذ مطهري .

بهذه الصفة يدّعي بأنه قد بلغ مرحلة من المعرفة بحيث إنّه لا يدرك نظام الخلق وصدور الأشياء فحسب على أنها من مظاهر ذات الله ، بل ويدرك أيضاً أن نظام رجوع الأشياء إلى الخير نظام خير ورحمة أيضاً ، أي إن الكائنات قد جاءت من الرحمة وإلى الرحمة تعود .

وهذا يعني ان الرحمة سابقة على النقمة ، وبعبارة أخرى ، لو عرفت النقمة أو العذاب معرفة جيدة لظهرت أنها رحمة في لبوس نقمة .

بتعبير آخر : إن الله سبحانه وتعالى يتصف بصفات الجمال ، كالعلم والقدرة والحياة والجود والرحمة ، ويتصف بصفات الجلال ، فهو القدوس وهو الجبار وهو المنتقم . . .

وهو ، سبحانه وتعالى ، ليس ثنائياً في ذات وجوده ، أي إنه لا ينقسم الى نصفين ، فنصف رحيم وخير وجواد وربوبية ، ونصف قدوس وجبار ومنتقم . كما انه في الوقت الذي يكون فيه خيراً وجوداً ورحمة لا يكون جباراً ومنتقماً ، بل ثمة تقدم وتأخر في اسمائه وصفاته .

لقد أجرى أهل الحكمة والمعرفة بحوثاً عميقة كثيرة ولافتة للنظر في هذا المجال ، تعتبر من أثمن نتائج الفكر البشري ، لأنها خلاصة أعمال اشخاص وهبوا قرائح

عبقرية ، وقدرة على المتابعة بغير كلل ، إضافة الى التعمق والتمحيص للوصول الى حقائق الأمور .

أجل هنالك ضرب من التقدم والتأخر في أسماء الله وصفاته ، أي أن بعض الأسماء والصفات تلدهن أسماء وصفات أخرى . وعلى العموم ، تتقدم الصفات الجمالية على الصفات الجلالية ، فهذه وليدة الأولى . أما الذي تتقدم فيه جباريته وانتقاميته على كل شيء فهو (يهوه) إله اليهود الذي اصطنعوه ، وليس « الله » الحقيقي ، رب العالمين ، الذي يعرفه القرآن .

ومن هنا يمكن أن ندرك لماذا يقترن « اسم الله » في القرآن بالرحمن الرحيم ، لا بالجبار المنتقم ، وذلك لأن بيان الوجود في نظر القرآن هو بيان الله الرحمن الرحيم ، وما جبروته وانتقامه إلاّ من مظاهر رحمانيته ورحيميته .

من الواضح ان رحمة الرحيم هي الرحمة التي تشمل جميع الكائنات عند رجوعها الى الله ، وهي تشمل بالدرجة الأولى أهل الايمان ، وهم الذين كل ما يصلهم بالظاهر والباطن خير ورحمة ، رحمة ليست في صورة نقمة ، بل رحمة مطلقة لا نسبية .

أما القول بأن الفرق بين « الرحمن » و « الرحيم » هو أن الأول يختص بالدنيا ، والثاني يختص بالآخرة ، أو

القــول بـأن « الــرحمن » تشمـل جميــع النـاس بكفــارهم ومؤمنيهم ، وإن « الرحيم » تشمل المؤمنـين دون غيـرهـم ، فالمقصود من ذلك هو ما أوضحناه من قبل .

إن الـدنيـا والآخــرة ، من حيث كـونهما عــالمـين ، لا يختلفـان ، حتى يقال إن أحـدهمـا يعتبـر الـرحمـة تعـود عـلى (الـرحمن) ، ويرى الآخـر انها تعود عـلى « الـرحيم » ، أن يقال إن الرحمة التي يشترك فيهـا الكافـر والمؤمن مأخـوذة من مادة واحدة ، وإن الرحمة التي تختص بـالمؤمنين دون غيـرهم مأخوذة من مادة أخرى .

ليس في عـالم الوجـود تقسيمـات كهـذه . إن الـوجـود ينقسم ، من حيث الــرحمــة ، الى القــول بــأن في العــالم « مجيئــاً » وأن فيــه « رجــوعــاً » . ففي الـعــالم « منــه » و « اليـه » . فالله رحمن يعني « المجيء منـه » وهو مـظهر من مـظاهر الـرحمة . والله رحيم يعني « الـرجوع اليـه » . وهـو مـظهر من مـظاهـر الـرحمـة أيضـاً . وحتى جهنم والعـذاب باعتبارهمـا من مظاهـر جبروت الله وانتقـامه ، فـانهما وليدتـا رحمته . وليس بالمستطاع ايضاح أكثر هنا .

مالك يوم الدين :

إنـه مـالـك يـوم الـدين . هنـا يـطرح نـوع آخــر من

المعـرفة . وهنـا العبد يـدّعي معرفـة نهايـة الخلق . أي انـه يعـرف يوم الجـزاء حيث ينكشف عدم اصـالة أيـة وسيلة أو سبب ، سوى الله المالك والملك .

كـل هـذا والـذي قيـل مِنْ قبـل ينـطوي تحت لـواء التـوحيـد النـظري ، أي التـوحيـد الـذي هـو من مقـولـة المعـرفة ، وهي معـرفة لازمـة وضـروريـة ، اذ لا ينبغي أن يقـال انها مـرحلة فكـريـة لا ضـرورة لهـا . ابـداً ، لأن الاسلام يرى ان للمعـرفة نفسهـا اصالتهـا ، وانه لـولا هذه المرحلة لما تقدم الانسان .

لكن هـل تكفي هذه المـرحلة ؟ أي اذا عرف الانسـان وفهـم ، فهل يعد موحداً ؟ .

كـلا ، إذ ان هذه المعـرفة والفهم ليستـا سوى المقـدمة لكي يكـون مـوحـداً . أي إن عليـه أن يعـرف وأن يفهم لكي يصبح موحداً (التوحيد العملي) .

وعندما نقـول « إياك نعبـد » نكون قـد بدأنـا التوحيـد العملي ونريد أن نعلن الوحدانية .

أصل كلمة عبادة :

يطلق في العربية على حالة الشيء الـذي يكون طيعـاً ،

ليناً ، ومطيعاً ، بحيث لا يعصى ولا يقاوم ولا يعتدي ، اسم حالة التعبد .

لم تكن الطرق في الأيام القديمة مثلما هي عليه اليوم ، حيث تقوم مكائن خاصة بتعبيدها ومن ثم يكون السير عليها . بل كان السير هو الذي يصنع الطرق ، لذلك فقد كانت الطرق في أوائل أيامها مليئة بالأحجار والصخور والأشواك ، مما كان يعيق المرور ، ولكن بازدياد المرور تصاغرت تلك الأحجار ، ولانت ، ولم تعد تعترض سبيل المارين ، ولا تؤذي أقدام الناس-وحوافر الحيوان ، إذ غدت مرنة طيعة ، وهي التي كانت أحجارها من قبل شكسة ، قلقة ، عاصية . أما بعد أن أصبحت هينة طيعة ، أطلق عليها اسم : الطريق المعبد[1] .

والانسان العبد والمعبد يعني الانسان المطيع المسالم الطيع الذي لا يعصى ، فهي حالة الاطاعة والانقياد والرياضة ، وعدم العصيان مقدار ذرة ، تلك الحالة التي يجب ان يتصف بها الانسان أمام خالقه ، فان تكون عبداً لله يعني أن تكون في تلك الحالة نحو الله تعالى . أما التوحيد في العبودية والعبادة ، فيعني انك لا تكون في تلك الحالة امام أي كائن وتحت أي آمر ، بل ان تكون في حالة

---

(١) يقال طريق معبد أي مذلل ـ مفردات راغب .

عصيان وتمرد في غير حضرة الله . وعليه ، على الانسان أن يكون في حالين متضادين : التسليم المطلق لله ، والعصيان المطلق لغير الله . وهذا معنى اياك نعبد . أي انني اعبدك أنت وحدك ، ولا اعبد غيرك .

لا بد هنا ان نشير الى ان اطاعة الذين أوجب الله طاعتهم ، كالأب والأم ، والأمام القائد الجامع للشروط ، تعد كلها في الواقع في حكم طاعة الله ، فما دام الله هو الذي يأمرنا فعلينا ان نطيع وكل ما يشبه هذا يعتبر عبادة لله ، ولكن كل ما يقف بازاء الله عرضياً ، لا طولياً ، شرك .

أنواع الشرك والتوحيد :

ورد في القرآن ذكر انواع من الشرك ، نشير الى بعض منها بحيث نلقي مزيداً من الضوء على معنى التوحيد العملي بصورة اجمالية :

١ ـ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾[١] .

في هذه الآية عد الانسان العابد لشهواته مشركاً . وفي هذا يقول مثنوي :

---

(١) سورة الفرقان ـ آية : ٤٣ .

« أم الأصنام صنم النفس
فتلك أفعى وهذه تنين
النفس صخر وحديد والصنم الشرر
ومن الماء يأخذ حكمنه الشرر
كيف يسكن الصخر والحديد الماء
كيف يأمن الانسان مع هذين »[1]

وعليه عندما نقول « إياك نعبد » ننفي بذلك العبودية لغير الله ، ونؤيد في الوقت نفسه كوننا نطيع أوامره هو ، ولا نطيع أوامر ميولنا وأهوائنا وشهواتنا .

٢ ـ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾[2] .

في الوقت الذي يذم فيه القرآن اليهود والنصارى ، يقول انهم ، بغير أن يكون عندهم أي أمر من الله ، اتخذ

---

(١) مادَرِ بُت ها ، بُتِ نَفْسِ شُماست
جُونكه آن بُتْ ، مارُواين بُتِ ازدَهاست
آهَنُ وَسَنْك است نفس وبت شرار
آن شَرار از آب ميكيرد قرار
سنك وآهن زاب كي ساكن شود
آدمي با اين دوكي أيمن شود

(٢) سور التوبة ـ آية ٣١ .

اليهود علماءهم والنصارى رهبانهم آلهة يعبدونهم .

إن الذي نعلمه هو أن اليهود والنصارى لم يعبدوا علماءهم وقد يسيهم مثلما يعبد عبدة الأصنام أصنامهم ، أي انهم ، مثلاً ، لم يسجدوا لهم ، ولكنهم كانوا يتعبدون أمامهم . أي انهم كانوا يطيعونهم مستسلمين بغير اذن من الله ، وكانوا في الواقع يطيعون أهواءهم وميولهم ، فما كان يأمر به أولئك اتباعاً لشهواتهم كان هؤلاء يطيعونهم، يقول الله إن الطاعة من الحقوق الخاصة به فاذا ما جاء أحد بأمر من الله فلا بد من طاعته ، ولكن الله لم يرسل الأحبار والرهبان بأمر منه ، فلماذا يطيعونه ؟ .

فبقولنا « إياك نعبد » نخاطب الله قائلين اننا لن نعبد أحداً باسم الروحانيين ، أو القديسين أو أي اسم آخر، ولا نطيع أحداً طاعة عمياء ، انما نطيع من أمرتنا أنت بأطاعته ، ولا نطيع من لم تأمرنا بطاعته . كنا نطيع رسولك، فذلك لأنك أنت الذي أوجبته علينا . وإذا كنا نطيع الأئمة الأطهار على أنهم أولوا الأمر منا ، فذاك بأمر منك . واذا أطعنا العلماء المجتهدين جامعي الشروط ، أي العلماء العدول المتقين ، فذلك لأن الرسول والأئمة الأطهار ، الذين أوجبت علينا اطاعتهم ، قد أمرونا بذلك .

٣ ـ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا آللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾[1] .

هذه الآية هي الرسالة التي أرسلها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سنة خمس أو ست هجرية الى ملوك العالم . انها مظهر من مظاهر التوحيد العملي في العالم : ليس للانسان أن يتخذ إنساناً آخر رباً ، ولا أن يكون انسان مربوباً لآخر . وهكذا فان « اياك نعبد » تعني : إلهنا أنت وحدك ربنا المطاع ، وليس لنا رب اجتماعي ، ولا نضع انساناً بإزائك ، ولا نطيع أمراً غير أمرك .

٤ - ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[2] .

عندما واجه موسى بن عمران فرعون ودعاه للأيمان بالله ، رد عليه فرعون غاضباً : أولست الذي كنت في بيتي وكبرت تحت يدي ، وقمت بعملك الكبير القبيح (يقصد قتل القبطي) ؟ فأجابه موسى : أتمن عليّ ذلك حتى تستعبد بني اسرائيل ؟ أتريد لي الصمت لأنك اتخذت بني اسرائيل عبيداً لك ؟ .

---

(١) سورة آل عمران ـ آية : ٦٤ .

(٢) سورة الشعراء ـ آية : ٢٢ .

تلاحظون أن موسى (عليه السلام) يصف موقف فرعون من بني اسرائيل على انه (تعبيد) مع ان بني اسرائيل لم يسجدوا لفرعون ، انما كان قد أذلهم وأجبرهم على طاعته والعمل له ، سالباً منهم كل حق وحرية اختيار ، مستغلاً اياهم ، فكانوا بهذا المنظور ، مستسلمين لفرعون مطيعين له . لذلك فان « اياك نعبد » تعني : ربنا إننا لن نستسلم للتعبيد ، ولا للإذلال ، ولا للإكراه على العمل ، ولا للطاعة ، ولا لسلب حق الاختيار والحرية .

هذه هي نماذج مما ورد في القرآن توضح معاني التوحيد العملي . فالتوحيد العملي هو ذلك الذي يصطلح عليه علماء الاسلام بالتوحيد في العبادة ، أي التوحيد في الواقع الخارجي ، بمعنى ان واقع وجود الانسان قد توحد أيضاً .

خلاصة ما قيل هو إنه لا يكفي في الاسلام أن يكون المسلم موحداً في مرحلة الرأي والفكر فيعرف الله في ذاته وصفاته وأفعاله بالوحدانية ، وأن يكون قادراً ، إن طلب منه ، على ان يتحدث ستة شهور حول معرفة الله . ان شخصاً هذا شأنه لا يملك من التوحيد الا نصفه ، والنصف الثاني هو أن يكون في الأفعال توحيدياً أيضاً ، بل ان يكون موحداً . عندئذ يكون قد عرف الله بكمال صفاته ، ويكون موحداً في التسليم بطاعته ويمكن ان نقول

انه أصبح موحداً .

ههنا ، كما قلنا من قبل ، تبدو عظمة سورة الفاتحة وتتضح ، وانه لمدعاة للعجب حقاً ان يستطيع شخص لم يقرب الدرس عمره ، ولا خالط فيلسوفاً ، ولا جالس عالماً ، أن يأتي في أولى سور كتابه بكلمات ، وأن يرتبها ، بحيث يضع رسالته كلها في مقطوعة صغيرة ، وأن يصوغ فكرة التوحيد النظري بأرفع جلالها في جملة قصيرة ، وأن يبين التوحيد العملي في جملة « اياك نعبد » القصيرة ! .

حصر العبادات :

في اعراب جملة « إياك نعبد » تكون اياك مفعولاً به للفعل نعبد ، فكان حقها أن تأتي بعد الفعل ، فتكون الجملة « نعبدك » ، ولكنها لو جاءت هكذا لكان المعنى : ربنا إننا نعبدك ولكن رجال الأدب واللغة يقولون : تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر

وهذا يختص باللغة العربية ، ففي الفارسية مثله أيضاً لذلك فان معنى الجملة يصبح : ربّنا نعبدك وحدك ونستسلم لك ونطيعك ، ولا نطيع أمراً لا يكون صادراً عنك . فتلك الجملة إذن جملة واحدة بدلاً من أن تكون جملتين : جملة مثبتة : نستسلم لله ، وجملة منفية : لا نستسلم لغير الله .

وعلى ذلك نجد في هذه الجملة شعار التوحيد الذي يجمع الايمان والكفر ، كقول المسلم لا إله إلا الله ، حيت يبرز الايمان والكفر معه ـ الايمان بالله والكفر بغير الله .

لقد جاء في آية الكرسي :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُر بِالطَّاغُوتِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ ﴾[1] .

الايمان في الاسلام ، بغير الكفر ، لا يكون عملياً ، إذ يجب دائماً أن يكون بجوار التسليم لله انكار لمظاهر الطغيان ، حتى يكتمل الايمان .

ضمير الجمع :

في هذه المرحلة عند بلوغ التوحيد العملي ومرحلة (تكوّن) الانسان ، تجدر الاشارة الى نقطة لافتة للنظر ، وهي ان الفاعل في (نعبد) ضمير يدل على الجماعة ، فلم يقل (اعبد) فيكون الفاعل عندئذ مفرداً ، أي لم يقل « انا اعبدك وحدك » بل قال « انا نعبدك وحدك » ففي هذا المقام ، مقام صنع الانسان وصياغته ، تجري عملية صنعه في ضوء معرفة الله والتوجه اليه ، لا في حالة اغفاله

---

(١) سوَر البقرة ـ آية ؛ ٢٥٦ .

وعدم معرفته ، في مضمار العمل والنشاط ، لا بالنظرية والفكر المحض .

يصاغ الإنسان في خضمّ العمل الاجتماعي وبمسايرة المجتمع الموحد والانسجام معه ، وليس منفصلاً عن قافلة أهل التوحيد ان الإنسان كائن فكري إلهي ، عملي ، واجتماعي .

فالانسان بغير الفكر والمعرفة ليس انساناً حقيقياً . ان الانسان المنقطع عن الله والغافل عنه ليس انساناً ان انسان الفكر الالهي المنقطع عن العمل ليس انساناً حقيقياً كذلك ، انه انسان ناقص ، بمثل ما هو ناقص ذلك الانسان المفكر الذي يعرف الله معرفة عملية ، ولكنه منقطع عن المجتمع الموحد . لذلك فان معنى جملة « اياك نعبد » في الحقيقة هو :

ربنا ، نحن أناس المجتمع الموحدين، نسير في حركة متناسقة ومعاً متوجهين اليك بآذان صاغية لأوامرك .

إياك نستعين :

منك وحدك نريد العون ، ولا نريد العون من غيرك .

هذه الجملة تفيد التوحيد في الاستعانة ، ومعنى ذلك

هو اننا نطلب العون والمساعدة منه واننا نعتمده وحده .
هنا يمكن أن نطرح سؤالاً ويمكن ان يطرح هذا السؤال على صورتين :

الأولى عن أصل الاستعانة . يرى علماء التربية والتعليم وعلماء الأخلاق ، ان الانسان يجب أن يعتمد نفسه ، لأن اعتماد المرء غيره والاستعانة بالآخرين يجعل منه انساناً ضعيفاً واتكالياً ، بخلاف اعتماد النفس الذي يوقظ فيه القوة والحيوية .

فبموجب هذه القاعدة ينبغي على الانسان ان يتكل على نفسه ، لا على غيره ، سواء أكان اتكاله على الله أم على غيره . ولهذا فان علماء اليوم يرون أن كلمة (توكل) ، التي تعني التوكل على الله ، وسلب التوكل على النفس ، تعتبر ذات مضمون سلبي لا أخلاقي .

ويمكن أن يطرح هذا السؤال بصورة أخرى : لماذا ينبغي ألّا نطلب العون من غير الله ؟ لماذا ينبغي ألّا نعبد غير الله ، ولكن ما المنطق في ألّا نطلب المساعدة من غيره ؟ لقد جعل الله العالم عالم الأسباب ، وجعل الناس يحتاج بعضهم بعضاً ، فلا مندوحة عن طلب عون الآخرين في سدّ الحاجات اليومية وغيرها .

للإجابة على هذا يجب آن نقول : ليست القضية هكذا ، وانما هي شيء آخر ، فليس كل طلب للمعونة وكل توكل على الآخرين قبيحاً ، أبداً . بل إن الله قد خلق الإنسان محتاجاً الى غيره من خلق الله ، أي ان المجتمع الانساني قد بني على أن يكون الناس محتاجين بعض الى بعض ، وانه لمن هذا المنطلق أننا نرى ان التعاليم الاسلامية تحثّ على التعاون . لقد جاء في القرآن المجيد :

﴿ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾[1] .

وكلمة « التعاون » من مادة « عون » ، ولو كانت الاستعانة بغير الله غير جائزة بكل الحدود ، لما حث الله الناس على التعاون لكونهم يحتاج بعضهم الى بعض ، ولذلك فلا بد أن يتعاونوا فيما بينهم .

جاء في الأخبار ان رجلاً دعا الله بالدعاء التالي وهو في حضرة أمير المؤمنين (عليه السلام) : اللهم لا تحوجني إلى خلقك . فقال الامام : لا تقل هذا . فقال : فكيف أقول ؟ فقال الامام : قل اللهم لا تحوجني الى لئام خلقك .

وذلك لأن الجملة الأولى مستحيلة ما دامت طبيعة الانسان وتكوينه الاجتماعي يقتضيان التعاون . جملة

(١) سورة المائدة ـ آية ؛ ٢ .

(إياك نستعين) لا تقول إن على الانسان ألّا يستعين بالآخرين ، فما هي المسألة ؟..

إن ما في الآية هو ان الاعتماد النهائي ، وان ما يتكل عليه قلب الانسان ، اي ما يتكل عليه الانسان في نفسه ، ينبغي ان يكون الله ، وأما الذين يستمد منهم العون في الدنيا فانما هم وسائل . فالانسان نفسه ، وطاقته ، وقوة عضلاته ، وقوة فكره ، كلها وسائل خلقها الله ووضعها تحت تصرفه ، ولكن الأمور بيد الله . لذلك فقد يتكل الانسان في دنياه على وسائل كثيرة ، ثم يخيب ظنه فيها لأنها لم تقدم له العون الذي كان ينتظر . بل قد يعتمد قواه الخاصة ، ولكنه يجدها قد خيبت أمله . إن القوة الوحيدة التي يستطيع الانسان أن يتكل عليها وينظم برنامجه معها دون خوف ، هي الله .

جاء في التاريخ انه في احدى الحروب ابتعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قليلاً عن المعسكر وارتقى مرتفعاً من الأرض وتمدد ليستريح ، فغلبه النوم . واتفق أن مر به أحد فرسان العدو الشجعان ، فأبصر الرسول ، فعرفه ، ففرح بذلك وقال في نفسه إنه سيقتله . وفيما كان الرسول نائماً وقف هذا على رأسه وصاح به : يا محمد ، أهذا أنت ؟ .

ففتح الرسول عينيه ، وقال : أي والله إنه أنا .

فقال الرجل : فمن تراه يقدر على خلاصك مني ؟

فقال الرسول دون تردد : الله .

وإذا لم يكن الرجل ينتظر هذا الرد قال له : سوف نرى . وتأخر خطوة حتى تزداد ضربته قوة ، واذا به يعثر بصخرة ويقع على الأرض. فأسرع الرسول يقف على رأسه وقال : فمن تراه يقدر على خلاصك مني ؟ وعندها قال الرجل مفتوناً : كرمك . فعفى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عنه .

خلاصة القول هي ان هذه الآية لا تعني ان الانسان يجب ألّا يمد يده طلباً للعون أبداً ، ولكنه يجب الّا ينسى ، وهو يطلب العون ، سبب الأسباب ، وأن يدرك ان الوسائل كلها بيده .

إهدنا الصراط المستقيم :

إننا لكي نلقي الضوء على الصراط المستقيم يجب ان نبين بعض النقاط :

١ ـ كل الموجودات تسير في مسيرة كونية لا ارادية حتمية نحو الله في صيرورة :

﴿ ألا إلى الله تَصِيرُ الأُمُورُ . وإنَّ رَبَّكَ

الْمُنْتَهىٰ ﴾[1] .

والانسان لا يخرج عن هذا بحكم كونه من الموجودات :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾[2] .

٢ ـ هنالك بين الطرق الكثيرة طريق مستقيم لا حب واحد ، هو طريق السعادة ،وهو اختياري ، أي ان على الانسان أن يختاره بنفسه .

٣ ـ بما ان ما يختاره الانسان هو طريق من الطرق . فانه لذلك يتحرك في مسيرة ويطوي الطريق نحو هدفه . وبعبارة أخرى ، انه يريد أن يتقدم نحو الكمال . وعليه فان الانسان كائن يطلب الكمال ويبحث عنه . فجملة : إهدنا الصراط المستقيم تعني : ربّنا ارشدنا الى الطريق المستقيم الذي يوصلنا الى التكامل .

٤ ـ طريق التكامل طريق يجب أن يكتشف ، لا أن يبتدع ، بخلاف نظرية الوجوديين التي تدعي انه لا وجود لأي طريق ولا لأي هدف ، وإن الانسان هو الذي يخلق

---

(١) سورة الشورىٰ ـ آية : ٥٣ .

(٢) سورة الانشقاق آية : ٦ .

بنفسه مكانة وهدفاً وطريقاً ، فهو نفسه خالق الهدف وخالق الطريق وخالق الكمال ، أي انه هو الذي يخلق كمال كماله وقيمة قيمته . في نظر القرآن الكمال والطريق ، وكمالية الهدف ، وتقويم القيمة ، متعينة منذ بدء الخليقة والوجود ، وعلى الانسان أن يكتشفها ، وأن يعثر على الهدف ، ويقطع الطريق .

٥ ـ الطريق المستقيم هو طريق وجهته معروفة منذ البداية ، بخلاف الطرق غير المستقيمة المنحنية أو المتعرجة أو المنكسرة التي يفترض فيها أيضاً أن توصل الانسان الى الهدف بعد كثير من تعدد الوجهات . وعلى ذلك فان طريق الانسان نحو الكمال ليس ذلك الطريق الذي يمر عبر الأضداد والانحراف من ضد الى ضد كما يقول الدايلكتيكيون .

٦ ـ إن القول بأن طريق التكامل طريق يجب أن يكتشف لا أن يبتدع لا يعني انه كالطرق المكانية ، وانه كان موجوداً قبل وجود السائر ، ومخططاً ، وذا معالم كالشوارع ، وان على الإنسان أن يمشي فيه بل يعني وجود مسير بوجود السائر ، يوصل إلى الكمال الحقيقي الذي يقترب من حضرة الله ، أي ان في جبلة الإنسان استعداداً فطرياً لبلوغ الكمال الحقيقي ، كالاستعداد الكامن في نواة التمر للتخلق والنمو شجرة كاملة .

٧ ـ على الرغم من أن للانسان استعداده الفطري ، الا انه محتاج الى المرشد الهادي . ذلك لأن الانسان يختلف عن جميع الكائنات ذوات الاستعداد الفطري اختلافاً رئيساً .

فالموجودات الأخرى طريقها في الطبيعة واضح مرسوم ، وليس امام أي منها الا ان يسير في الطريق المرسوم ، وليس الانسان كذلك . ويعبر عن ذلك في الفلسفة بمقولة : ان لكل موجود طبيعة ، عدا الانسان ، فانه لا طبيعة له .

يصر الوجوديون على القول بأن الانسان كائن عديم الماهية وعديم الطبيعة . لقد سبق لنا أن بحثنا هذا الموضوع في مكانه ، وأثبتنا انه ليس صحيحاً بالشكل الذي يشرحونه .

إن للانسان طبايع مختلفة ومتضاربة ، وعليه ان يختار طريقه من الطبائع العليا والسفلى أما الحيوانات الأخرى فلم يعهد اليها بحرية الاختيار ، بل الحصان والشاة والقطة الكلب لكل منها غرائز خلقت معها وهي التي تعين طريقها ، ولذلك نرى كلاً منها في كل ارجاء الأرض تختص بطبائع وميول موحدة ، وهي متشابهة في أفعالها وسلوكها . فالنحل والنمل لكل منها عاداتها في بناء مساكنها واعداد غذائها ، لا تتحول عنه مدى الدهر .

ولكن امام الانسان مئات الطرق والأساليب، له أن يختار منها ما يشاء .

لقد جاء في سورة الليل : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .

لا شك إن هذا دليل على كمال الانسان ، لا نقصه .

بقي علينا أن نرى ان كان هذا يستلزم الاّ يكون للانسان أي طريق مطلقاً .

على الرغم من ان الماديين يرون هذا الرأي ، الا أن القرآن لا يقبل بذلك . يقول القرآن ان هناك مساراً مرسوماً بين الانسان والله ،وهو مسار كمال الانسان. إن أمام الانسان ألوفاً من الطرق ، غير ان واحداً منها هو الطريق المستقيم اللاحب الذي يتجه نحو الله وينتهي اليه . إلا أن للانسان ملء الحرية في الاختيار ، فان اختار الطريق المستقيم فيها ،وإلاّ فان جميع الطرق الاخرى غير صحيحة ومضللة .

هنالك حديث يروى عن الرسول الكريم انه كان يوماً جالساً وحوله جمع من الناس ، وراح الرسول يرسم خطوطاً على الأرض ، وكان واحداً منها مستقيماً والخطوط الأخرى غير مستقيمة ، ثم قال : هذا خطي دون باقي الخطوط .

هـذا هـو السر في ان الـظلمـة تـرد في القـرآن بصيغــة الجمـع ، والنـور بصيغـة المفـرد : ﴿ الله وَلِيُّ الَّـذِينَ آمَنُـوا يُخْـرِجُهُمْ مِنَ الـظُّلمَـاتِ إلىٰ النُّـور ﴾ فـطرق الضـلال متنوعة ، وطريق الحق طريق واحد .

هنـا تتجلى الحـاجة الى هـداية الأنبيـاء ، اذ ان الطريق المستقيم الـذي يـوصـل الانسـان الى الكمـال النهـائي لا يستطيع الانسان الاهتداء إليـه بغير هدايتهم ، وهم الذين أرسلهم الله لهداية الانسان .

يقول « تفسير الميزان » أن كلمة « سبيـل » قد وردت في القـرآن بمعنى « الـطريق » ولـكنـه يختلف في المعنى عـن « الصـراط » ، ولـذلـك فقـد يـأتي « السبيـل » في صيغــة الجمـع ، ولكن لم يـرد « الصـراط » إلّا بصيغـة الفـرد . والسبيـل هو ذلـك الطريق الفـرعي الذي ينتهي الى الـطريق الرئيس . والصراط هـو ذلك الـطريق الفرعي الـذي ينتهي الى الطريق الرئيس . والصراط هو ذلك الطريق الـرئيس .

قـد لا يكون للوصول الى نقطة مـا غير طـريق واحد ، غـير أن الـطرق الفرعيـة التي تـأتي من الأطـراف والأكنـاف كثيـرة ومتعـددة ، ولكنهـا تلتقي ذلـك الـطريق الـرئيسي في النهاية .

نحن البشر أشبـه ما نكـون بالقـافلة ، نكون معـاً أثناء سيرنا نحو الكمال ، ولكن علينـا ، للوصول ، الى الكمـال

النهائي ، أن نجتاز الطريق الرئيس ، إلا أننا قد نصل إليه عن طريق طرق فرعية . فإذا قام كل امريء ، في مكانه الوظيفي ومركزه الاجتماعي ، بالسير على وفق الموازين الانسانية والأخلاقية والشرعية ، يكون في الواقع قد اختار طريقاً سيوصله في النهاية الى الطريق الرئيس ، حتى وان كانت البدايات متفرقة مختلفة كأن يكون أحدنا طبيباً مثلاً ، والآخر عاملاً ، والثالث تاجراً . فهذه كلها طرق يستطيع المرء بالمسير فيها أن يقترب من الصراط المستقيم .

صِراطَ الذين أنعمتَ عليهِمْ غَيْرِ المَغْضوب عليهم ولا الضالين :

الناس من حيث مقام العبودية وما يريدون بلوغه ، ومن حيث حريتهم في أي طريق يختارون ، ينقسمون الى اقسام ثلاثة :

فأولاً : أولئك الذين يطوون طريق العبادة وهم ، كما قلنا في شرح كلمة (الرحيم) ، مشمولون برحمة الله الخاصة ، تنزل عليهم النعمة تلو الأخرى على الدوام ، ويشعرون كأن يداً من الغيب تجرهم جراً . هؤلاء هم المقربون الى الله ، كالأنبياء والأولياء ومن ثم الأشخاص الذين بلغوا الكمال . فعلى المرء أن يجعل هؤلاء قدوة

يقتدي بهم ويقتفي أثرهم . فالانسان في الجملة الأولى يطلب من الله أن يضعه في طريقهم .

وثانياً : أولئك الذين يقفون مقابل الجماعة الأولى ، والذين عصوا الله ، وعبدوا إلهاً غيره ، فبانت عليهم اعمالهم الواحد بعد الآخر ، وكأن يداً تبعدهم دائماً عن الطريق الصواب ، فبدلاً من أن يتجهوا نحو الأعلى مثل الجماعة الأولى ، فيكونوا موضع نعمه المتوالية ، تراهم موضع غضب الله ، وقد فقدوا سبيلهم نحو الكمال كلياً ، متجهين الى هاوية الشقاء المخوفة :

﴿ **وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى** ﴾ . هؤلاء في الواقع ، أناس تخلوا عن طريق الانسانية واتبعوا طريق الحيوانية ، فمسخت انسانيتهم ، فهم يتأخرون بدلاً من التقدم ، وهم الذين يعبر عنهم القرآن بقوله « المغضوب عليهم » .

وثالثاً : هنالك فيما بين هؤلاء وهؤلاء جماعة ثالثة ، مذبذبة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا يرون طريقاً واضحاً امامهم ليسيروا فيه ، تراهم حيارى ضائعين، يتخذون في كل لحظة سبيلاً ولا يصلون نهاية . وهؤلاء يعبر عنهم القرآن « الضالين » .

فعنـدمـا نقـول : إهـدنـا الصـراط المستقيم ، صـراط الـذين أنعمت عليهم، غير المغضـوب عليهم ولا الضـالـين نـدعـوا الله تعـالى قـائلين : ربنـا ارشـدنـا الى الـطريق الصحيـح ، طريق أوليائك الصـادقـين المـطهـرين ، طـريق الـذين لا تفتأ تشملهم بنعمـك المتتاليـة ، لا طريق عبيـدك الذين مسخوا وتغربوا عن الإنسـانية، فبـاؤوا بغضب منك، ولا طريق التائهـين الضائعـين الذين يـظهرون في كـل لحظة بمظهر مختلف ومع جماعات مختلفات .

خاتمة سورة الفاتحة

سورة البقرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم

﴿ ألم (١) ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدَى لِلمُتَّقِين (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُؤْمِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (٥) إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُون (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أبْصَارِهِمْ غَشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيم (٧) .

وجه تسمية السورة :

تسمى هذه السورة باسم سورة البقرة بالنظر لورود

اسم بقرة بني اسرائيل فيها . وهي أول سور القران ، وتتألف من حوالي جزءين ونصف من أجزاء القرآن .

الحروف المقطعة :

هذه سورة مدنية ، وتبدأ ، مثل ثلاث عشرة سورة أخرى ، بحروف مقطعة ، ونقصد بها أحرف الهجاء بدون أن تتركب مع بعض .

قد تبدأ هذه السورة بحرف واحد ، مثل سورة « ن والقلم » أو سورة « ق » . وقد يبدأ بعضها بحرفين اثنين ، مثل سورة « يس » وسورة « طه » وسورة « طس » . وقد تبدأ سور اخرى بثلاثة حروف، مثل سورة « طسم » وسورة « ألم » . وقد تكون اربعة حروف، مثل سورة « المر » ، وبعض بخمسة حروف ، مثل سورة « حمعسق » وسورة « كهيعص » .

يختص القرآن وحده بهذه الخصوصية ، إذ لم يسبق أن ابتدأ كتاب ، سماوياً كان أم غير سماوي ، بحروف مقطعة . فما هو المقصود من هذه الحروف ؟ .

لقد طرح هذا السؤال منذ الأيام الأول من صدر الاسلام ، وظهرت نظريات عديدة بهذا الشأن ، ويمكن القول بأنه لم يظهر لهذا السؤال جواب قاطع لحد الآن .

واليكم بعض هذه النظريات :

يرى بعضهم ان هذه الحروف سلسلة رموز بين القائل والسامع ، أي بين الله ورسوله ، تشير الى معارف ومعلومات أرفع في مستواها من مستوى العامة ، وانه لما لم يكن باستطاعة الناس أن يستوعبوا سماعها ، فلم تذكر صراحة ، بل جاءت على صورة رموز . وهذا أمر مألوف حتى بين الناس ، فحين يريد احدهم ان يقول شيئاً لا يفهمه إلا المخاطب المقصود ، فعندئذ يخاطبه بالرموز .

نظرية اخرى تقول ان هذه الرموز هي اسماء السور التي بدأت بها، أي ان اسم سورة البقرة هو« الم » ، وان اسم سورة طه هو « طه » .

ونظرية ثالثة تقول انها قسم ، فكما ان القرآن يقسم بساير مظاهر الخلق ، بالشمس ،بالقمر بالنجم، بالنهار ، بالليل ، وبالنفس ، فانه يقسم ايضاً بالحروف . أي ان معنى أ ـ ل ـ م ـ هو : اقسم بـ أ ـ ل ـ م .

عندما يقسم الانسان بشيء ، فانه في الحقيقة يقسم بشيء يكون محترماً عنده ، ويكون المخاطب عارفاً كذلك بأن صاحبه يحترم ذلك الشيء ولا يرتضي له اهانة أو تحقيراً ،ولذلك فهو يستند الى ذلك الشيء ليدل على صدقه

وانـه يقـول الحق . ولكن الانسـان قـد يقسم في حـالـة مختلفـة . فقـد يقسم ليفيـد أمـراً يقتضي القسم ، أي انـه يقسم لكي يعـرف المخـاطب انـه يقـدر الشيء ويحتـرمـه . فعندما يـريد امـرؤ أن يشعر النـاس انه يحترم فلانـاً ، فانـه يقسم بـرأس فـلان أو بحيـاتـه . ففي مثـل هـذه الحـالات يكـون المقصـود من القسم هـو المقسم بـه ،أي الـذي اقسم برأسه أو بحياته ، لا المقسم عليه ، أي موضوع القسم .

وهـذا النـوع الثـاني من القسم ، هـو الـذي يـرد في القرآن . فإذا أقسم القرآن بالقمـر والشمس والزيتـون والتين والنهار والليل ، فانه يريـد أن يوجـه انتباه البشر الى أهميـة تلك الأشياء .

إن من أهم الأمور التي كان لهـا دور اساس في حضـارة الانسـان وتمـدنـه هـو حـروف الهجـاء . فقـد لعبت هـذه الحـروف ، أو الأصـوات التي تخـرج بهيئـة حـروف ، دوراً كبيـراً في حياة البشر الإجتمـاعية . إن للحيـوانات أصـواتاً وأغـاني ، ولكنهـا لا تقـدر أن تصنـع منهـا حـروفـاً . فلو لم يستطع الانسان أن يصنع من أصـواته حـروفاً ، كـالبكم ، ولـو لم يكن قـادراً عـلى التكلم وايصـال مقـاصـده الى الآخرين ، لما كـان هناك علم ولا تمـدن أو صناعـة . وحتى الكتـابة ورسم الخط ، تلك النعمـة الكبرى والتي يقسم بهـا

القرآن ايضاً ، فقد ظهرت بعد مرحلة التكلم . أي ان مقدرتنا على كتابة ا ـ ل ـ م منفردة هي من نتائج مقدرتنا على انْ نلفظها منفردة . فلولا هذه الحروف لكان علينا ان نرسم صورها لأيصال مقاصدنا . لكان علينا ، مثلاً ، أن نرسم بيتاً ليدل على البيت ، وصورة السيارة لتدل عليها . وهذا يعني استحالة ايصال ما لا يمكن رسم شكله .

ثمة نظرية أخرى تقول إن هذه الحروف اشارة الى اعجاز القرآن . وهم يشرحون نظريتهم كما يلي :

إن حروف الهجاء العربية التي تبلغ «٢٨» حرفاً ، (وقد تكون أكثر في بعض اللغات ، حتى قيل ان في بعض اللغات حوالي ٣٠٠ حرف من حروف الهجاء) تعتبر بمنزلة لبنة البناء ، وهي في متناول الجميع . ولكن هل يستطيع الجميع أن يقولوا قولاً رفيعاً ؟ كلا ، فالحروف مثل خيوط الغزل بيد الناسجين ، ولكن أتراهم من حيث الفن ينسجون على منوال واحد ؟ أبداً .

إن قدرات الكلام وفنون الخطابة تتألف من هذه الحروف ذاتها ، وكذلك الكتب والمقالات والقصائد الشعرية كلها نسيج هذه الحروف ، ولكن الناتج على درجات من التفاوت ، قد يصل تفاوت ما بين السماء والأرض .

نقـرأ في آيـات أخـرى أن القـرآن يتحـدى النـاس ويـطلبهم الى المبـارزة ، فليجمعـوا كـل خـطبـائهم ورجـال الكلام فيهم وليأتوا بآية من مثله . أفهل يستطيعون ؟ .

فالقرآن ، بـذكره هـذه الحروف ، عـلى سبيل المثـال ، يريد في الحقيقـة ان يقول : هـا هي المواد الأوليـة التي صنع منها القرآن . أيها الناس ، لم يصنع القرآن من مـواد غيرهـا حتى تقـولـوا لـو كـان عنـدكم مثلهـا لجئتم بمثله. إنمـا هي الحروف ذاتها وقـد ألفت في طراز بـديع ، فتعـالوا واصنعـوا منها مثله . لم يصنع القرآن في مصنع معين حتى تقولوا انكم لا تملكـون مكـائنـه ومـواده ، بـل ان مكـائنـه ومـواده بـين أيديكم .

هـذا بيان اعجـاز القرآن ، إذ كيف يمكن لشخص أمي لم يـر المدرسة ولم يقرأ كتـاباً ان يصـوغ كلامـاً لا يقدر عـلى الاتيان بمثله أحد ؟ .

قبـل بضع سنـوات قليلة طـرحت نـظريـة أخـرى فيها يتعلق بالحروف استـأثرت بـاهتمام الصحـافة والنـاس وهي ان مصـريـاً مختصـاً بـالكمبيـوتـر (العقـل الآلي) أجـرى دراسات دقيقة على هذه السور الأربع عشـرة ، فتوصـل الى ان دور حرف البداية في كل سورة أكبر بالنسبة إلى الحـروف الأخرى المستعملة في السورة نفسها . فمثلاً إن الحـروف ا ـ ل ـ م في سـورة البقرة تلعب دوراً أكبـر مما تلعبـه الحـروف

الاخرى الواردة في السورة ، وإن نسبتها من الدقة بحيث لا يستطيع العقل البشري حسابها ، إذ أن الكسور فيها تصل درجات لا يقدر عليها غير الحاسب الآلي .

وفي الختام اورد احتمالاً آخر بهذا الخصوص وهو :

هنالك بحث قديم يدور حول الوجود الأول في نظام الوجود هذا . أي ما الذي تقدم ، وما الذي تأخر . وقد جاءت نظريتان للأجابة على هذا التساؤل . فبعض يقول : في البداية كانت الكلمة والكلام ، ويقصدون بذلك ان البداية كانت في الفكر والفهم والادراك ، لأن الكلمة والكلام من علامات الكفر والتفكير ، ومن ثم ظهرت المادة . ويرى آخرون ان المادة كانت سابقة ، أي إن المادة والطبيعة قد ظهرتا في البداية ، وبعد تكاملها ظهر الفهم والادراك والشعور ، ومن ثم ظهرت الكلمة والكلام .

يبدو أن القرآن يؤيد أولى هاتين النظريتين ، إذ إنه عندما يشرح قصة الخليقة ، يقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾[1] .

أي ان الأول هو القول ، ثم يأتي سائر المخلوقات .

---

(١) سورة يس ـ آية : ٨٢ .

إنـه لمن الواضح هنا أن القـول لا يعني مجرد التلفظ ، الهـواء والصوت ، فحسب ، بل ان له معنى أشمل وأكمل .

يبـدو ان الله بهـذه الحـروف المقـطعـة يبـين اسلوب الشـروع بعمله ، أي ان القـول والكـلام والفكـر أسبق من الجسم والطبيعة وجوداً .

ومهـما يكن فـان الحـروف المقـطعـة من متشابهـات القـرآن ، وعلى الأخص اذا قبلنـا بالنـظرية الأولى وقلنـا انها رموز بين الله ورسوله .

ذلك الكتاب لا ريب فيه :

ذلـك الـكتـاب . لاحـظوا انـه لا يـقـول « هـذا الكتاب » ، بل يقول ذلك الكتاب ، وهذا يعني التعـظيم ، ففي العـربيـة إذا أرادوا الاشـارة الى شيء عـظيم استعملوا الاشـارة الى البعيد ، أي إن ذلـك الشي تفصله عنـا وعنكم الفواصل .

لا ريب فيـه . لا شـك فيـه . مـا معنى هـذا ؟ كيف ليس في القـرآن شك ؟ عـلى الـرغم من علمنـا بـوجـود من يشك في اصالة القرآن ، حيث هو نفسه يقول :

﴿ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّـا نَـزَّلْنـا عَلَىٰ عَبْـدِنـا فَـأْتُـوا

بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[1] .

في الأجابة يجبْ ان نقول انك قد تقرأ كتاباً وتجد فيه اموراً ، فتتساءل : أصحيح كل هذا الذي فيه ، أم لا صحة له ؟ فأنت متردد وشاك . ولكي تتوكد لك صحته أو عدم صحته ، يقتضيك أن ترجع الى ما فيه من أسانيد فتتحقق منها .

نعم هكذا الأمر بشأن هذه الكتب ، وعلى الأخص في كتب الاخبار والروايات والادعاءات ، إذ إن اثبات صحتها يحتاج الى دليل وبرهان .

ولكن قد يتفق أحياناً ان الأمور تتوكد للقارىء بشكل ملموس ومحسّ بحيث لا يجده محتاجاً الى اي شاهد ودليل .

فمثلاً لو أن أحداً لا سابق معرفة لك به ولم تخالطه من قبل ادعى انه عادل ، فلا بد انه بهذا يثير فيك الشك ، فتأخذ بالبحث عن البينة والشاهد . فاذا ايد لك ذلك اثنان ممن تعرف فيهم العدالة وشهدا على صدق دعواه ، فانك ستقتنع ، والاّ فلا .

أما إذا كان هذا الشخص المدعي العدالة من المقربين

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٣ .

اليـك ، زاملته في الحـل والترحـال وعرفت أعمـاله ودرست سلوكـه ، بحيث تجلت لـك عـدالتـه وتقـواه ، فهـل تـراك تحتاج الى دليل أو شاهد على ادعائه ؟ كلا .

كـذلك الأمـور في القضايـا العلمية والنـظرية . فبعض المسـائل يتـطلب اثباتهـا الى البرهـان ، وفي بعض آخر يجـد الانسان أن الموضـوع واضح أمـامه فـلا يحتاج الى بـرهان ، بل ان مجرد طرحه يعتبر دليلاً على صحته .

كـذلـك هـو القـرآن . فقـد يـرتـاب احـد في أصـالـة القرآن ، وهذا يكون ما دام بعيداً عنه ، فـلما أن يقترب منـه حتى يزايله الشك فيه .

ولكن لا بـد أن نعلم ان الاقتـراب من القـرآن عـلى نـوعـين : الأول هـو أن يقـرأ الانسـان القـرآن ، فيفهمـه ويرجع الى التفاسير في مشكله ، والثاني هو أن يعمل به .

ولما لم يكن القرآن مجرد كتاب نـظري ، فقد اقتـرنت ، فيه النظرية والعمل توأمين . وعليه فان هـذه الآية تـريد ان تقـول : يا أيهـا الذين تـرتابـون في القـرآن وتشكون فيـه ، لكم كل الحق في ذلك ، لأنكم لم تقتـربوا منـه ، ولم تنظروا فيه ، ولم تطلعوا عليه ، ولم تختبـروه في مراحـل العمل ! فلو اقتربتم منه ولمستموه ، لما وجدتم في اصالته ترديداً .

هدىً للمتقين :

أول ما يتبادر للذهن في معرض معرفة القرآن والتقرب اليه هو ان نعرف أولاً : لماذا نزل القرآن ، وما هي ماهيته ؟ ولا يخامرنا شك في اصالته ، لأن الكتاب الذي لا نعرف سبب كتابته وما هو هدفه ، لا نستطيع أن نعطي فيه رأياً .

فلننظر الآن أي كتاب هذا ولماذا ؟ أهو كتاب في الطب ؟ في الفلسفة ؟ في التاريخ ؟ في الرياضيات ؟ لا ، ليس أياً من هذه . فماذا إذن ؟ إنه كتاب هداية .

انه هدى :

فمن الذين يهديهم هذا الكتاب ، أيهدي الجميع ؟ أفلا يعود هناك أي ضال بعد نزول القرآن ؟ وهل سيهدي الناس جميعاً بالاجبار ؟ كلا . فهو وإن لم يهد الناس جميعاً ، فانه سيكون سبباً لضلالة بعض آخرين ؟ وذلك كما يقول هو :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثيْرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثير ﴾[1] .

ولكن ينبغي ألاّ ننسى بالطبع ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفَاسِقِينَ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٦ .

والفاسق هو الذي يخرج عن طريق الفطرة الانسانية .

وفي هذا المعنى يقول مولوي :

« ادع الله ان يجعلك نجيا
في نور هذه الأمور لتصل الغاية
فقد ضل بالقرآن كثيرون
اذ بهذا الحبل هووا في قعر بئر
ولكن الحبل لا ذنب له أيها العنيد
إنما أنت نفسك لم ترد الصعود »[1]

وهو بهذا يشير الى أن القرآن حبل الله .

فالقرآن إذن هدى للمتقين، والمقصود بالمتقين

---

(١) الفسق من فسقت التمرة ، وهي ان تضغط التمرة فتخرج النواة ، أي انشقت التمرة فخرجت النواة . (وقد جاء في القاموس المحيط : فسقت الرطبة عن قشرها ، خرجت ، كانفسقت . قيل : ومنه الفاسق ، لانسلاخه عن الخير - المترجم) .

اَزْ خُدا مِیْ خواهْ تا زِیْنْ نُکْتِه ها
دَرْ نَوَزْ زي ورَ رِسي دَر مُنْتَهـا
زانْکِهْ دَر قُرآن بَسي کُمرْه شُدَنْد
زِیْنْ رَسَنْ قَومِی دَرُونِ چَهْ شُدَدْ
مَرْ رَسَنْ را نِیستْ جُرمِی اِیْ عَنُودْ
جُونْ تُرا سُود ای ِ سرَ بالا نَبُودْ

(الطاهرين) وهـم البـاقون عـلى فطرتهم الأولى . وهـذا موضوع بحثناه في مكانـه ، وسـوف نبحثه مـرة أخـرى .
فـالقرآن ، عـلى وجه العمـوم ، يرى أن كـل انسـان يـولـد طـاهـراً ، أي انـه مجهـز بتقـوى ذاتيـة ، ولكنـه قـد يتلوث بـالتـدريـج بمفـاسـد المحيط والبيئـة ، فيخـرج عن بـاطن الفطرة ، فيكون مسخاً .

يقول القرآن ، انـه لو بقي الانسـان على فـطرته الأولى لأوصله هذا الكتاب وهداه الى القصد والغاية ، بمعـونة كـل ما فيه من بذور الكمال والفضيلة .

الذين يؤمنون بالغيب :

أول مـا يهدي القـرآن اليه هـو أنه يهـدي الانسـان الى الايمـان بـالغيب . والغيب والشهـادة مـصـطلحـان من مصطلحات القرآن .

عـالم الـوجـود ، من حيث وجهـة نـظر القـرآن ، ليس منحصـراً بالأمـور التي نحسهـا فحسب ، بـل ان المحسّـات هي الطبقة الخـارجية من العـالم ، والقسم الأعظم منـه وراء ذلـك . فـالمحسّ يسمى الشهـادة ، وغـير المحسّ اسمـه الغيب .

إن مـا يسميـه الفـلاسفة عـالم الـطبيعـة ، من شجـر ، وورد ، وبحار ، وصحارى ، ومجرات ونجوم . . . وكـل ما

يراه الانسان أو يشمه أو يحسه عموماً ، هو ما يسميه القرآن عالم الشهادة .

ولو كان العالم هو كُلٍ هذا ، لكان منظور الانسان منظوراً خاصاً ، أي انه كان يرى الانسان يولد ، ويعيش مدة من الزمن في هذه الدنيا ، ثم يموت ويتلاشى ، ولم يكن يرى غير هذا شيئاً ، فلا يرى له بداية ولا نهاية ، ولا يخطر له أن يسأل : من أين ظهر هذا الانسان ، والى اين سوف يذهب ؟ .

انما رسالة القرآن هي أن يخرج الانسان من هذه النظرة الضيّقة، فيطلعه ويجعله يؤمن بأن عالم الشهادة هذا ليس سوى قشر الوجود ، وانما الوجود الحق العظيم هو ما وراء ذلك .

افضل مثل نضربه لعالم الغيب هو الانسان نفسه . فجسم الانسان من الأمور التي يحسه الانسان كما اننا نعرف النفس ايضاً ، ههنا قسمان من عالم الشهادة . ولكننا لا نحس نفس الآخرين ، فنفوسهم بالنسبة لنا من عالم الغيب ، اذ اننا حتى لو قضينا عمرنا مع غيرنا ، فسنسمع صوته ، ونرى لونه ، ونلمس جسمه ، ولا شيء غير هذا ، فنفسه ستظل خافية علينا دائماً ، فاذا اطلعنا على ما يدور في خلده فذلك لأننا نستنتج ذلك من حديثه

معنـا ، وإلّا فليس باستـطاعتنا أن نعـرف مكنونـات ضميره بصورة مباشرة ، ولا ما في قلبه .

يقـال ان لنا نفسـاً ذاتيـةالمعـرفـة ، وهـو مـا نعبـر عنـه بقـولنا : إننـا هكـذا نفكـر ، ونحس هـذا ، ونحب الشيء الفـلاني ، ونكره الشخص الفلاني . وثمـة نفس غير ذاتيـة المعــرفــة ، وهي تؤلف القسـم الأعــظم من وجــودنــا . فالانسان نفسه ، أكثره غيب وأقله مشهود .

والقـرآن يـرى هــذا في العـالم كله ، ويمنــح الانسـان منظوراً جديداً . فالمـلائكة ، واللوح المحفـوظ ، والعرش ، والكـرسي ، كلها تتعلق بعـالم الغيب وبـاطن هـذا العـالم ، وعـلى الرغم من اننـا لا نحسها بحـواسنا فـاننا لا نستـطيـع انكـارها ، بـل لا بد من الاعتقـاد بـأن عـالم الغيب هـو مـا تعجــز الحـواس عن احســاســه ، وان مــا لا تعجــز عن احساسه ، فهو العالم المشهود .

ويقيمون الصلاة :

بعد الايمان بالغيب يأتي موضوع اقـامة الصـلاة . يمكن القـول ان الأصـل الأول ، وهـو الايمـان بـالغيب ، يتعلق بـالنظام الفكـري العقائـدي عنـد المسلم ، والأصـل الثـاني يرتبط ببناءالـذات ، والأصل الثـالث هو الانفـاق ، ويتعلق ببناء المجتمع ، وهذا ما سوف نعود اليه مرة اخرى .

تتضح من هذا أهمية الصلاة ، حيث اعتبرت من دعائم الدين ، واذا كان لكل مذهب اسلوبه في تكوين اتباعه ، فان العبادة على رأس برنامج التربية الاسلامية ، وعلى رأس كل العبادات الصلاة .

ولكن علينا أن نلاحظ ان القرآن لا يقول : يتلون الصلاة ، بل يقول : يقيمون الصلاة ، وهناك فرق بين أن نتلوا الصلاة وأن نقيمها . ففي المواضع التي يشير فيها القرآن على انها تقرأ هي مواضع يراد بها الذم ، أي ان الكلام يدور فيها على الذين في صلاتهم شبهة .

ما معنى اقامة الصلاة :

اقامة الصلاة تعني اعطاء الصلاة حقها ، أي انها يجب ألّا تكون كالجثة التي لا روح فيها ، بل أن تجعل الصلاة العبد متوجهاً الى الله خالقه حقاً . وهذا أيضاً هو معنى الآية :

﴿ أقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾[1] .

تذكُّر الله يساوي نسيان غير الله . لو أن الانسان ظل حتى فترة قصيرة يناجي ربه ويطلب عونه ، ويحمده ،

---

(١) سورة طه ـ آية : ١٤ .

ويصفه بأنه الله ، وأنه الرب ، وأنه الرحمن ، وأنه الرحيم ، وأنه أحد ، وأنه الصمد ، وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فسيكون لذلك أرفع الآثار في نفسه ، وتبنى روحه على ما يريده الاسلام ، ولا يكون هذا بغير ذلك .

ومما رزقناهم ينفقون :

فما هو الإنفاق ؟ لا يعني الانفاق بالطبع أن يجعل المرء من نفسه فقيراً خالي الوفاض - كما يظن بعضهم - بل الانفاق هو بذل المكتنزات . والانفاق قد يعني الازالة . أي ازالة النفق والفقر ، فهم يزيلون الفقر ويقضون على الحاجات .

والانفاق يقيم روابط الانسان بالمجتمع على اسس مستقرة ، مثلما ان الأصل الأول ، الايمان بالغيب ، يرتبط بمنظور الانسان للعالم ، والأصل الثاني ، اقامة الصلاة يرتبط بالرابط الدائم بين الانسان وعالم الغيب .

هل يختص الانفاق بالمال ؟ :

تقول الآية : ومما رزقناهم ينفقون . وللرزق معنى عام ، والكلمة تعني في القرآن الرزق المعنوي والمادي ، والعلوم والمعارف تدخل ضمن أرزاق الله ، وعلى الذين رزقهم الله منها أن ينفقوها ليستفيد منها الآخرون .

فلسفة الانفاق :

قد يحسب بعضهم ان فلسفة الانفاق الوحيدة هي ملء الفراغ الاجتماعي ، فيقولون لو أن الحكومات والدول تلتزم هذا الأمر فتنشيء مؤسسات تأخذ على عاتقها حل مشاكل الفقر ، فلن تبقى حاجة الى الانفاق الفردي لحلها . ولكن الأمر ليس كذلك ، أقصد ان فلسفة الإنفاق ليست ملء الفراغ لاجتماعي فحسب ، بل ان لها علاقة ببناء الانسان أيضاً .

إذ إن الانسان الذي يملك شيئاً فينتزعه من نفسه ليصبح مظهراً من مظاهر رحمة الله يكون قد قام بدور كبير في بناء نفسه وتكوينها . العطف يعني الميل نحو الآخرين ، والالتفات اليهم ، والتوحد معهم ، والأخذ بيدهم . وهذا بحد ذاته هدف أساس مهم . فاذا لم يسد المجتمع مفهوم كهذا ، يكون الأمر كالبيت اذا فقدت منه روح المحبة والعطف ، وأقيمت مقامها مؤسسات تربوية .

يقول (برتراند) راسل وأتباعه : وهل فلسفة حياة الأسرة غير أن يقوم الوالدان بتنشئة الأطفال ، وبالمحافظة عليهم ، وبتمريضهم عند المرض ؟ هذا الضرب من التربية كان سائداً في السابق القديم ، لكن بعد أن تكامل المجتمع ، كان لا بد من نقل هذه الوظائف

الأسرية الى مؤسسات حكومية كبيرة ، حيث يؤخذ الطفل من دار الولادة مباشرة الى دار الحضانة ، حيث يكبر مع غيره من الأطفال ، وهكذا تأخذ هذه المؤسسات مكان الوالدين والاسرة ، وتعود الحقوق التي كانت في عنق الأبناء تجاه الوالدين ، والتي كانت على الوالدين تجاه الأبناء ، الى روابط بين الشعب والدولة .

إن العيب الكبير في هذه المسألة هو الخروج من مسيرة الفطرة الانسانية . لقد خلق الابوان وفيهما عاطفة الأبوة والأمومة ، وخلق الأبناء وفيهم عاطفة البنوة ، أي ان الأم من حيث كونها أماً تجد في نفسها دافعاً يدفعها لكي تحتضن وليدها وتربيه بحنانها ، وهذه عاطفة فطرية ، بل انها أعمال تجري مجرى لا إرادياً ، حتى إن الأم لا تدري ما تفعل .

ومن جهة أخرى ، عندما تطبع الأم تلك القبلة الحنون على وجنة وليدها وتضمه الى صدرها ضماً فانها بذلك تربي فيه روح المحبة والحنان ، أي انه يتلقى حرارة حبها ويتقبله . ان هذا الحب والحنان يشحنان الطفل بالطاقة ، حتى اذا ما كبر ونما ، سطع نورها في نظرات حب وحنان يلقيها على من حوله . لذلك فان بعض الذين يتربون في دور التربية ولم يروا حضن ام ولا حب أب ، ينقلبون الى مجرمين خطرين .

فالإنفاق من هـذا القبيل أيضاً ، فينبغي ألّا نقول ان فلسفته هي اشباع الجيـاع فقط ، وانه يمكن تحقيقـه من باب آخـر ، اذ ان فلسفة الانفـاق هي بناء الانسـان ، فالانسـان تتـربى روحـه تـربيـة انسـانيـة في ظـل العفـو والتسـامـح والايثار .

وعـلى ذلك فـلا يستطيـع امرؤ أن يقـول انـه يستـطيـع القنـاعة والاكتفـاء بحبة لـوز ولا يريـد شيئـاً أبـداً . ويـرى نفسه بناء على ذلك انه انسان كامل . كـلا ، فمن يستطيـع ان يملك ، عليـه أن يملك ، وان يكمل نفسـه بالانفـاق . إذ ليس من الكمـال في شيء ألّا تملك وألّا تنفق . بل ان تنـال وأن تنتـزع ممـا تنـال وتنفق ، انـه عـامـل من عـوامـل بنـاء الذات .

وهـذا ما يتبين بـوضـوح من القـرآن المجيـد ، حيث يخاطب الرسول الكريم قائلاً :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُزَكِّيهِمْ ﴾[1] .

في هذه الآية اشارة الى فلسفة البنـاء التي ذكرنـاها ، لا إلى الفلسفة الاجتماعية عن اشباع الجيـاع ، لأنها تقول خـذ

---

(١) سورة التوبة ـ آية : ١٠٤ .

من أموالهم صدقة لكي تطهر بها نفوسهم ، وتوصلهم الى الرشاد . مثل النبات الذي يزداد نمواً بتشذيبه ، وهذا في الواقع شأن كل الموجودات ، فكلما أزلت عنها آفاتها ، ازدادت نمواً ورشداً .

والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك :

من صفات المتقين الأخرى الايمان بالوحي . فقد يتفق أن يؤمن المرء بالوحي وألّا يؤمن به في الوقت نفسه . أي انه يقبل بالقرآن كتاباً من أمهات الكتب في العالم ، ويعتقد بأنه يحتوي على تعاليم منجية ، الا إنه لا يراه كتاب وحي أنزله الله .

ولعل هذا أكثر ما يصح على غير المسلمين الذين يعتقدون بالقرآن ويعدونه من بين كتب التربية والتعليم .

صاحب كتاب « في احضان السعادة » يذكر القرآن في الفصل الخاص بالمطالعة والكتب ، على أنه من كتب التربية العظيمة .

وشبل شميل (المسيحي) اللبناني العربي المادي المذهب ، له ابيات جميلة بشأن الرسول والقرآن ، يوجهها الى رشيد رضا صاحب مجلة المنار المصرية ، منها قوله :

إني وإن أك قد كفرت بدينه

هل أكفرن بمحكم الآيات

ولكن هذا القبول بالقرآن ليس إيماناً به ، إذ الإيمان به هو الاعتقاد بأنه وحي قد نزل من الله :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾[1] .

لا بد من الاشارة الى ان الايمان بالغيب قد شمل الوحي أيضاً ، وما ورد ذكره إلّا من باب التفصيل بعد الاجمال ، لأن مسألة الوحي ليست بمثل وضوح مسألة (الله) فوردت ثانية .

وبالآخرة هم يوقنون :

كلمة الآخرة مؤنث الآخر ، وهذه ضد الأول ومؤنثها الأولى . والسبب في ايراد الكلمة في القرآن بصيغة المؤنث هو أن هذه الصفة سبق أن وردت لوصف (الدار) أو (الحياة) ، فوردت مؤنثة ، لتبعيتها للموصوف .

وقد تأتي « الآخرة » في قبال « الدنيا » وقد تأتي في قبال « الأولى » . وكلمة « دنيا » يحتمل ان تكون من مادة

---

(١) سورة الشعراء ـ آية : ١٩٤ .

« دَنَوَ » بمعنى : قرب ، وقد تكون من مادة « دَنِيَ » بمعنى : الدون . فاذا كانت من الدنو فتعني هذه الحياة الأقرب ، وبذلك يكون معنى الآخرة هو الحياةالأبعد . وإذا كانت من (دَنِيَ) ، فتعني هذه الحياة التي هي في الأدنى ، فتكون الآخرة هي الحياة ذات المرتبة الأعلى .

في سورة « الضحى » تقع الآخرة في قبال الأولى ، حيث يقول الله تعالى ، في معرض تعزية الرسول على انقطاع الوحي :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ، وَللآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولىٰ ﴾ أي ان نهاية اعمالك خير من بدايتها ، أي انك كلما تقدمت اقتربت من الكمال الأسمى .

على كل حال ، « وبالآخرة هم يوقنون » تعني الذين يؤمنون بوجود حياة أخرى وراء هذه الحياة ، وهي حياة الثواب والعقاب .

والاعتقاد بالآخرة اعتقاد بالخلود ، إذ الفرق بين الحياتين هو أن هذه تنتهي الى نهاية ، والآخرة خالدة لا نهاية لها ، سواء أكان الانسان فيها شقي أم سعيداً . صحيح أن شقاء بعضهم وقتي ، الا انهم يخلّدون بعد ذلك في سعادة دائمة . وقد وردت كلمة الخلود مرات عديدة في القرآن .

إن الايمان بالخلود من سمات الأديان الالهية ،وهي من الأفكار القادرة على توجيه العالم ، ذلك لأن المذاهب المادية التي لا تؤمن بالخلود ، وترى الانسان كالفقاعة التي اذا انفجرت ذهبت هباء ، لا تعني سوى اللاشيئية وسوء الظن بالوجود .

وهذا هو الذي يقلقهم أشد القلق ، حتى ان بعض الماديين لجأ مؤخراً الى حيلة ينقذ بها مذهبه من اللاشيئية هذه .

يقولون : صحيح ان الفرد فانٍ إلا انه يستمر في مسيرته ضمنياً بتقدم المجتمع عن طريق التكامل . فإذا ما قُتلنا انا وأنت ، فاننا نكون خالدين ما دام الطريق خالداً .

من الواضح أن مقولات كهذه ليست سوى محاولات للدفاع عن فلسفتهم . ولكن الذي يؤسف له حقاً هو أن بعض الناس يسعون الى مطابقة مفاهيم القرآن مع هذه التخرصات ، فيقولون ، مثلاً ، إن « بالآخرة هم يوقنون » تعني انهم يؤمنون بنظام أكثر تكاملاً في هذه الحياة ، أي ان الفرد ليس خالداً ، بل النوع هو الخالد . لكننا نقول لهم إنه إذا قلنا بعدم خلود الفرد ، فلا بد أن نقول بعدم خلود النوع ايضاً ، إذ انه بموجب الحسابات التي أجراها علماء الفيزياء ، يكون قد مضى على الأرض عدة ملايين من

السنين ، وسوف يأتي يوم لا تكون فيه ارض ولا انسان ، فما معنى خلود النوع في هذه الحالة ؟ .

أولئك على هدىً من ربهم :

إن الله الذي يربي العالم وينميه ، يرشد كل الكائنات الى طريق الكمال ، فبعض يهديهم هداية تكوينية ، وبعض يهديهم هداية تشريعية ، أي عن طريق الانبياء والمرسلين ، ولكن هؤلاء هم وحدهم الذين يحق لهم بلوغ الكمال عن طريق الهداية التشريعية .

وأولئك هم المفلحون :

هؤلاء وحدهم هم الناجون ، وما من أحد ناج غيرهم . وإلى هنا ينتهي قسم الايمان في هذه السورة ، ويبدأ قسم الكفر .

إن الذين كَفَروا سواء عليهم أأنذرتَهم أم لَم تنذرهم لا يؤمنون :

علينا قبل البدء أن نشرح كلمتين ، ومن ثم نقوم ببحث مفهوميهما :

الكفر : وهي مأخوذة من مادة « كَفَرَ » ومعناها : ستر . ولكن القرآن يطلق على الذي ينكر الدين اسم « كافر » ، وذلك لأن الحقيقة جلية عندهم ، ولكنهم بدلاً من أن يصدقوا بها ، يخفونها .

الإنـذار : يخلط بعضهم بين معنى الانذار والتخويف . فالتخويف هو أن يكون امرؤ ، مثلاً ، سائراً وإذا بأحدهم يفجر متفجرة على مبعدة منه ، فيخاف . والإنـذار ليس هذا ، بل هو اعلان عن الخطر ، أي انك إذا علمت بوجود خطر سوف يتهدد أحداً ، فأخبرته أنت بما ينتظره ، تكون قد أنذرته . فالرسل هم المنذرون .

والآن فلننظرْ الى القرآن . انه يقول عن الكافرين انهم لا يجديهم نفعاً ، سواء ان انذرتهم أم لا . فما معنى هذا ؟ أفهل يجب ان يكون الناس مؤمنين حتى يأتيهم الرسول بدعوته ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فانه من تحصيل الحاصل ، كما يقال .

بل قد جاء الرسل ليجعلوا الكفار مؤمنين ، لا ليجعلوا المؤمنين مؤمنين .

يتذرع بعضهم بهذا ليزعم أن القرآن يوجه المجتمع والتاريخ توجيهاً مادياً ، أي أنه يقول إن الناس مجموعتان . مجموعة مستغلة (بالفتح) ومجموعة مستغلة (بالكسر) . فالمجموعة الأولى هي التي تملك الاستعداد لتقبل الدعوة ، فجاءهم رسول فعلاً ، وكانوا هم الذين يخاطبهم . أما المجموعة الأخرى فليست موضع دعوة الرسول .

هـذا كلام كله هـراء ، فالقـرآن للجميع ، والـرسـول يخاطب كل الناس :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾[1] .

والنـاس تعني عموم النـاس ، ولا صحـة للقـول بـأنّها تعني المحرومين منهم فقط .

عنـدما بعث الـرسول ، كـانت دعوتـه تشمـل الأسـود والأبيض ، المستعمـر والمستعمر ، الغني والفقـير ، وغيـرهم جميعاً ، فما معنى الآية اذن ؟ .

إذن كلمـة « كافـر » لا تطلق في القـرآن ـ إن لم نقـل في كـل الموارد ، ففي اكثـرها ـ عـلى كـل من لم يكن مسلماً، بـل إنه يقصد بـالكافـرين اولئك الـذين جاءتهم الـرسل ودعتهم الى الحقيقـة التي اكتشفت لهم ، ولكنهم واجهـوا الـرسـل وأنكروا . أي ان الناس ، ما لم تأتهم الـرسل ، لا يكـونون مؤمنين ، ولا كافرين ، ولا منافقـين ، بل هم النـاس ، كل الناس .

ولكن الناس ، بعد ان تـأتيهم الرسـل ، ينقسمون الى ثـلاثة أقسـام : فقسم يؤمن ، وقسم ينكر ، وقسم يتـظاهـر بـالقبـول .

---

(١) سورة الأعراف ـ آية : ١٥٨ .

فالمقصود بالكفار في الآية الشريفة ليس الذين لم يسلموا من قبل ، بل الذين وصلتهم دعوة الرسول وعرفوا الحقيقة ، ولكنهم خالفوا عقولهم وحكمتهم وأنكروا الدعوة :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلواً ﴾[1] .

إن من طبيعة الانسان المنفتحة نفسه على تقبل الحقيقة ، ان يتقبلها إذا ما تكشفت له . ولكن الذي يورد الانسان موارد الهلكة ، هو أن يقف موقفاً مناوئاً للحقيقة .

هنالك اناس كثيرون هكذا هم ؛ يتخذون مواضعهم مع المناوئين للحقيقة . وقد رسم القرآن لهؤلاء لوحة رائعة ، حيث يقول :

﴿ وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِر عَلَيْنَا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ﴾[2] .

إنهم يفضلون أن ترجمهم السماء بالحجارة على أن

---

(١) سورة النمل ـ آية : ١٤ .
(٢) سورة الأنفال ـ آية : ٣٢ .

يعترفوا بـالحق . أي بدلاً أن يقـولوا ربنـا إن كان هـذا حقاً ومن عنـدك ، فـوفقنـا لقبـولـه ، يقـولـون : إن كـان حقـاً فامحقنا .

وهـذا هـو معنى منـاوأة الحقيقـة . فـأنــاس من هـذا القبيـل ، لا تنفع فيهم النـذر ، ولا تفيدهم شيئاً . فهؤلاء مقصرون ، لا قاصرون ، كما يصطلح عليهم الفقهاء .

بنــاء عــلى ذلــك ، إن من لم يكن مسلماً ، لا يستلزم بـالضرورة أن يكـون كافـراً ، أبداً . إنمـا الأمر كـما قلنا . والكفـر في مصطلح القـرآن يعني الأنكار ، وسـتر الحقيقة . والكفــار هم الـذين يتخنــدقـون في جبهــة ضـد الأنبيــاء والمرسلين ، ويناوئونهم من مواضعهم السلبية هذه .

قد يتبادر الى الذهن سؤال عن الذين لم يعـرض عليهم الاسلام ولا أي دين آخر ، ولم يظهروا ، بـالطبـع ، مخالفـة ولا موافقة ، فملذا يكون هؤلاء ؟ .

الجـواب هو إن هؤلاء ليسـوا من المؤمنين ، ولا ريب ، فلا يشملهم أحكام المؤمنـين الخاصـة ، ولكنهم ، في الوقت نفسـه ، لا تشملهم كـذلك آيـات مثـل هـذه الآيــة . في الحقيقـة ، إن دعوة الـرسل ، هي التي تـوجد تلك الأقسـام الثلاثة من الناس : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين .

الكفر المقدس :

لا بـد ان نشير هنـا الى انه مـا دام أصَـل كلمـة الكفـر يعني ، الستر والإنكار والـوقوف مـوقف المناوىء ، فـانها قد تـرتدي احيـاناً لبـوساً مقـدساً في القـرآن ، أي إنها عنـدئـذٍ تعني الـوقوف ضـد البـاطـل والكفر بـه . وأوضح مـا يكون هذا في آية الكرسي :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّيْنِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنَ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِالله ﴾[1] .

أي إن على كل مؤمن أن يكـون كافـراً ايضاً ، فـما دام في موضع الحق ، لا بد له ان يكـون من موضعـه هذا ضـد الباطل ، فينكره . وهذا هو الكفر المقدس .

يعتقـد الشيعة إن فـروع الدين عشـرة ، فيكون التـولي هو الفرع التاسع ، والتبرؤ هو الفـرع العاشر . أي إن عـلى كـل فرد أن يؤمن بـولاية عـلي بن ابي طـالب . إلا أن هـذا وحـده لا يكفي ، بل يجب ان يكـون لهذا جـانبه السلبي في الوقت نفسه ، أي عليه أن يتبرأ أيضـاً من كل مـا هو ضـد عـلي وخط سيره . فههنـا ايضاً لا يكفي الايمـان بالله ، بـل يجب ان يصاحب ذلك انكار الطاغوت والكفر به .

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٥٦ .

﴿ خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ أبصارِهم غَشَاوَةٌ ﴾ :

عند الانتهاء من كتابة رسالة ما ، فانك تختمها بتوقيعك ، أو بختمك ، وبذلك لا تستطيع ان تضيف اليها شيئاً آخر . يقول القرآن إن قلب الانسان مثل الرسالة التي تكتب فيها السطور بالتدريج ، وقد تكون جيدة أو رديئة ، الى ان تصل حيث تنتهي ، فتختمها ، ولا تعود تستطيع اضافة شيء عليها .

فدعوة الرسول لأمثال هؤلاء لا تنفعهم شيئاً ، ولا تؤثر فيهم ، فيقول الله لرسوله : كف عن دعوتهم . وليس هذا لأن الدعوة منذ البداية لم تؤثر فيهم ، بل لأنهم قد تقولبوا ، فقد سمعوا الدعوة وألقيت عليهم الحجة ، ولكنهم رفضوا وأنكروا ، فظلت قلوبهم على هذه الحال .

يرى القرآن في الانسان كائناً دائم التحول والتبدل ، وما سمي قلبه بالقلب إلّا لتقلبه . وبالطبع ليس المقصود هو قلب الانسان الطبيعي ، بل هو تلك الروح ، أو النفس ، التي لها في كل لحظة حالة جديدة . يصف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) القلب ، فيقول :

« مَثَلُ القَلبِ كَمَثَلِ رِيْشَةٍ في الفَلاةِ تَعَلَّقَتْ في

أصلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُها الريحُ ظهراً لبطنٍ »[1] .

لقد ضمّن مثنوي هذا الحديث في بيتين ، وبالمعنى نفسه :

كُفْت پيْغَمْبَر كِهْ دِلْ هَمْجُونْ پَرى اسْتْ
دَرْ بِيابانى اَسِيرِ صَرْصَرِى اسْتْ
بادْ پَرْ راهَرْ طَرَفْ رانَدْ كِزافْ
كَرْ جَپْ وكَرْ راسْتْ باصَدْ اِخْتِلافْ

لا يكون الانسان في لحظتين بحالة واحدة ، فهو تحت تأثير اعماله قبل أي شيء آخر ، فالعمل الساطع يضفي عليه نوراً ، والعمل المظلم الكالح يسلب الانسان نوره ويبقيه في ظلام . إن العمل الطيب يهب الانسان لطفاً يجعله سريع التقبل للنصيحة وللحق وللحقيقة . أما الأعمال التي تخالف فطرة الانسان ، اعمال الكافرين ، فانها تورث القساوة في القلب ، وقد تحيل قلبه الى قطعة سواد ، وهي التي يصفها القرآن بأنها قد ختم عليها ، وانتهى أمرها ، إذ أن أصحابها يرون بأم أعينهم ، ثم يلوون كشحاً ، كأن ستاراً قد ضرب على أعينهم ، وعلى أبصارهم غشاوة .

---

(١) نهج الفصاحة والجامع الصغير ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

هـذه آثار الكفـر ، لا أسبابهـا . وبهذا البيـان تحل كـل المسائل .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِـالْيَوْمِ الآخِـرِ وَمَا هُمْ بِمُؤمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَمَا يُخَـادِعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَـا يَشْعُـرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَـانُوا يَكْـذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ قَـالُـوا إِنَّـمَـا نَحْـنُ مُـصْلِحُـونَ (١١) أَلاَ إِنَّـهُمْ هُـمُ الْمُـفْسِـدُونَ وَلَـكِـنْ لاَ يَشْعُـرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُـوا كَمَا آمَنَ النَّـاسُ قَالُـوا أَنُؤْمِنُ كَمَـا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَـاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُـونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّـذِينَ آمَنُوا قَـالُوا آمَنَّـا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُـوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُـونَ (١٤) اللهُ يَسْتَهْـزِيءُ بِهِمْ وَيَمُـدُّهُمْ فِي طُغْيَـانِهِمْ يَعْمَهُـونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) .

ومن النـاس من يقول آمنـا بالله وبـاليوم الآخـر وما هم بمؤمنين :

لما كان النفاق أخطر من الكفـر ، فان القـرآن المجيد لم يـذكـر هنـا في الكفـر سـوى آيتـين ، ولكنـه أورد آيـات عـدةبشأن النفـاق . ولعـل هنـاك ١٣ سـورة ورد فيهـا ذكـر

النفـاق والمنافقـين في صـور شتّى، واختص القـرآن المنـافقـين بسـورة كـاملة هي السـورة ذات التسلسـل ٦٣ ، واسمهـا « المنافقون » .

ما النفاق ؟ :

النفـاق يعني ان يكون المـرء ذا وجهين ، أي أن يكـون في البـاطن شيئـاً ، وفي الـظاهـر شيئـاً آخـر . إن هـذه الخصلة ، وإن تكن مرفوضـة ومذمـومة ، إلا أنها في الـوقت نفسه ناشئـة عن كمال الانسـان . أي ، لما كـان الانسان ، من بـين الحيوانـات ، قد بلغ مـرحلة أكـثر تكـامـلاً ، فقـد أصبـح أقدر عـلى التصنع والتـظاهر . ومـا الحيوانـات ، أو اكثرها ، بقادرة على النفـاق ، باستثنـاء بعضها الـذي وصل من حيث الـذكـاء الى مـدى أبعـد ، مكنهـا من أداء بعض التصنـع . ولكن الحيوانـات الأخرى ، كـالطيـور ، أو ذوات الأربـع ، كـالحصـان ، والحمـار ، ليس في مقـدورهـا أن تتصنع . إنما القط قد يكون لـه بعض هذه المقـدرة ، حيث يستفيـد ، عند محـاولة اصـطياد فـأر أو عصفـور ، من هـذه المقـدرة ، فيخفي نفسـه ويصـطاد فـريستـه ، وهكـذا الثعلب ، ولذلك يـوصف بالمكـر ، وكذلـك يقال هـذا عن الذئاب التي تصل الى فرائسها بالحيلة .

ولكن ما من حيوان بقادر على التصنع مثل الانسان ، الذي يسبغ على تصنعه الواناً من التعابير الأدبية ، كالمخاتلة ، والمخادعة ، والمداهنة ، وكلها ضروب من النفاق ، أو يقال ان فلاناً يشارك الذئب طعامه ، ويشارك الراعي بكاءه ! .

وما قولي إن النفاق ناشيء عن تكامل الانسان ، إلا لأننا نرى انه كلما كان الانسان أقرب الى البداوة ، كان أقل نفاقاً . والطفل في صغره لا ينافق . ولذلك نراه اذا كان في مجلس ، وقدم اليه طعام ، يتناوله اذا كان راغباً فيه ، بل وقد يستعجله بالبكاء ، اذا أبطأوا في تقديمه له . ولكن الكبير في مجلس كهذا ، على الرغم من رغبته الشديدة في تناول الطعام ، فانه ، عندما يدعونه اليه ، يقول : لا أشتهي . هذه كذبة لا يقولها الطفل .

كلما تقدم الانسان في مضمار التمدن ، ازدادت قدرته على النفاق . لم يكن الانسان قبل الف سنة يعرف من النفاق عشر معشار ما يعرفه اليوم .

أفلا تلاحظون ان الألفاظ والتعابير السائدة اليوم اكثرها نفاقية ؟ خذ ، مثلاً كلمة (استعمار) فهي لغوياً ذات معنى جيد جداً ، وقد استعملها القرآن بمعناها الأصلي :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾[1] .

فاستعمار من باب استفعال ، ومن مادة عمر ، عمراناً . أي انه طلب منكم عمران الأرض . لقد خلقكم على سطح الأرض ، وكلفكم بعمرانها . فالاستعمار يعني طلب العمران .

وحيثما كانت تذهب الدول الاستعمارية ، لم تكن تقول لهم : اننا جئنا لنهب ثرواتكم ، وسلبكم خيراتكم . بل كانوا يقولون : جئنا لنعمر دياركم . وكانوا فعلاً يتظاهرون بفعل ذلك ، فكانوا يمهدون شارعاً أو شارعين ، ولكنهم كانوا يسرقون من الشعوب آلاف الأضعاف مما كانوا ينفقون ، وبهذا يستعبدون الشعوب . وعلى ذلك ، فإن كلمة استعمار كلمة منافقة ، أي انها على الرغم من معناها السليم . فإنها لا تستعمل بمعناها الحقيقي .

ان الذين كانوا يصطلحون على تسميتهم بالمبشرين المسيحيين كانوا في الحقيقة طلائع الاستعمار . أي انهم

---

(١) سورة هود ـ آية : ٦١ .

كانوا يمهدون الطريق لدخول الاستعمار الى البلاد لاستعمارها . فكانوا يدخلون باسم التبشير بالدين المسيحي ،فيشغلون الناس بأوصاف عيسى المسيح وأمه مريم العذراء ، وبعد مدة كان الناس يحسون أنهم أخذوا يفقدون ثرواتهم المادية تحت ستار الثروة الروحية .

يقول احد الأفارقة : يوم أن وطئت اقدام الأوربيين بلادنا ، كنا نملك الأرض ، وكانوا يملكون الأنجيل . ولكن بعد مضي ٤٠ ـ ٥٠ سنة رأينا انجيلهم في ايدينا ، وأرضنا في أيديهم . ذلك هو النفاق .

والحقيقة ، إن كثرة تناول القرآن لموضوع المنافقين ليس سوى تحذير لنا نحن المسلمين ، لكي نكون على حذر دائم من المنافقين ، ولئلا نقع فريسة مخاتلاتهم . فالمنافقون ليسوا محصورين بصدر الاسلام ، ففي كل زمان منافقون ، يتسربون في صفوف المسلمين ، متظاهرين بالاسلام ، ثم يطعنونه بالخنجر في ظهره .

لعلكم قد سمعتم باصطلاح « الرتل الخامس » الذي ظهر خلال الحرب العالمية الأولى . اذ كان لأحدى الدول جيش يتألف من اربعة (ارتال) تحارب بالأسلحة المألوفة ، ولكنها كانت قد سربت قبل ذلك مجموعة من الجنود الى داخل جيش العدو ، يستغفلونه . يقال ان تأثير هذه

المجموعة كان أشد من تأثير الجيش العلني ، فأطلقوا عليه اسم الرتل الخامس ، إذ يتظاهر أفراده بالمحبة لأفراد العدو ، ولكنهم في الباطن يعملون لمصلحتهم .

فالقرآن يقول إن الرتل الخامس يتهدد المسلمين ، وهم أولئك الذين يقولون : ﴿ **آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ يقولون انهم يؤمنون بيوم القيامة ولكنهم يكذبون .

يخادِعُون الله وَالذين آمنوا :

لم يقل « يخدعون الله » إذ ما من احد يستطيع أن يخدع الله ، ولذلك قال « يخادعون الله » . المخادعة ، من باب مفاعلة ، ومن احدى معانيها : انهم يسعون الى خدع الله ويحاولون ذلك ويريدونه .

وَما يَخْدَعون إلاَّ أنفُسهم وما يَشْعرون :

ليس من الممكن خدع الحقيقة والواقع ، فمن يتصدّى لخدع الحقائق ، فانه في الواقع يخدع نفسه . قد يستطيع المرء أن يخدع الطبيب ، ولكنه لن يخدع الطب . فهو يستطيع ان يكذب على الطبيب فيخدعه ، فاذا سأله ان كان قد استعمل الدواء السابق ، يقول نعم ، مع انه لم يستعمله ، ثم لا يتبع ارشاداته ، ويقول انه فعل . فانه لا شك قد خدع الطبيب ، ولكنه لم يخدع الطب ، بل لقد

خدع نفسه ، وذلك لأن الطبيب يصف الدواء بحسب وصف المريض المرض ، وهكذا يكون المريض هو المنافق فيزداد مرضاً ، وينتهي أمره .

والمسلمون أيضاً يمكن أن ينخدعوا ، اذ يتم الدخول اليهم عن طريق المكر والحيلة ، ولكن الخديعة لن تنطلي على الله ، رب الحق والحقيقة ، والمخادع سيكون هو المخدوع .

قد يكون في جملة « يخادعون الله » احتمال آخر ، وهو ان المنافقين ما كانوا يريدون ان يخدعوا الله ، إذ انهم لو لم يعتقدوا بالله لما فكروا في خدعه ، واذا كانوا معتقدين به ، فان المعتقد بالله لا يمكن ان يعتقد بامكان خدع الله . وعليه ، فان هذه الجملة لا بد ان تكون من جملة تلك الموارد التي ينسب الله الى نفسه أعمال أصحاب الحق ، وأمثال هذا في القرآن كثير . ففي سورة الفتح (الآية ١٠) يقول : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ** ﴾ .

لذلك فان الآية تعني : إن الذين يتصدون لخدع أهل الايمان ، يقومون في الواقع بخدع انفسهم إذ إن الذين يسيرون على هدى الحق ، يكونون سائرين على الصراط المستقيم الذي توصل نهايته الى الله . انهم قد أسلموا انفسهم للحقيقة ، وان روح تسليمهم هذا هو الذي

ينجيهم ، حتى وإن بدا عليهم في الظاهر انهم في هذه الدنيا ليسوا من الشطار الأذكياء . أما الذين يدعون الشطارة والذكاء ، ويريدون ان يتقدموا عن طريق المكر والخديعة ، يحسبون أنهم قادرون على ذلك حتى في هذا المجال ، فيسعون الى خيدع أصحاب الايمان لبلوغ أهدافهم .

ولكن بالنظر لأن الحق والحقيقة لا يمكن أن تنطلي عليهما خدعة ، حتى وإن أمكن خدع اصحاب الحق ، فان خطط المخادعين سوف تنقلب عليهم انفسهم .

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عذابٌ أَلِيم بما كانوا يكذبون :

يبين الله في هذه الآية اصل الحالة ومنشأها. أصل الحالة هو مرض القلب . انهم مصابون بأمراض روحية ونفسية .

ولقد وردت في القرآن آيات عديدة تشير الى امراض القلب :

مرض التكبر والاستبداد ، مرض التعصب للخرافات القديمة ، مرض اتباع الآباء والأجداد ، مرض اتباع الكبر والكبّار . هذه بعض نماذج من الأمراض الروحية والنفسية التي تحول بين الانسان والرضوخ للحق ، بمثل ما

ان الفسق ، والفجور ، والتلوي ، تطمس استعداد الانسان لتقبل الحق .

هؤلاء المرضى يزيد الله مرضهم ، وذلك لأن طبيعة الروح تشبه طبيعة الجسم . فاذ مرض انسان يرجع الى الطبيب للعلاج ، ولكنه إذا لم يمتثل لأوامر الطبيب ، بل نافق معه ، وكذب عليه فلا شك في انه سيزداد مرضاً .

لقد صنع الله تعالى هذا العالم بحيث تنمو فيه كل زراعة ، إنما الانسان هو الذي عليه ان يختار نوع البذور التي يبذرها ، فان شعيراً زرعت شعيراً تحصد وإن قمحاً زرعت حصدت قمحاً وإن حنضلاً فحنضل حصيدك ، وإن تمراً فتمر ، وكما يقول القرآن المجيد :

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾[1] .

فالله يعين الجميع، والعالم قد بني بحيث يسير كل نحو تكامله ، الصالح والطالح[2] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ .

---

(١) سورة الاسراء ـ آية : ٢٠ .

(٢) مع اختلاف واحد ، وهو ما سوف نبحثه في مكانه ، عند البحث في كلمة « رب » بتفصيل أكثر .

سبق للقرآن أن ذكر بأن المنافقين يخدعون أنفسهم .
وهذه آية أخرى يتضح فيها خداع النفس عند المنافقين .

يقال إن الكذاب ، لكثرة كذبه وتكراره ، يؤمن بالتدريج بصدق أقواله ، أو قد ينسى أنه هو الذي أشاع تلك الأقوال والشائعات الكاذبة .

ومن ذلك قولهم : إن أبلهاً تضايق مما يصيبه من أذى الأطفال ، فأراد يوماً أن يبعدهم عنه ، فأخبرهم ان في الطرف الآخر من المدينة يوزعون بعض الخيرات من الطعام ، فصدقه الصبية ، وانفضوا عنه ، وهرعوا الى حيث قال . وما أن رآهم يبتعدون عنه مسرعين ، حتى راح يسرع وراءهم ، قائلاً في نفسه : لعل الأمر صحيح !.

يقول القرآن هؤلاء هم الرتل الخامس الذي يتظاهر بالولاء والمحبة للمسلمين ، ولكنه في الباطن يضمر الشر ، والفساد ، والأخلال بالمجتمع الاسلامي ، وأهداف الاسلام المقدسة . وإذا طلب منهم أصحابهم أن يكفوا عن الفساد ، يردون عليهم : إننا مصلحون ، ولسنا مفسدين .

أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ :

لاحظوا كيف يستعمل القرآن الحصر . فمرة نقول : زيد عالم . ومرة أخرى نقول : العالم زيد ، . وهذا يعني

ان زيداً هو وحده العالم في العالم ، وان غيره لا يعد من العلماء . فمعنى الآية هو أن هؤلاء هم وحدهم المفسدون ، وأن أي مفسد آخر لا يعد مفسداً بازائهم . أي ان الفساد قد تجسد في هؤلاء ، ولكنهم لا يحسون ذلك . ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ** ﴾ .

إذا طلب منهم سراً أن يتخلوا عن نفاقهم، وأن يؤمنوا مثل باقي الناس ، ردوا قائلين : إن الايمان والتدين يليق بعديمي الاحسان والحمق . أما نحن ، متنوري المجتمع ، كيف يمكن ان نؤمن مثل هؤلاء السفهاء ؟ .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُون :

إن الأداة (ألا) في هذه الآية ـ وكما في ﴿ **ألا انهم هم المفسدون** ﴾ ـ تنبيه للمسلمين ان احذروا هؤلاء ، فانهم سفهاء ، وانهم في درجة من الظلام دون أن يدركوا ما هم فيه .

هنالك نوعان من الجهل : الجهل البسيط والجهل المركب .

الجهل البسيط : هو ألّا يعلم المرء ، ويعلم انه لا يعلم ، وهذا جهل تسهل ازالته ، وذلك لأن المرء اذا لم يكن يعرف شيئاً ، وعرف انه لا يعرفه ، سيسعى حتماً

لمعرفته، أو أنـه، في الأقل، يستمـع الى ما يقـوله الآخـرون ويتقبله ان وجـده حقاً . فهـذا ، على كـل حال ، جهـل لا خطر منه .

الجهل المركب : هـو ألاّ يعلم المرء ، وألاّ يعلم أنـه لا يعلم . وهذا جهلٌ لا عـلاج له ، لأن غـرور صاحبـه يحول بينه وبين ازالـة الجهل ، وهـذا ديدن معـظم الذين يـدعون التنور والفهم ، وهي دعوى اسـاسها عـدم التنور والفهم . يشـير ابو عـلي ابن سينا في كتـاب (الاشـارات) الى هـذا ، على ما أتذكر ، فيقول : « إياك وفـطانة بتـراء » اي كن على حـذر من الذكـاء النـاقص . والقصـد هـو إن من الخـير ان يكـون الانسان إمّـا بسيطاً سـاذجـاً ، وإمـا عـاقـلاً مكتمـل النضج والفهم . فالسـاذج البسيط يعرف عـادة هذه الصفـة في نفسه . أما ذوو الـذكاء النـاقص والذين يكـونون أذكيـاء أحيـاناً ، فـانهم يحسبون أنفسهم في قمـة الذكـاء ، وأن كل اعماهم تتصف بالحكمـة ، انما هؤلاء هم أكـثر الناس حمقـاً وأشدهم عناءً .

للغـزالي مأثـورة يقول فيهـا : إن الوجـود الناقص لأي شيء خـير من عـدمـه ، إلا العلم والمعـرفـة . أي اننـا لـو ملكنـا أي مقدار من الصحـة ، أو من الثـروة والجـاه لكـان خيـراً من ألاّ نملك منهـا شيئـاً . وليس كـذلـك الـعلم

والمعرفة . فالانسان الأمي خير من انسان نصف أمي ، إذ إن هذا يظن أنه مثقف كامل المعرفة ، وعندئذ لا يسعى للأستزادة من العلم .

ثمة بيت شعر للشاعر « سنائي » على ما أظن يقول فيه :

« كل امريء يعاني من شيء
وعنائي أنا من أنصاف المجانين »[1]

يريد ان يقول ان العقل كالعلم ، فاما ان يكون المرء عاقلاً تماماً ، أو عالماً تماماً ، فأنصاف العقلاء وأنصاف العلماء أشد ضرراً من فاقدي العقل والعلم .

وكل مخادع عاش في المجتمع يكون عادة من هؤلاء (الأنصاف) من الناس ، أي من أصحاب أنصاف الذكاء ، لا كل الذكاء ، فالذكي الكامل ، إن لم يعتقد بشيء ، فانه يدرك بذكائه ان السعادة والنجاح في الصدق . أما أنصاف الأذكياء ، والذين صادفتهم في حياتي كثيراً ، فيرون ان مكانتهم تقتضي ألّا يعاملوا أحداً بصدق ، وهؤلاء لا صديق لهم اطلاقاً ، إذ انهم لا يثق

---

(١) رَنجشِ هَركَسي زيك جيز است
رَنْجشِ مَنْ زِنيْمُ دِيوانَه اسْتْ

بهم أحد ، لأن الناس تعرف أنهم في كلامهم خبثاء ، يتشاطرون .

والقرآن يرى ان هؤلاء المنافقين هم من ذوي الجهل المركب ، ويقول انهم لا يعلمون ، ولا يعرفون انهم لا يعلمون ، لا يشعرون ، ولكنهم يحسبون انهم يشعرون .

﴿ وَإذَا لَقَوْا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنّا وَإذَا خَلَوْا الى شياطِينِهِمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُون ﴾ .

وكما قال القرآن من قبل : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ يقول أيضاً : ﴿ والله يستهزيء بهم ﴾ أي انهم يظنون انهم قادرون على السخرية من الحق وعلى خداعه . ليس الأمر كذلك البتة ، بل الحقيقة هي التي تسخر منهم ، فهم في نهاية الأمر يستهزأ، بهم وحدهم .

وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُون :

إنّهم طغاة ، والله يزيد من انغمارهم في الطغيان حتى تصيبهم الحيرة وينتابهم الارتباك التام ، فلا يدركون ما يفعلون .

الى هنا يكون القرآن قد اورد عدداً من صفات المنافقين :

الأولى : هي ان المنافقين يتظاهرون ، فالتظاهر من

سمات المنافقين ، بحيث أنهم يتظاهرون بالايمان أكثر مما يظهره المؤمن .

الثانية : هي انهم مخادعون ، مداهنون . وهذه من خاصة صفاتهم .

الثالثة : هي أنهم مصابون بمرض نفساني ، فيحسبون انهم بأعمالهم تلك يشفون مما فيهم من عقد نفسية ، ولكنهم ، على العكس من ذلك ، يشتد عليهم المرض ، وتزداد عقدهم .

الرابعة : أن الأمر قد اختلط عليهم بحيث أنهم يظنون أن في أعمالهم صلاح المجتمع ، أي انهم يلبسون أعمالهم الفاسدة لبوس الصلاح ، وهم يظنون أنها كذلك .

الخامسة : هي أنهم هم الحُمُقُ والسفهاء ويظنون ان غيرهم هم السفهاء .

السادسة : هي انهم ذوو وجهين ، ومن ذلك انهم يقولون شيئاً في هذا المجلس ، ويقولون ضده في مجلس آخر .

تلك هي صفات المنافقين التي وردت في القرآن .

هنا لا بد أن نشير الى عدد من النقاط :

١ ـ كلمة (الناس) : من الناس من يقول آمنا . . . فهذه الكلمة عامة ، وتشمل طبقات شتى ، كالغني ،

والفقير ، والعالم ، والجاهل ، والأبيض ، والأسود ، والظالم ، والمظلوم . . . الخ .

فاذا لم نكن نقصد أياً من هذه الطبقات ، والأنواع ، ولا تهمنا أشكالها ولا الوانها ، عندئذٍ نجيء بهذه الكلمة لتشمل الجميع ، أي الانسان بصرف النظر عن اللون ، والشكل ، والطبقة ، والدين ، والعقيدة وباصطلاح الفلاسفة : الانسان غير المشروط .

لقد أيد المفسرون القدامى هذا المعنى لكلمة (الناس) وهو ما نعتقد بصحته ، ولكن ثمة آخرون وقعوا في السهو ، فقالوا إن كلمة (الناس) تطلق على فاقدي كل شيء ، أي الطبقة الكادحة ، الطبقة المحرومة . في هذه الحالة تشمل الكلمة طبقة معينة ، ولا تشمل الجميع ."

إلا إن الأمر ليس هكذا ، وإنما معنى كلمة (الناس) هو ما ذكرنا ، وما هو مقصود به في القرآن . هم الناس ، دون اعتبار لوضعهم الخاص ، لدينهم ، لفقرهم ، لغناهم ، للونهم ، لعلمهم ، لجهلهم . وعندما يقول القرآن : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾[1] فانه لا يوجه

---

(١) سورة البقرة آية ٢١ .

الخطاب الى الطبقة المحرومة فقط ، وانما هو يخاطب الجميع . وكذلك قوله :

﴿ لله عَلَىٰ النّاسِ حجُّ البَيْتِ مَنِ استَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً . . . ﴾[1] .

فالحج قد فرض على الناس كلهم ، لا على بعض دون بعض ، انما اشترط لذلك الاستطاعة .

كما ان كلمة (الناس) اطلقت في مكان آخر من القرآن على الكفار :

﴿ إنّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾[2] .

وهي تشير الى الحملة التي كان الكفار ينوون شنها على المدينة ، حيث أشيع ان (الناس) قد اجتمعوا لمهاجمة المسلمين ، وذلك لكي يلقوا الرعب في قلوب المسلمين . كما ان (الناس) قد أطلقت في الآية التي نبحث فيها على المنافقين : ﴿ومِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ . . . ﴾ والذين قالوا إن (الناس) تعني الطبقة المحرومة ، اضطروا الى القول بأن المنافقين جزء من الطبقة المحرومة ، وليس هذا صحيحاً ، فالمنافق يمكن أن يكون من أية طبقة . والجدير

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٧.

(٢) سورة آل عمران ـ آية : ١٧٣ .

بالذكر ان منافقي صدر الاسلام ، الذين عناهم القرآن ، كانوا من الأشراف في غالبيتهم . إن رئيس المنافقين على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان (عبد الله ابن أُبي) وكان من أكبر شخصيات المدينة قبل هجرة الرسول اليها ، حتى ان أهل المدينة كانوا قد اتفقوا على اختياره ملكاً عليهم ، لكي يقضوا على الخلافات القديمة بين الأوس والخزرج ، فكانوا يعدون العدة لصنع تاج الملوكية له .

وفي تلك الفترة التي كان يرى فيها التاج في متناول يده ، ظهر الاسلام في مكة ، واتصل عدد من أهل المدينة بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واسلموا ، وطلبوا منه ان يرسل الى المدينة من يعلمهم أمور دينهم ، فأرسل الرسول مصعب بن عمير ، وأسلم عدد كبير من أهل المدينة ، وهكذا مهد الطريق لهجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إليها وكان حتماً ان تنهار كل استعدادات عبد الله بن أبي ، وتتلاشى آماله ، فكان ان استشاط قلبه حقداً على الاسلام .

فعندما اسلمت الكثرة من أهالي المدينة ، لم يجد هذا الرجل بدأً من التظاهر بالاسلام ، ولكنه في باطنه لم يسلم أبداً .

على كل حال ، فان كلمة (الناس) هنا ليست بمعنى المحرومين ، والدليل على ذلك هو عبد الله بن أبي ، هذا الذي لم يكن من محرومي المدينة ، بل كان من أشرف أشرافها .

٢ ـ النقطة الأخرى هي إنكم لا ريب قد لاحظتم ان القرآن المجيد قد أورد ذكر الكفار مرتين ، وذكر المؤمنين ثلاث مرات أو أكثر ، ولكنه عندما يصل الى المنافقين ، فانه يذكرهم في حوالي ١٣ آية . وقد بدأ عدداً منها بـ(ألا) التحذيرية . فلماذا يعني القرآن كل هذه العناية بتعريف المنافقين ؟ .

هذه المسألة لم يغفل عنها المفسرون ، اذ يقولون : على الرغم من ان المنافق يدخل ضمن الكفار ، الا انه ، كما ورد في القرآن ، أخطر على الاسلام من الكافر كثيراً . فالكافر ـ حسب تعريف القرآن ـ هو الذي لا يقبل بالله وبالرسول ، وهو صادق في إنكاره ، أي انه يعلن رأيه هذا ، فيعرفه الناس . أما الذي يخفي ما في قلبه ، فيقول بلسان خلاف ما في قلبه ، فهذا خطره كبير ، لأنه يخدع المسلمين ، بينما الكافر لا يخدع الناس ، لذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾[1] .

لقد رأينا في التاريخ أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يحارب وينتصر ، ولكن (عليه السلام) لا يستطيع ان ينتصر مثل رسول الله ، والسبب هو ان الرسول كان يحارب الكفار ، وعلي كان يحارب المنافقين ! أي إن الرسول كان يحارب أناساً كانوا صادقين في سلوكهم وصراحتهم ، وعندما كان يقول لهم : قولوا لا إله إلا الله ، كانوا يرفضون ذلك . كان أبو سفيان ينادي : « أعل هبل ، أعل هبل » ، وكان الرسول ينادي : قولوا الله أعلى وأجل . وهكذا كان الله يقف وجهاً لوجه مع هبل ، فكانت النتيجة معلومة ، انتصار الله وهزيمة هبل .

أما علي (عليه السلام) فقد كان يواجه أمثال أبي سفيان ، ولكن شعاراتهم كانت شعارات اسلامية . اذ لو كان معاوية ـ وهو الذي كان يسعى للوصل الى مرامي ابيه ـ قد رفع ، مثل أبيه ، شعار أعل هبل لكانت هزيمته محققة . ولكنه الآن يرتدي لبوس الاسلام ، ويذرف دموع التماسيح على الاسلام ويقول :

---

(١) سورة النساء ـ آية : ١٤٥ .

﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّه سُلطاناً فَلا يُسْرِفْ في القَتْلِ إنَّهُ كانَ مَنْصوراً ﴾ .

كان ينادي ان خليفة الرسول عثمان ، قد استشهد ، أيّها الناس ، ايجوز ان يذهب دم خليفة الرسول هدراً ؟ وهكذا راح يؤلب الناس للانتقام من قتلة عثمان ، ثم أعلن إن علياً كان على رأس اولئك القتلة . مع ان قاتل عثمان الحقيقي هو معاوية نفسه ، وهذا كلام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة : « وهم يطلبون دماً هم سفكوه » . ثم يخاطب معاوية قائلاً : « . . . فانك إنّما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له » .

ذلك انه كان قد بعث بعيونه الى المدينة ليحصوا على عثمان حركاته ، فما أن يقتل حتى يرسلوا بقميصه الملوث دماً الى الشام . وقد نفذت العيون أمره ، وبقي القميص زماناً معلقاً في مسجد الشام ، حيث كان معاوية يتباكى عنده ويلطم صدره تحت أنظار الناس ، فيثير السذج منهم ، ويحركهم باسم الله ولله ، فيريقون دماءهم ويقتلون .

ثم في موقعة صفين ، يوم أدرك أن الهزيمة وشيكة ، لم يتورع عن اللجوء إلى الخديعة والنفاق ، فأمر بالمصاحف

رفعت على الرماح ، زاعماً انه يقبل بحكم القرآن ، فيما كان علي (عليه السلام) ، وهو العالم بالخدعة المخفية في ذلك ، ينادي أن اضربوا وتقدموا . غير أن الجهلة من الأخيار الذين لم يدركوا خط المنافقين ، صرخوا بأنهم لا يحاربون القرآن ، وأن استمرارهم على الحرب محاربة للقرآن . وهكذا نجا الأمويون .

ذلكم هو خطر النفاق الذي يحذر منه القرآن بـ(ألا) التحذيرية . لم يواجه الاسلام كفراً الا وانتصر ، ولم يواجه النفاق الا وهزم ، لأن النفاق يستغل قوة الاسلام نفسها ويستخدمها ضده ، أي انه يرتدي لباس الاسلام ، ويقاتله به .

٣ ـ ثالثة الأمور التي أود الاشارة اليها هي ان خطر النفاق كان دائماً يهدد الاسلام ، ولكنه لم يكن يظهر بالشكل ذاته في كل مرة ، بل كان في كل عصر وفي كل زمان يظهر بشكل جديد .

قبل ايام كنت اطالع كتاباً يبدو انه حديث الانتشار في الأسواق ، وقد ظهر لي منه ان هناك أشخاصاً يبشرون بالمادية ، بالعلم أو بغير علم ، تحت ستار القرآن .

فالكتاب يبدأ بسم الله الرحمن الرحيم ، وكله عن الله ، والرسول ، والقرآن ، ولكن عندما تصل الى محتوى

الكتاب تجده يخفي ماديته تحت ملامح القرآن .

أي إن ذلك المادي نفسه الذي ظن قبل بضع سنوات انه قادر على محاربة الدين في ايران ، فراح يقول ان الله كذب ، والرسول كذب ، والوحي كذب ، ولكنه هزم شر هزيمة في قبال قوى الدين ، جاء الآن ، بعد أن يئس من أسلوبه ذاك ، بأقواله نفسها ولكن بصبغة اسلامية . أي انه ينكر وجود الله ولكن بشكل آخر ، وكذلك ينكر يوم القيامة ، فحيثما يكون الكلام على يوم القيامة والآخرة ، تكون الاشارة الى نظام أعلى ، وإذا كان الكلام على الدنيا ، فتكون الاشارة الى عالم أدنى .

فالدنيا بلسان القرآن هي عنده ذلك الظالم والطاغوتي ، الذي اذا تغير أصبح : الآخرة ! .

وهذه بالطبع كلمة حق يراد بها باطل . فما من شك في أن في الدنيا أنظمة سيئة ، فلا بد من محاربتها ، واقامة أنظمة اعلى مكانها ، وهذا ما نراه في التعابير القرآنية أيضاً ولكن القرآن لم يقصد بالدنيا والآخرة نظاماً أدنى ونظاماً أعلى ، أبداً . بل ان الدنيا والآخرة ، والنظام الأدنى والأعلى مواضيع متباينة مختلفة .

نلاحظ انه لا يقول ان الآخرة كذب ، ولا ينكر خلود الانسان في العالم الآخر ، ولكنه يصف الخلود بمثل ما

يصفه الماديون ، من انه التكامل ، أي ان فرداً يروح ، ويأتي آخر بمكانه ، ويروح الثاني ويأتي الثالث ، وهكذا يكون الجنس البشري باقياً ، وهذا هو الخلود .

هذا هو القرآن الذي رفعه معاوية على الرمح ، انما قبد تغيرت ملامحه . وهذا هو النفاق الذي يظهر في كل عصر بشكل جديد ، دون أن يعرف المسلمون انهم مخدوعون بذلك القرآن المرفوع على الرمح ، وكلما ظهرت جماعة معادية للدين ، البست عداءها لباس الدين ، ولكن اذا تنبه لهم المسلمون واستفاقوا ، لذهبت خطط أولئك أدراج الرياح .

والقرآن يرثي لهؤلاء حالهم ، فيقول :

﴿ أُوْلَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بِالهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين ﴾ .

فهؤلاء على الرغم من انهم لم يربحوا شيئاً ، فانهم قد أصيبوا بأضرار بالغة ، ولم يجدوا لأنفسهم مخرجاً ، فظلوا ضائعين .

يسأل الامام (عليه السلام) عن العقل ، فيقول :
« العَقْل ما عُبِدَ بِهِ الرحمنُ ، واكتُسِبَ بِهِ الجَنان » .
فيسأله السائل : إذن ما هذا الذي كان عند معاوية ؟

فيكون جواب الامام : « تلك النكرى والشيطنة » ، وهما والعقل شيئان مختلفان .

ويقصد الامام بذلك الدهاء والشيطنة والنفاق ، أما العقل فهو الذي يهدي الانسان الى المعنويات والانسانية .

* * *

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءت مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبصِرونَ (١٧) صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيه ظُلماتٌ وَرَعدٌ وَبَرقٌ يَجْعلُونَ أَصابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَالله مُحِيطٌ بالكافِرِينَ (١٩) يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وإذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَو شاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ إنَّ الله عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِير (٢٠) ﴾ .

بعد أن اشار القرآن إلى كيد المنافقين ومخادعاتهم ، ووصفها بأنها سلسلة اعمال لا أثر لها ومهزومة ، وقال ان هؤلاء أرادوا أن يكونوا الخادعين ، فكانوا المخدوعين ، ضرب مثلين لهذا النوع من الكيد والمخادعة ، نرى فيهما وجهاً مهماً من وجوه (فلسفة التاريخ) في نظر القرآن ، بحيث يمكن القول بأنه أصل من أصول الفكر القرآني ،

ونظرة توحيدية من نظراته الى العالم . ونحن بالنظر لكوننا نجد هذا من المباحث المهمة والرئيسة ، نجدنا ملزمين أن نورد شرحاً أوفى لهذا الموضوع .

هنالك نظريات وآراء متعددة بخصوص العالم عموماً ، وبخصوص الانسان ، والمجتمع البشري ، منذ بدايته وحتى مستقبله الآتي ، من حيث الخير والشر ، والجودة والرداءة ، والحق والباطل ، وهل إن وجود العالم حق وخير ، أم إنه هباء وباطل وشر ، أم إنه مركّب ، نصف حق وخير ، ونصف شر وباطل ، وهل إن ما يحكم حياة الإنسان خير أم شر ، حق أم باطل ، أو إنه نصف حق ، ونصف شر ، فإذا قلنا بكليهما ، فلمن تكون الأصالة ، للحق أم للباطل . . . الخ .

سوف نبدأ أولاً بذكر النظريات التي قالها الفلاسفة والمفكرون وعلماء الاجتماع ، ثم نذكر وجهة نظر القرآن التوحيدية بشأن كل ذلك .

لا شك في ان حياة البشر حياة خليطة ، أي ان حياة الفرد وحياة المجتمع خليط من الخير والشر ، فيها العدل وفيها الظلم ، وفيها الصدق وفيها الغش والخداع . لحياة البشر إذن صفحتان : صفحة نيرة ، وأخرى مظلمة .

إن اختلاط النور بالظلمة ، والعدل بالظلم في حياة الانسان ، من العمق بحيث ان الانسان كان موضع كلام

في الملكوت الأعلى ، قبل خلقته على الأرض ، وانه قد نظر اليه من منظورين اثنين .

عندما يعلن الله تعالى للملائكة قائلاً : ﴿ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفةٌ ﴾ ارتفعت الأصوات في الملكوت الأعلى تتساءل عن الحكمة في خلق كائن مفسد دموي : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ لقد كان الملائكة ينظرون الى الانسان من وجهة نظر واحدة ، هي كونه مخلوقاً مفسداً ، سافكاً للدماء ، فتساءلوا - إن لم نقل اعترضوا - عن الحكمة في خلقه .

إن لهذا جانبه الآخر ، فهذا الانسان مخلوق لم يستطع حتى الملائكة أن يصلوا الى أسرار وجوده وسبرها ، وان الله هو وحده الذي يعرف اسرار وجوده . ولكن الله لم يقبل هذا من الملائكة ، ورفض قولهم ، ورد عليهم قائلاً : ﴿ إنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم خلق الانسان ، وفي اختبار استعراضي واحد أثبت لهم انهم كانوا مخطئين .

فاذا ما تجاوزنا ذلك ، نجد ان فلاسفة البشر ومفكريهم ما فتئوا يتحدثون عن هذا ، ولهم فيه نظريات .

إن أكثر الفلاسفة الماديين الذين يحملون نظرة متشائمة عن الطبيعة ، والذين لا يعتقدون بأصل خلقة الانسان ،

ويعتبرونه نتيجة المصادفات ، يقولون : إن الشر جزء من طبيعة الانسان ، وانه لم يترك فعل الشر منذ أن وجد الأرض ، وانه ما يزال كذلك ، ولسوف يظل كذلك في المستقبل ، فلا أمل فيه من حيث السعادة . لذلك فهؤلاء يرفضون كل مشروع لإصلاح المجتمع ، إذ لا أمل لهم فيه ، ولا يرون امكان اصلاحه ، بل ينظرون بعين الريبة الى كل وجهة نظر اصلاحية سواء أكانت دينية أم فلسفية ، قائلين ان كل هذا اصلاح سطحي ، زاعمين ان واضعي تلك المشاريع الإصلاحية هم انفسهم من البشر ، ولهم ما للبشر من غرائز مختلفة ، ولا يتأتى من الغرائز البشرية غير الشر ، ولذلك فهم لا يرون فائدة من وضع خطة للأصلاح الاجتماعي .

فاذا سئلوا : بأي أمل يبقى الناس أحياءً إذن ؟ أجابوا : ما من شيء يحدوهم على البقاء ولا ينبغي لهم . إن على الانسان الذي يبلغ الكمال أن ينتحر ، وهذه هي قمة التقدم ، حيث يصل الانسان الى مرحلة يدرك فيها ألّا شيء في الدنيا غير الشر ، ولا يختلف مستقبله عن حاضره ، فكلما طال بقاؤه في العالم ، ازدادت الشرور من حوله . وبهذا يكون الانسان قد بلغ مرحلة (بلوغه الفكري) وعليه أن ينتحر .

لقد كتب الكثير من الكتب عن هـذا الموضـوع ، ولسنا بصدد ذكرهـا هنا ، إلا أن عـدداً من أمثال هؤلاء الفـلاسفة قد انتحروا فعلاً ، وهم من الماديـين ، ويعرفـون بالفـلاسفة المتشـائمـين . وهنـالـك في اوربـا عـدد من الكتـاب الـذين اتبعوا هذه الفلسفة وكتبوا حولها مقالات عديدة .

وثمـة كتـاب هنـا في ايـران وفي عصـرنـا هــذا نفثـوا سمـومهم في كتـابـاتهـم . وأحـد هؤلاء هـو (صـادق هـدايت) ، الذي كـان شابـاً ، ولكنه وقـع تحت تأثـير هذه الأفكـار ، وانتحر في ١٣٢٠ هـ. ش . كـان هذا يفتخـر في كتـابـاتـه بـأنـه قـد وصـل الى تلك المـرحلة من (البلوغ الفكري) التي لا يسعه معها سوى الأقـدام على الانتحـار . وكان يريد من الناس أن يحذوا حذوه ، فينتحروا .

والأدهى من ذلك ، ان بعضاً من هؤلاء ، يقول : ان أعـظم خدمـة للبشريـة هي ان يستطيع الانسان قـطع دابر البشر واجتثـاثه من عـلى وجـه الأرض ، كـأن يبـاد بقنبلة . يتضح من ذلك مدى خطر هذه الأفكار وحماقتها .

هنالك طراز آخر من التفكير ، وهو صـادر عن الماديـين أيضاً ، وعلى الرغم من انه متشـائم أيضـاً ، إلا أن تشاؤمه ليس كـذلك ، وإنمـا هو يثـير مشكلة أخرى . يقـول هؤلاء

أن ليس لـلانسان ميـول فطريـة ، وانما هـو يتبع مـا يخـطط له .

وأما الذين يقولون بمادية التـاريخ والمجتمـع ، فيقولـون بـأن مـا يتحكم في حيـاة البشر حكـماً مـطلقـاً هـو العـلائق الاجتمـاعيـة المـاديـة ، والعـلائق الاقتصـاديـة ، والعـلائق الإنتـاجية ، وان حيـاة الانسـان تـابعـة لهـذه الـروابط ، إن خيـراً وإن شراً . فـلا تفاؤل ولا تشـاؤم ، فقد تكـون حيـاة الانسـان حسنـة اذا حسنت هـذه العـلائق ، وقـد تسـوء حياته إذا ساءت هذه العلائق ، فهي محكومة بها .

يقـولـون : عنـدمـا كـان مستـوى الانتـاج ووسـائله منخفضـاً ، ولم يكن الانسان قادراً عـلى الحصول عـل أكثر مما يحتاجه لطعـامه اليـومي ، لم تكن حياتـه تختلف عن حياة الحيوان ، كالطيور التي تطير من أعشاشها صباحـاً جائعـة ، وتـظل تلتقط الحب حتى المساء حـين تعود الى أعشـاشهـا ، وتعيد ذلك في اليوم التالي .

هكـذا كان الانسـان الأول . لم يكن يدخـر شيئاً ، ولم يكن يملك ثروة .

كـان الناس يعيشـون حياة اشتـراكية ، وأحيـاناً كـانـوا يعدون طعامهم بصـورة مشتركـة أيضاً . فـالشخص لم يكن قـادراً على صيـد الحيوان بمفـرده ، إذ لم يكن يملك الوسـائل

المناسبة ، فكان يجتمع مع غيره ، فيصطادون حيواناً كبيراً بصورة مشتركة ويقسمون لحمه فيما بينهم .

في ظروف كهذه ، كان الناس مضطرين للعيش مع بعضهم كالأخوان ، تحت ضغط الظروف المذكورة ، مثلما كانت اسراب الطيور تعيش متآخية ، فلا حرب ، ولا نزاع ، ولا سفك دماء .

ثم لما تدرج الانسان على مدى التاريخ وازدادت تجربته ، واكتشفت الزراعة ، ودجن الحيوان ، واستفاد من لبنه ، وعرف طرق تكاثره ، استطاع أن يدخر طعامه ، وزرع الحنطة فحصد أضعافها ، وأصبح الفرد قادراً على انتاج ما يكفي عشرة.

وما ان بلغ الانسان هذه المرحلة من ادخار اكثر مما يحتاج ، حتى انهار تنظيمه السابق ، واستجد تنظيم جديد . في النظام السابق كان على كل امريء أن يعمل حتى يأكل ، فاذا توقفت يداه عن الحركة ، توقف فكاه عن الحركة أيضاً ، ولكن في النظام الجديد ، حيث الفرد يستطيع ان ينتج اكثر مما يحتاج ، أخذ الأقوياء يسخّرون الضعفاء ليعمل هؤلاء ، فيأكل أولئك . وظهرت بذلك الملكية ، ملكية الأرض ، وملكية الانسان .

وعلى اثر اختلاف نظام الانتاج وملكية وسائل الانتاج ، اختلف النظام الاجتماعي . فبعد أن كان الناس يعيشون كالأخوة ، بدأوا يعيشون متقابلين كالأعداء . غرب ذاك النور والخير السابق ، وساد الظلام حياة البشر كلها . ومنذ ذلك اليوم في تاريخ البشر انتصر الظلام على النور ، والشر على الخير ، والظلم على العدل ، والكذب والخداع على الصدق . وفي غضون ذلك كان ثمة شرر أو برق يلتمع في الظلمة بصورة استثنائية ، كأن يظهر فيلسوف أو قائد نهضة يضطره الضغط الى أن يخطو خطوة ، أو في نظر الذين لم يكونوا كثيري التشاؤم ، يظهر رسول ، وينشر الخير والعدل بعض الوقت ، ولكن لما كان النظام الذي يحكم التاريخ نظام ملكية الثروة ، لم يدم نظام الخير والعدل طويلاً ، فتلاشى مثل لمحة البرق في ظلام الليل . وعادت خطة الاصلاح نفسها لتصبح وسيلة بيد أصحاب الثروة يستغلون بها المظلومين والمقهورين . أي إن ما ظهر أولاً كإدام للخبز أصبح بلاءً على رؤوس الناس ، حتى أمسى هذا مصير كل دين أو فلسفة أو اصلاح أخلاقي يظهر على يد أحد المصلحين .

ويقولون ايضاً : ان هذا ما زال مستمراً ، وانه لا علاج له إلا إذا تغير الأساس نفسه ، أي علاقات الانتاج . يعني ان البشر كان يوماً يعيش في ظل نظام

اشتـراكي مضطراً ، بسبب نقص وسـائل الانتـاج ، واليـوم إذا تكاملت وسائـل الانتاج ، فسيضـطر الانسان الى العـودة الى النـظام الاشتراكي ، راضيـاً أم كارهـاً . أي إن الحـالـة تصـل حـداً لا يمكن أن يعيش فيهـا الانسـان إلا اذا طبق الاشتراكية ، ولا تأثير لارادة الانسـان في هذه القضيـة ، بل ان ازديـاد وسـائـل الانتـاج يـوجـد الاشتـراكيـة بصـورة صحيحة .

ثم لا يعـود النـور ، والعـدل ، والخـير ، والصفـاء ، والمحبـة ، والأخوة ، الى المجتمـع البشري مـرة اخرى ، إلا إذا عادت الاشتراكية الكاملة : الشيوعية .

إذن ، هـذه النظريـة لا تقول ، كـالماديـة ، بأن طبيعـة البشر مجبـولة عـلى الشر وستبقى كذلـك . ولكنهـا تقـول ان الانسـان لا طبيعة لـه ، انما هـو لعبة مسخـرة بيـد وسـائـل انتاجه .

في البـداية كـانت وسائـل الانتاج بشكـل يضطر معهـا الانسـان ان يكـون صـالحـاً ، ثم اتخـذت وسـائـل الانتـاج شكـلاً آخـر ، وظهـرت الثـروة والملكيـة ، فغـدا الانســان فاسداً . وما دامت الثروة والملكية موجـودة ، فلا سبيـل الى الاصـلاح ، وإذا قـال البشر إنهم يـريـدون أن يصلحـوا ، فانهم واهمون ، وهذا ما يسمى بـالاشتراكيـة الخياليـة . فإذا

اراد الانسـان اصلاحـاً حقيقيـاً ، عليـه ان يصبـر حتى يبلغ مـرحلة الغـاء الملكيـة والتي تكـون نتيجـة لـرشـد وسـائـل الانتـاج . فـذلـك هـو اليـوم الـذي يمكن ان نشـاهـد فيـه المسـاواة ، والعـدالـة ، والنـور ، والخـير تسـود المجتمـع البشري .

نظرية القرآن :

نعـود الآن الى القـرآن لنـرى كيف ينـظر الى هـذه المسألة ، وهي من أهم مسـائل القـرآن في تفسير التـاريخ . هل ينظر القرآن إلى الانسان وحيـاته نـظرة متفائلة ، ويقـول بـأن الشر لم يكن له وجـود ، وليس له وجـود ، ولن يكـون له وجود ؟ من الـواضح ان الأمـر ليس هكذا ، وليس ثمـة مـا يوجب البحث في ذلـك ، لأن القرآن يقـول بأن الحـرب بـين الحق والباطـل كانت مستمـرة عـلى امتـداد التـاريـخ ، ولذلك فهو يرى ان للبـاطل كيـاناً ووجـوداً . أي ان القرآن يضـع النور في قبـال الظلمـة . ففي قصـة خلق آدم كـما مـرت ، وقد حسب المـلائكة أن آدم شر محض ، نبههم الله الى أنهم كـانوا مخـطئين ، وقـال انه يعلم أشيـاء لا علم لهم بهـا ، وانه يـرى ما لا يـرون . أي إن ما يـرونه صحيـح ، والله يـراه أيضـاً ، ولكنـه يـرى ضمن ذلـك أمـوراً لا يستـطيعون هم رؤيتهـا ، إذ أنهم لم يقرأوا إلّا وجهـاً واحـداً

من الصفحة دون الوجه الآخر . وعليه ، فان نظرة القرآن ليست كذلك .

فهل يرى القرآن ان البشر شر محض ؟ أي انه يحمل النظرة المتشائمة اليائسة نفسها التي كان يحملها « نيتشه » و « شوبنهاور » وأتباعهما ، ممن يقولون ان البشر كائن لا يمكن اصلاحه ، فيجب ان يترك وشأنه ؟ كلا .

وذلك لأن رسالة الأنبياء هي اصلاح المجتمع الانساني عموماً . فلو كانوا يحلمون نظرة متشائمة كتلك ، لما جاؤوا بمناهج اصلاحية . ثم ان هذه النظرية لا تتلاءم مع نظرية التوحيد ، وهي من أهم نظريات القرآن الرئيسة . أي ان النظرة الإلهية التوحيدية ، إلى العالم ليست كتلك ، إذ لا يمكن أن تكون نظرة القرآن الى العالم نظرة إلهية توحيدية ، ثم ترى ان العالم باطل وشر وبلا طائل .

إن القرآن المجيد يرى ، كما هو المشهود منه ، ان نظام الخليقة نظام خير ، أي إنه ، مع قوله بوجود الخير والشر في العالم ، فانه يعتقد بانتصار الخير على الشر ، والاسلام لا يجيز نظرة غير هذه للعالم . فما الذي يقوله القرآن ، وما هي نظرته بهذا الشأن ؟ .

إن نظرة القرآن هي على النقيض من النظرة الماركسية . فالقرآن يقول ، ان الحق والباطل كانا دائماً

موجودين على امتداد التاريخ ، وان النـزاع بينهما من طبيعـة البشر ، لأن الانسـان كـائن ذو طبيعتـين وسجيتـين ، تلك الـطبيعة التي تقـول عنهـا الأخبـار والـروايات ، إن الله قـد خلق فيهـا الشهـوة والعقـل . ولكن القـرآن يـرى أيضـاً ان النصر في هذا النزاع الطويل عبر التاريـخ للخير ، فـالعدل والنـور دائمـان ، والـظلمـة والشر مـوقتـان . والقـرآن ، بخـلاف ماركس ، لا يجعـل الملكية هي المعيـار ، وانما هـو يقول بأصالة الايمان ، أي الأسس الروحية والفطريـة . أي انـه لا يقول ان الـدين والأخـلاق كـانـا دائـماً ألعـوبـة بيـد الثـروة ، بل رد هـذه الفكرة بشدة . لا شـك ان الثـروة والسلطة استـطاعا احيـاناً التـأثـير في الـدين ويتبين ذلـك في ظهـور البدع والانحـرافات ، ولكن ، عـلى وجه العمـوم ، كان للدين الأثر الأقوى في مصير البشرية .

الأصالة للحق :

يـرى القرآن أن ليس للشر والبـاطـل أسـاس أصيـل ، وانما هما وليـدا وجود الحق ، كـالظل والضـوء ، أو الظلمـة والنـور ، فكلاهمـا موجـودان ، ولكن لا أصالـة للظلمـة في قبـال النور . أي انهما ليسـا واقعـين نـاشئين عن مصـدرين مختلفين ، احدهما للنور ، والآخر للظلمة ، بـل الأصل هـو النـور ، فحيثما لا يـوجد نـور ، تكون الـظلمة ، فـلا يصح

ان نقول انه إذا خلا مكان من النور ، وجد شيء هو ضد النور ، فالظلمة هي انعدام النور .

والمسألة تشبه الصحة والمرض ، أي إذا شاء الانسان ان يكون سالماً ، فيجب ان يكون في جسمه تعادل . فمثلاً ، ينبغي ألّا تزيد كريات دمه البيض عن حد معين ولا تنقص ، وكذلك كرياته الحمر وضغطه ، ومقدار اليوريا ، الى غير ذلك . فما المرض الا انعدام الصحة ، والأصل في الجسم هو التوازن والسلامة ، وإذا أدى اختلال التوازن الى المرض ، فان ذلك يعود على الصحة والسلامة بالضرر .

ومثلما يحتاج الجسم الى التعادل والتوازن ، يحتاج المجتمع كذلك الى الصدق ، والأمانة والايمان والعفة . فلا مجتمع يجب ان يخلو من هذه المفاهيم ، فلو خلا مجتمع منها لما استطاع البقاء يوماً واحداً . ولئن ساد المجتمع ظلم ، وعدوان ، وتحلل ، واختلال ، فان ذلك أمر موقت ، وسرعان ما سيعود الأمر الى طبيعته .

وعليه فيمكن تلخيص وجهة نظر القرآن في بضع نقاط :

١ ـ ليس للباطل أصول متأصلة في العالم ، وانما هو طفيلي على الحق .

٢ ـ ولما لم تكن للباطل أصالة وتأصل ، فانه سريع الزوال . انما الحق هو الدائم الذي لا يزول .

٣ ـ وعلى الرغم من أنه ليس للباطل أصل ، وانه سريع الزوال ، فان له ظاهراً عريضاً لافتاً للنظر ، بحيث انه إذا كانت العين لا تبصر الحق ، فقد ينخدع الانسان بهذا الظاهر ، ويقول بأصالة الباطل ، يرى الحق صغيراً في قبال الباطل .

ثمة نقطة أخرى جديرة بالاهتمام ، وهي أنه على الرغم من أن الباطل طفيلي لا أصل له ، وانه ، لذلك ، مثل الزبد يتلاشى بسرعة ، فانه عند ظهوره يتخذ ابعاداً واسعة مترامية الأطراف ، حتى ان الانسان الضحل التفكر ينادي : أين الحق إذن ؟ إن كل ما أراه هو الباطل . هذا هو الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس ، ولما لم يكن عميق النظرة ، يقول : حتى لو كان الحق قد ظهر في العالم ، فانه قد ظهر في لمحة البرق الخاطف وتلاشى ، وبقي الباطل هو الحاكم بأمره ، غافلاً عن الأصالة في الحق ، فما قوة الباطل إلا بوجود الحق ، وإن الباطل ليس سوى طفيلي غطى وجه الحق .

يذكر القرآن صراع الحق مع الباطل ونتيجة الصراع في آيات عديدة ، وضرب لذلك الأمثال ، كما يلي :

١ ـ ﴿ أَنْـزَلَ مِنَ السَّمـاءِ مَاءً فَسَـالَتْ أَوْدِيـةٌ بِقَـدَرِهَـا فـاحْتَمَلَ السَّيْـلُ زَبَداً رَابيـاً وَمِمّا يُـوقِـدُونَ عليـهِ في النَّارِ ابْتِغَـاءَ حِلْيَةٍ أو مَتَـاعٍ زَبَـدٌ مِثْلُهُ كَـذَلِـكَ يَضْـرِبُ الله الحَقَّ والبـاطِلَ . فـأمّا الـزَّبَدُ فَيَـذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّـا مَا يَنْفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الأمْثَالَ ﴾[1] .

فالماء الـذي ينزلـه الله من السماء ، يسيـل في الأودية ، ويحصـل الزبـد ، فيخال للنـاس أن هذا كله زبـد ، ولكنـه الماء ، الأسـاس هـو المـاء ، ولكن الـزبـد يتسـع وينتشر ويغـطي سـطح المـاء كله . ثم يقـول : ﴿ وَمِمّـا يُـوقِـدُونَ عَلَيه في النَّارِ ابْتِغَاءَ حِليةٍ أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ .

أي انـه يحصـل مثـل ذلـك عنـد إذابـة المعـادن لكي يصنعوا منه بعض الحلي ، فيظهر الزبد كذلك .

﴿ كَـذَلِكَ يَضْـرِبُ الله الحَقَّ وَالبَاطِـلَ ﴾ ، فهـذا مثله مثل الحق والباطـل ، أو أنه ، كـما يقول بعض المفسـرين ، هكـذا يبـدو ، أي ان الحق كـالمـاء الـرائق ، أو كـذائب المعدن ، وما الباطل إلا ذاك الـزبد ﴿ وَأَمَّـا الزَّبَـدُ فَيَذْهَبُ جَفاءً ﴾ وسرعان ما يـزول الزبـد ويتلاشى ﴿ وَأَمّـا مَا يَنْفَـعُ

---

(١) سورة الرعد ـ آية : ١٩ .

النّـاسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ ﴾ وهـو الحق الـذي سيبقى في الأرض لمنفعـة النـاس . فالماء الـذي تحت الـزبـد يجـري في الأنهر إلى المـزارع فيـروي الأرض ، ويثمـر ثمـراً نـافعـاً . وكـذلك المعـدن الـذي يـظل عـلى هيئـة قضبـان أو حـلي ، فينتفع بها الناس .

٢ ـ ﴿ أَلَمْ تَـرَ كَيْفَ ضَـرَبَ الله مَثَـلاً كَلِمَـةً طيبـةً كَشَجَـرَةٍ طَيِّـبَةٍ أَصْلُهـا ثـابِتٌ وَفَـرْعُهـا في السَّمـاء ، تُؤْتِي أُكُلَهَـا كُـلَّ حِينٍ بـإِذْنِ رَبِّهـا وَيَضـربُ الله الأمْثَـالَ لِلنَّـاسِ لَعَلَّهُمْ يَتذَكَّرُون . وَمَثَـلُ كَلِمةٍ خَبيثَـةٍ كشجَرَةٍ خَبِيثَـةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْق الأرضِ مَا لَها مِنْ قَرَارٍ ﴾ .

إن لفـظة « كلمة » تستعمـل في القرآن مـرة لتـدل عـلى اللفظة ، ومرة أخرى لتدل على الحقائق ، كقـوله تعـالى عن عيسى « كلمة الله » .

وفي هــذه الآيــة ، يعبــر عــن عقيــدة البــاطــل ، بـ(كلمة) ، وضرب لكل مثلاً . فـالحق مثل شجـرة سالمـة نظيفة ، مثمرة تضرب جـذورها في أعمـاق الأرض ، وتعلو أغصانها مرتفعة نحو السـماء ، مليئةً بـالثمر والـورق في كل الفصـول ، فهي ، كما يقـال ، دائمة الخضـرة ﴿ تُؤْتِي أُكُلُهَا كُــلَّ حِينٍ بـإِذْنِ رَبِّهــا ﴾ فكلما قـطفت ثمــارهــا عــادت فأثمرت .

أما عقيدة الباطل ، فكشجرة رديئة ، لا ثمر لها ولا جذور . اننا نجد احياناً شجيرات نابتة بغير ثمر ، وبالتفحص نجدها بغير أصول أيضاً ، فهي واه بنيانها ، وما ان يهب عليها نسيم حتى يقتلعها وتذهب في مهب الريح ، مثل ذاك الزبد في الآية السابقة ـ عظيم الظاهر ، تافه الوجود .

كتب « ناصر خُسْرو » حواراً بين نبتة يقطين نبتت تحت شجرة دلب ، وسرعان ما نمت وامتدت سيقانها وتسلقت الشجرة وغطتها باوراقها في غصون بضعة أسابيع . فسألت كم يوماً عمرك ؟ فأجابت الشجرة : ينوف عمري على ثلاثين سنة . فضحكت منها النبتة وقالت ساخرة : انظري إلي أنا بنت العشرين يوماً نموت وترعرعت أكثر منك ، فأجابت الشجرة :

« إنتظري حتى تهب ريح الخريف
عندئذ يتضح الرجل من غير الرجل »[1]

القصد هو إن القرآن يريد ان يقول لنا : لا تغرنكم الظواهر ، ولا تنخدعوا بظاهر الباطل العري ، بل عليكم أن تتعمقوا في النظرة . فقد يتخذ سلوك ، لا يزيد عمره

---

(١) بگذار بَر مَن وتُووَزَدْ بادِ مِهْرگَانْ
آنكه شود بديد كه نامَرد ومَرد كيست

عن عشرين او ثلاثين سنة ، واجهة واسعة تبدو كما لو كانت أوسع من مدرسة الحق التي مضى عليها أربعة عشر قرناً . يقول القرآن إن علينا بالصبر ، إنتظار لهبوب الرياح المختلفة . لقد مضى على الثورة الاسلامية أربعة عشر قرناً ، ولكم هبت رياح مختلفة ، ولكنها ما زالت تقف مكينة ثابتة ، بينما ذلك السلوك وأمثاله سرعان ما يزول ويضمحل .

٣ ـ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ عَلَىٰ البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمْ الوَيْلُ مِمّا تَصِفون ﴾ .

إن الآية التي تسبق هذه تتعلق بأصل الخليقة ، أي انها تحارب الفكرة المادية التي ترى العالم هباءً فارغاً . إن حياة الانسان والمجتمع يرتبطان بأصل الخليقة . فلو كان هذا الأصل مبنياً على اللهو واللعب ، لكان الانسان ووجوده كله فراغاً باطلاً ، ولكن الله يقول : ﴿ مَا خَلَقْنا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبين ﴾ . لقد خلقنا هذا الكون العظيم ولم نكن نلعب . نحن لم نكن نبني مثل الأطفال لنهدم مرة أخرى من باب اللهو .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ ﴾ وكأن هذه الآية رد على من يقول : إذا لم يكن خلق العالم لعباً ولهواً ، فلماذا كل هذا الباطل الذي نراه في المجتمع الانساني ؟ أفليس في العالم

كذب وخيانة ؟ أفليس في العالم ظلم وعدوان واراقة دماء ؟ فلماذا نرى كل هذه العقائد الباطلة ، وهذه الاتجاهات الباطلة موجودة في العالم ؟ .

في الاجابة على ذلك يقول القرآن : هذه كائنات طفيلية ، تظهر بالضرورة مع ظهور الحق ، إلا أنها لا تدوم طويلاً ، بل سرعان ما تزول .

« القذف » هو أن تمسك بالشيء وترميه بقوة ، كأن تلتقط حجراً وترمي به انساناً أو زجاجاً . فقول القرآن ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَىٰ البَاطِلِ ﴾ كأنه يعني اننا نصنع من الحق قنبلة نقذفها بشدة على الباطل فتحطمه تحطيماً ، وعندما تقدم لترى ما الذي حدث ، لا تجد شيئاً ﴿فإذا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ . ولا يعني هذا انه لم يكن زاهقاً منذ البداية ، وانه أصبح زاهقاً الآن . كلا ، بل كان مظهراً يبدو كبيراً قبل ان يتقدم الحق لحربه ، وعندئذ انكشف باطنه ، وأنه لم يكن شيئاً ، أو كان كبالون منفوخ ، ثم أفرغ من الهواء .

٤ ـ ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهق البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾[١] .

---

(١) سورة الاسراء ـ آية : ١٨ .

ههنا أيضاً لا تحسبوا ان الباطل كان شيئاً عينياً وواقعاً ، وانه الآن عندما جاء الحق أخذ مكانه وملأه ، كلا ، إذ ﴿ إِنَّ الباطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ كان فانياً بنفسه ، أي إنه لم يكن سوى هيكل أو شاخص ، كان نموذجاً ، لا كيان واقعي له .

فالقرآن لا ينظر إلى حرب الحق والباطل على انها حرب بين وجود ووجود ، بل هي حرب الوجود ضد اللاوجود . حرب الكمال ضد النقص ، إذ إن الباطل يرجع كله الى النقص . فالظالم ظالم لنقصه ، لا لكماله ، أي ان ظلمه ناشيء عن جهله أو شعوره بالحقارة ، فيحسب إنه بذلك يتكامل .

الخلاصة هي إنه وإن كان القرآن يقول بوجود الحرب بين الحق والباطل ،ولكنه في الوقت نفسه لا يرى للباطل أصلاً ، على النقيض من الماديين الذين إما أن يقولوا بأن البشر كائنات شريرة بذاتها ، أو أن ينكروا على الانسان كل فطرة ، قائلين انه نتاج ما يطرأ على وسائل الانتاج من تغيرات وتحولات . ولا شك انهم ليست لديهم (مدينة فاضلة) ، ولا يمكن ان تكون لهم ، فاذا ورد عندهم شيء عنها ، فذلك خلاف عقيدتهم . ففكرة (المدينة الفاضلة) فكرة اسلامية ، وهي فكرة لا يتقدم بها أحد ، إلا إذا كان مؤمناً بامكان اصلاح البشر .

يشير القرآن إلى مصاير أقوام ، ومدنيات تاريخية لكي يصل الى حقيقة ان كل مجتمع ساد فيه الشر ، وطغى فيه الباطل ، فذاك مجتمع آيل للزوال لا محالة ، ولا يبقى إلا المجتمع الذي يكون فيه الحكم للحق . وفي القرآن شواهد عديدة على هذا . فما أكثر المجتمعات التي باءت بغضب من الله لأنها انحرفت عن طريق الحق ، واتجهت الى الباطل .

إن من الممكن ان ينظر المرء الى التاريخ ، ليجد المجرمين لا تخلو منهم صفحة ، فيقول : التاريخ ظلام ليس غير . إلا أن هذا الحكم غير صحيح ، لأنه حكم نشأ عن المفهوم الخاطيء القائل بأن التاريخ يصنعه الأفراد . يقول القرآن إن هؤلاء هم الزبد الذي يذهب جفاء .

فلو نظرنا الى التاريخ الاسلامي ، لوجدنا هارون الرشيد ، بطل ألف ليلة وليلة ، بسجونه ولياليه المخمورة ، وظلمه ، فنقول : هذا نموذج لتاريخ العالم ، ويقول القرآن : لا ، ليس الأمر كذلك ، فهارون فانٍ ولا بقاء له . أما الذين هم أصل إرادة عجلة الحياة ، أي الذين يفلحون الأرض ، والذين ينتجون ، ويأخذون ويعطون ، وبعبارة اخرى ، العاملون الذين بيدهم يديرون عجلة المجتمع ، فلا يلفتون نظرنا ،

مثلهم مثل الماء الذي يجري تحت الزبد ، وما هارون وأمثاله إلا طفيليات تعيش على وجودهم . أما أنت فواجبك ان تجاهد هارون وأمثاله ، دون أن ينتابك اليأس ، فتقول : إن هؤلاء كانوا دائماً موجودين ، وهم الذين كانوا يديرون المجتمع . كلا ، بل إن موسى بن جعفر ، الذي كان في سجن هارون، يجاور قصره ، ويسمع عربدة السكارى وضجيجهم ، هو الذي يبقى ، ومع ان هارون لم يسمح لأحد بزيارته ، فهو في قلوب الناس وفي نفوسهم قوة خالدة . يصبح فكر موسى بن جعفر أبدياً ، بينما يزول هارون بكل عظمته ، وكبكبته ، ودبدبته .

بعد هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء ، سنباشر بتفسير المثلين اللذين نحن بصددهما :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً . .

هؤلاء أشبه بالذين يشعلون ناراً في الصحراء يستضيئون بها ، وإذا بالريح تهب فتطفيء نارهم ويغرقون في الظلمة ثانية . والمقصود بالنار والنور هنا هو الخطط الخادعة لأتباع الباطل ، لا نور الحق ، كما ذهب اليه بعض المفسرين . وشرح الموضوع كما يلي :

إن الانسان يهتدي بوسائل عديدة ، فهو يهتدي

بـالغريـزة ، وهذه ضعيفـة في الانسان ، وقـوية في حيـوان . وهو يهتدي ايضـاً بالحـواس ، فيتعرف الأشيـاء بالعـين ، أو بالأذن ، الخ . وهو يهتدي بالعقل والتفكـير ، الى أن يصل الى الاهتداء بالوحي الذي يختص به اتباع الأنبياء .

ومهما يكن فكر الانسان فهو نور ينير الـظلمة . وأحيـاناً يستعمـل الانسان هـذا النور بحسب نـظام الخليقـة ، وفيـما يرضي الله ، كما جاء في القرآن :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدَىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[1] .

ولكن يحـدث أحيانـاً اخرى ان شخصـاً يجانب طـريق الهـداية ويستخـدم فكره في طـريق الضلالـة ، أي انه بعقله وبفكـره يضع الخـطط ، ولكنها تخـالف مـا يقضي بـه الله ، ومـع ذلك فـانها قد تنجـح وتتقدم بضـع خطوات ، ولكنهـا لن تستمر ، وسرعان ما تزول .

فـالقرآن يقـول إن مثلهم مثل من يـوقـد نـاراً في بيـداء مـظلمة ، يـريـد بهـا أن ينـير بعضـاً ممـا حولـه، ولكن نـاره اضافة الى كونها ضعيفة الانـارة ، ولا تضيء إلا ما أمـامه ، فانها لا تدوم طويلاً . أي ما دام الباطـل مبنياً عـلى الخدعـة والغش ، فانه فانٍ وزائل .

تلاحظون أن القرآن ـ بخلاف الـذين يقولـون ان الحق

---

(١) سورة محمد ـ آية : ١٧ .

كان طوال التاريخ مجرد ومضة برق سرعان ما خبت ـ يقول إن الباطل هو الومضة التي سرعان ما تخبو ، فهو ما ان أضاء ما حوله وظنّ المرء انه يرى بوضوح حتى « ذهب الله بنورِهِمْ » . إن الله ، بما لديه من وسائل الخلق الأبدية أطفأ نورهم ﴿وتركَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ ولا يرون طريقاً يسلكون .

صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ :

بل إنهم بالاضافة الى كونهم لا يبصرون ، فان آذانهم لا تسمع . إذا كان المرء في الصحراء أعمى لا يبصر ، فانه قد يستطيع العثور على طريقه بما تسمع أذنه من أصوات ، وأبواق سيارات ، وأجراس ابل سارية ، أو حتى وقع أقدام انسان . وإذا كان نطقه سليماً ، فيمكنه أن يصرخ مستنجداً .

ولكن هؤلاء لا عين فيهم ترى ، ولا أذن تستطيع سماع أصوات الآخرين ، ولا لسان ينطق طلباً للنجدة .

فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ :

لا رجوع لهؤلاء . لا بد أن يدفنوا في ذلك المكان . وهكذا تلاحظون كيف ينظر القرآن الى التاريخ نظرة متفائلة ، ويطمئننا على أنه إذا دخل الحق حرباً ، فانه هو المنتصر، والباطل هو المندحر في النهاية .

كـان هـذا مثـلاً عن النـور والضـوء اللذين يصنعهـما الانسان بنفسه ، أي تلك الأفكـار والتعابـير ، والخطط التي يرسمها ، والتي تبقى امامه بعض الوقت .

ولكنهم قد يستفيدون من نور لم يوقـدوه بأنفسهم ، بـل كـان ومضـة بـرق متجهـة الى مكـان آخـر . فقـد تنـطلق شـرارة ، مثلاً ، فيـظنون أنهم قـادرون عـلى الاستفـادة من هـذا الشرر ، فيعـدون عدتهم لاستغـلاله ، ولكنـه ينطفيء قبل أن يستغلوه .

أَو كَصيبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعدٌ وبَرْقٌ :

أو كمثـل مكـان أظلمت فيـه السـماء ، وانهمـر المـطر مـدراراً ، حيث ظلمات عـديـدة : فـأنهيـار المـطر ظلمـة ، ووجـود الغيـوم الحتمي ظلمـة ، واذا كـان الـوقت ليـلاً ، فـظلمـة ثـالثـة . إذ لـو كـان الـوقت ليـلاً فحسب ، بغـير سحـاب ومـطر ، لكـان بـالامكـان ان يستضيء المـرء بنـور النجـوم . ولو كـان ثمة سحـاب بغير مـطر ، لكان في الجـو بصيص من ضـوء ، مهـما يكن ضئيـلاً ، ولـو حـدث كـل ذلـك في النهار ، لكـان ضـوء الشمس خلف الغيـوم كـافيـاً للرؤية . وهكـذا يقـول القـرآن : فيـه ظلمـات ورعـد وبرق .

يَجْعلونَ أصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الموتِ :

إن الأصوات الراعدة في السماء من الشدة بحيث أنهم يرتجفون هلعاً ، ويسدون آذانهم لكيلا يسمعوها .

يَكَادُ البرقُ يَخْطُفُ أبصَارهُمْ :

كذلك البرق ، كأنه من شدة سطوعه يريد أن يعميهم .

كُلَّما أَضاءَتْ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ :

وخلال هذه الظلمات المتراكمة ، يستغلون وميض البرق ليخطوا خطوات الى الامام ، ولكن هذا لا يدوم ، وسرعان ما يتلاشى ، فلا يستطيعون السير أكثر من خطوة واحدة .

وإذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا :

وكلما استغرقهم الظلام ، لبثوا في أماكنهم واقفين .

وَلَوْ شَاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ :

وكالمجموعة الأولى التي ابتلاهم بالظلمة ، يستطيع الله كذلك أن يسلبهم آذانهم وعيونهم .

ذلك هو مصير أصحاب الخدعة في التاريخ . إذ يقول القرآن : إنهم لا أصالة لهم ، فلا تخشوهم ولا تحسبوا

النصر من نصيبهم ، فزوالهم محتم ، والباقي هو الحق .

ولا يعني هـذا اننـا يجب ان نجلس ننتـظر زوال عهـد الملكية ، وظهور عهد الاشتراكيـة ، وهكذا . كـلا ، فحيثما ظهرت الاشتراكية ، اشتدت الظلمة ، وانكشف لا جـدوى تكامل وسائل الانتـاج ايضاً . إنمـا الانسان هـو القادر عـلى اقـامة العـدل واشعال النـور ، ليحـظى في رعـايتهـا بحيـاة سعيدة .

﴿ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾

* * *

﴿ يَـا أَيُّها النَّـاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمْ الَّـذِي خَلَقَكُمْ وَالَّـذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ (٢١) الَّـذِي جَعَـلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِـرَاشاً وَالسَّمـاءَ بِنَاءً وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً فَأَخْـرَجَ بِهِ مِنَ الـثَّمَـرَاتِ رِزْقـاً لَـكُمْ فَـلاَ تَـجْـعَـلُوا للهِ أَنْـدَاداً وَأَنْـتُـمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اَعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾

في هذه الآية المتألفة من جـزءين متكاملين ، يـدعو الله الناس إلى التوحيد ، أكثر مبادىء الإسلام تـأصلاً ، وأقـوى قاعدة من قواعده الفكرية والعقائدية .

تـلاحـظون أن الآيـة تبـدأ بنـداء مـوجـه إلى النـاس . وكلمـة « الناس » كثيـرة الورود في القـرآن ، سواء كمنـادى

كما هي الحالة هنا ، أم بصيغ أخرى ، مثل « لله على الناس حج البيت . . . » .

وكلمتا « ناس » و « إنسان » من أصل واحد ، وليس بينهما اختلاف كبير . كل ما في الأمر ، من حيث النظرة اللغوية ، إنهم يقولون إن « إنسان » إسم جنس ، و « ناس » إسم جمع . أي عندما نقول « إنسان » نعني النوع الانساني ، ولكن إذا قلنا « ناس » فالمقصود جمعهم ، مثل كلمة « قوم » . فالخطاب إذن ، لجميع بني البشر . بقي الآن أن نوضح ما يلي :

لكل مدرسة من مدارس العقيدة جوانب أربعة مرتبطة بعضها ببعض :

١ ـ من الذين تتوجه اليهم هذه المدرسة بالخطاب ؟ أي لمن وجدت هذه المدرسة ؟ أهي لجميع الناس ، أم لجماعة منهم خاصة ؟ وإذا كانت لجماعة خاصة ، فمن هم هؤلاء ؟ .

٢ ـ ما هدف هذه المدرسة ؟

٣ ـ كيف تنظر هذه المدرسة إلى العالم ؟

٤ ـ ما هو محتوى هذه المدرسة ؟ والمقصود بالمحتوى هو مجموعة تعاليمها وقوانينها .

هذه الأمور الأربعة مترابطة ، أي إن وجهة نظر

المدرسة إلى العالم مبنية على نوع المخاطبين ، وبالعكس ، نوع المخاطبين يعين وجهة نظر المدرسة ، وهذان مرتبطان بالهدف الذي ترمي اليه المدرسة ، وكل ذلك مرتبط بمحتوى المدرسة ، أي الرسالة التي تحملها الى الذين تريد مخاطبتهم .

إن الآية تبحث في المخاطبين ، وفي رسالة واحدة رسالة التوحيد ، أهم رسالة من رسالات الإسلام والقرآن .

مخاطَبو القرآن :

لا بد لنا أن نشير ، بهذا الخصوص ، الى أن كل المدارس ، والمذاهب ، والعقائد سواء الإلهية منها والوضعية ، تتوجه برسالتها إلى الذين تخاطبهم ، وهم مختلفون .

من ذلك ، مثلاً ، قد تكون مدرسة ما ذات لون قومي ، كما هي حال معظم الأحزاب القومية ، والتي هدفها (حسبما تدعي في الأقل) تحرير شعوبها وإسعادها . وعلى ذلك ، فانها تخاطب شعوبها ، ولا تخاطب الشعوب الأخرى . ففي بريطانيا يخاطب حزبا العمال ، والمحافظين الشعب البريطاني .

وقد تصطبغ إحدى المدارس بصبغة العنصر والدم ، ويكون هدفها تحرير ذاك العنصر ذاته ، لذلك فهي

تخاطب أفراد ذلك العنصر فحسب ، كانتفاضات السود ضد البيض ، فهي تخاطب السود فقط .

وقد تظهر مدرسة تستهدف إشباع البطون الجائعة ، فتنادي باتحاد الجياع معاً ، لايجاد قوة تستطيع أن تنتزع خبزهم من بين براثن المعتدين على حقوقهم . فلا شك في أنها تخاطب الجائعين ، كالماركسية التي تدعي بأنها قد وجدت لاسعاد طبقة العمال (البروليتاريا) وتحريرهم ، فهي تخاطب العمال ، ولا تقبل أن ينتمي اليها أحد من الرأسماليين .

فلننظر الآن من هم الذين يخاطبهم الاسلام ؟ ومن الذي ينتمي إلى عضويته ؟ هل يخاطب الإسلام العرب فقط ، لكونه قد ظهر بين ظهرانيهم ؟ أم أنه يخاطب أهل مكة دون غيرهم ، لأنه ظهر في مكة ؟ .

عند الرجوع إلى نداءات القرآن ، تتضح لنا هذه الحقيقة ، وهي إننا في كل نداءاته لا نجد نداءات تقول : « يا أيها العرب » أو « يا أيها القريشيون » أو « يا أيها المكيون » أو « يا أيها المدنيون » أو « يا أيها الشاميون » . بل نجد إن نداءات القرآن على نوعين : فمرة يكون النداء « يا أيها الناس » وهو نداء موجه إلى كل البشر ، ومرة أخرى يكون النداء موجهاً إلى المؤمنين ، يوصل اليهم ما

يريد من التعاليم ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا » .

وهنا يطرح سؤال نفسه ، وهو : أيصح أن نخاطب جميع البشر ؟ وهل هذا عملي أم لا ؟ .

يقول بعض ، بما أن الانسان النوعي كائن انتزاعي ، بحسب المصطلح الفلسفي ، فلا يمكن أن يكون مخاطباً لمدرسة واحدة .

ويقول آخرون إنه ما دام الانسان ، كأنسان ، خلواً من الوجدان ، فان المدرسة التي تخاطبه لا تقدر على خلق حركة ما .

من الممكن أن نخاطب الناس على أنهم عرب ، أو عجم ، أو ايرانيون ، وعندئذٍ نكون قد خاطبنا وجدانهم القومي أو الوطني ، ويمكن تحريكهم من هذا المنطلق . أي لنا أن ننادي : « أيها الايراني » و « أيها المصري » و « أيها العربي » عليك أن تكون كذا وكذا . وهذه نداءات تستند الى الروح القومية أو الوطنية ويمكن أن تستند إلى الروح العنصرية ، فنقول « أيها السود » أو « أيها الحمر » أو أن تستند إلى الروح الطبقية ، لأن للطبقية وجدانها ، فنقول « أيها المحتاجون » ، « أيها العمال » ، « أيها الفلاحون » . فههنانستطيع إيجاد تحرك بالاستناد إلى الروح الطبقية . ففي الخطاب الموجه إلى العمال ، يقولون : « أيها العامل ، لماذا يجب أن تكون ثروتك

قليلة » ؟ وعندئذٍ يكون دافعه إلى الحركة منافعه الخاصة ، حيث يقول في نفسه : لماذا يأخذ غيري حقي ؟ فانتم من هذا تشعرون بأن المصلحة هي دافعة .

ولكن إذا نادت مدرسة « يا أيها الناس » فعلى من تستند ؟ .

هذا هو الجانب المهم في المسألة التي سبق أن قلنا إن وجهة نظر أية مدرسة هي التي تعين نوع الذين تخاطبهم ، وهما مسألتان مترابطتان .

الاسلام لا ينظر إلى الانسان هذه النظرة ، أي انه لا يرى وجدان الانسان في قوميته ، ولا في عنصره ، ولا في طبقته ، إنما الاسلام يرى في الانسان (فطرته) « كل مولود يولد على الفطرة » وهذا ما سوف نبحثه في مكانه بالتفصيل .

وعلى ذلك ، وحسب ما تقدم ، فان الله تعالى وهب الانسان في بدء الخليقة وجداناً شريفاً وروحاً ملكوتية « ونفخت فيه من روحي » . وهكذا نجد هذا الوجدان الشريف في مكنون كل انسان عند ولادته ، بصرف النظر عن أبويه .

إن الروح القومية ، والعنصرية ، والطبقية ،

وغيرها ، روح مكتسبة . إنما هذه الفطرة هي التي يتوجه اليها الاسلام بخطابه .

أي إنه يقول : أيها الانسان ، انني أدعوك لأنك انسان . ولم يقل : لأنك من المحرومين ، ولم يقل : لأنك أسود اللون ، الخ . فدعوة الاسلام تستند الى الروح الانسانية ، لا الروح القومية ، ولا العنصرية ، ولا النفعية .

وبعبارة أخرى ، إن الخطاب موجه إلى الانسان الذي ينشد العدالة ، وليس لأن منافعه في العدالة ، بل لأن العدالة من القيم الانسانية .

يستفاد من نصوص القرآن أن أحد أهداف الاسلام الرئيسة هو العدالة . وما من شك في إنه إذا سادت العدالة ، فالمتضررون هم المعتدون والظالمون ، والمنتفعون هم المظلومون . ولكن الفرق كبير بين أن نقول : إن هدف الإسلام هو أن يمنّ على المستضعفين ، وأن يحررهم ، وأن نقول : ان الإسلام انما يخاطب المستضعفين دون غيرهم . ليس الأمر كذلك ، فالاسلام ، وإن حرر المستضعفين ، فانه يوجه خطابه إلى البشر كافة ، بما فيهم أمثال فرعون ، فهؤلاء من الذين يخاطبهم القرآن أيضاً . وذلك لأن القرآن يرى في أعماق كل انسان ، حتى وإن كان فرعوناً ، ذلك

الانسـان الأصيـل الـذي ولـد عـلى الفـطرة . إنـه يقـول : فرعون هذا الذي يحكمكم الآن ، وتـرونه جبـاراً ، ظالمـاً ، بعيـداً عن الانسانيـة ، فيه بقيـة من الفـطرة التي خلقـه الله عليها ، وذلك لأنه انسان . ولذلك ، فان رسل الله ، قبـل أن يحاربوا الفراعنة ، يسعـون أولاً إلى أن يستثيروا الانسـان الكامن فيهم ، لعلهم يرعوون :

﴿ إذْهَبْ إِلَىٰ فِـرْعَوْنَ إِنَّـهُ طَغَىٰ فَقُلْ لَـهُ هَـلْ لَـكَ إلى أَنْ تَزَكّى ، وَأَهْدِيكَ إلىٰ رَبِّكَ فَتَخْشىٰ ﴾[1] .

فيأمر الله مـوسى بالـذهاب إلى فـرعون ، عله يستـطيع إثـارة روح الانسـانيـة فيـه ، فيحــرر الانسان الكــامن في أعمـاقه ، فـان لم يستـطـع ، فليشن عليـه حملتـه . أي إن عليـه ان يشن حملته من الـداخـل أولاً ، ومن الخـارج بعـد ذلك .

رسالة التوحيد :

الجـزء الثاني من هـذه الآية هي أكـثر رسـالات القـرآن أصـالة ، وهي الأسـاس لرسـالاتـه الأخـرى . إنها رسـالـة التـوحيد ، وهي ليست مقصـورة على خـاتم الأنبيـاء ، بـل هي على رأس رسالات جميع الأنبياء .

---

(١) سورة طه ـ آية : ٢٤ .

ينظر القرآن إلى هذا الموضوع بهذا الشكل: إنـه لا يقول للناس: عليكم أولاً أن تعبدوا أحـداً، وثانيـاً أن يكون هـذا الذي تعبدونه هـو الله. كلا، فـالانسان لا يستـطيع العيش بدون عبادة. كل الناس يعبـدون بشكل مـا، وهذه العبـادة جزء من غريزة الانسـان وفطرتـه. أي إن الانسان عـابـد بـالفـطرة يـريـد أن يقـدس شيئـاً، فينـزهـه ويسعى للتقرب إليه.

هـذه الفـطرة مـوجـودة في كـل البشر، بمـا فيهم المـاديون، وهـذا كارل مـاركس يقول: « نـريـد أن نحـرر الانسـان من عبـادة غـير الانسـان، لكي يعبـد الانسـان نفسه ».

فهـذا أيضاً يـلاحظ إن على الانسـان أن يعبـد شيئـاً، ولكنه، يريد أن يكشف للانسان معبوده الحقيقي، على ما يقول.

أما رسالـة القرآن فهي: أيهـا الانسان، اعبـد ربك، الذي خلقك وسواك، ذلك الـذي بيده وجـودك وكيانـك، والذي إذا غفل عن الكون لحظة انقلب عاليه سافله.

﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

سبق لنـا في سورة الفـاتحة أن بحثنـا موضـوع العبادة، وقلنـا إن مفهوم العبـادة في القـرآن مفهـوم واسـع، وعـلى

درجات ، ومن درجاتها العليا السجود أمام المعبود . ولكننا إذا تجاوزنا تلك المرحلة ، نرى ان القرآن يعتبر كل اطاعة عبادة . ومن ذلك قوله ان من يطيع أهواءه فقد عبد نفسه .

﴿ أفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾[1] .

ولعل مصطلح « عبادة الذات » المعروفة في اللغة الفارسية « خُودپَرَستي » قد جاء من القرآن .

وطبيعي إن عبادة النفس لا تعني أن يسجد الانسان لنفسه ، وإنما القصد هو اتباع الهوى وإطاعته .

الشرك والتوحيد :

ينبغي أن نذكر هنا أن الشرك نقيض التوحيد . فالشرك من المشاركة ، كما جاء في القرآن على لسان موسى وهو يطلب من ربه « وأشركه في أمري » أي اجعل هارون شريكاً لي في تبليغ الرسالة .

فلنر إن كان الشرك يعني بالضرورة أن يشرك الانسان إلهاً آخر مع الله ، أي أن يعبد إلهين في آنٍ واحد ، وأنه إذا عبد إلهاً غير الله ، فلا يكون هذا شركاً .

(١) سورة الجاثية ـ آية : ٢٣ .

لقد جاء في القرآن ، على لسان الهدهد مخاطباً سليمان :

﴿ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ . . . ﴾[1] .

هؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس ، ولم يكونوا يعبدون غيرها ، هل هم مشركون ؟ .

الشرك في لغة القرآن لا يعني الثنائية في العقيدة ، بل يعني اتخاذ إله غير الله . فكل المخلوقات ، في منطق القرآن ، تعبد الله . فإذا وضع أحد غير الله في موضع الله ، يكون قد جعل لله شريكاً في العبادة ، على الرغم من أنه لا يعبد سوى إلهه الذي اصطنعه لنفسه . وعلى هذا ، فالذين يعبدون الشمس مشركون أيضاً .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

فيما يتعلق بالتقوى ، بحثنا ذلك في محاضرات سابقة مطبوعة[2] وبصورة مفصلة . ولكننا نورد ما يتعلق بهذه الآية . فالتقوى هنا نتيجة التوحيد ، فكيف هذا ؟ .

---

(١) سورة النمل ـ آية : ٢٢ ـ ٢٥ .

(٢) انظر المحاضرتين ١ و٢ من كتاب « محاضرات في الدين والاجتماع » .

التقـوى من مـادة « وقى » بمعنى الصيـانـة والحـفظ والتـطهر . وقـد سبق أن قلنـا إن للتقـوى ـ حسبـما جـاء في القـرآن وفي الروايـات عن أهل البيت ـ درجـات ومراتب ، مثل الايمان .

كـل عقيدة نـظيفة تحتـاج الى جـو نـظيف . فكـما أننـا عنـدما نبـذر القمـح ، يجب ان نـطهـر الأرض من الآفـات والتلوثـات ، حتى ينمـو الـزرع ، كـذلـك الأفكـار والآراء الصحيحة ، تحتاج إلى روح نقية ونفس سليمة ، حتى تنمـو وتـزدهر . فـإذا دخلت فكرة طـاهـرة نفسـاً غـير طـاهـرة ، وقعت الحرب بينهما إلى أن يستسلم أحد الجانبـين ، فإمـا أن تتطهر النفس ، وإما أن تطرد الفكرة بعيداً .

لقـد جاء في بـداية سـورة البقرة أن القـرآن جاء هـدىً للمتقين . والمقصود بالتقوى هنا هو التقـوى الفطريـة الأولى التي تـولد مـع كل مـولود ، فـإذا حافظ الانسـان على ذلـك المقـدار من التقـوى ، فـإن هـدايـة القـرآن تشمله ، ولكن الذين تلوثوا لن يستمعوا إلى كلام الله .

في هـذه الآية يقول القرآن إذا عبد الانسـان الله ، تزداد روحه قوة ، ونفسه طهارة ، ويزداد تقبله للعقائـد النظيفـة ، وتصدر عنه أعمال طاهرة .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً :

كيف لا يعبد الانسان هذا الله على كثرة مظاهر ربوبيته التي نشاهدها فيما حولنا . فهذه الأرض التي نستريح عليها ، أهي معلولة المصادفات ، أم هي معلولة الربوبية ؟ وهذه السماء التي هي بمثابة السقف ، تتدلى منها القناديل ، وتغمز النجوم فيها ، ترى كيف وجدت ؟ إنكم ترون غيمة تمر في السماء ، ثم تنزل مطراً على الأرض ، فينمو زرعكم ، وينضج ثمركم ، بألوان مختلفة ، فهل يحصل كل هذا ذاتياً ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من عبادة خالق لا يصدر عنه إلّا الخير والرحمة ، لا أن نعبد حجراً لا ينفع ولا يضر ، ولا أن نعبد إنساناً فنكون في أسره .

إن الذي عبادته هي الحرية والتحرر هو (الله) .

بهذا المعنى يقول حافظ الشيرازي :

« لا قدر لحافظ أن يتحرر من تلك الخصلة الجعدة

إذ المقيدون بشباكها هم الناجون »[1]

* * *

(١) خَلاصِ حافِظ اَز انْ زُلْف تابْدارْ

مباد كِه بَسْتِكانِ كَمِنْدِ تُورَسْتِكَار اَنَنْد

﴿ إنْ كُنْتُمْ في رَيْب مِمّا نَزّلنا عَلَىٰ عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقين (٢٣) فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَاتّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرين (٢٤) ﴾ .

﴿ وَإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾

يتناول القرآن في هذه الآيات موضوع الأعجاز ، وكون القرآن معجزة ، داعياً الناس إلى معارضته قائلاً : إذا كنتم ترون هذا الكتاب كأي من كتب البشر ، فتعالوا وهاتوا بكتاب مثله .

في هذه الآية يخاطب القرآن العرب ويطالبهم بمعارضته ، ولكنه في سورة الاسراء يعرض الموضوع بشكل آخر ، فهو لا يخاطب المعاصرين للرسول وحدهم ، سواء من العرب أو العجم ، بل كل الناس على وجه الأرض ، وفي كل الأزمان ، يدعوهم إلى المبارزة ، بل إنه يتجاوز الناس الى الجن ويجعلهم ضمن المخاطبين .

﴿ قُلْ لَئِنْ آجتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ علَىٰ أن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾[1] .

---

(١) سورة الاسراء ـ آية : ٨٨ .

هـذه الآيـة وأمثـالها تبـين حقيقتـين : الأولى هي أن المعجزة موجودة في العالم ، والثانية هي أن القرآن معجزة . وهذان أمران لا ريب فيهما من منظور القرآن .

إنكار معجزة القرآن إنكار للقرآن نفسه :

هنـالك أشخـاص ، نجد نمـاذج لهم في وقتنـا الحـاضر أيضـاً ، لا يـدركـون سر المعجـزة ، مـع أنهم يـريـدون أن يتقلبـوا القرآن بنحـو من الأنحـاء ، ولكنهم ينكـرون كـونـه معجزة ، أو أنهم ينكرون وجـود المعاجـز أصلاً ، ويؤولـون جميـع المعاجـز التي وردت في القـرآن ، مثـل انفـلاق البحـر لـموسى ، وتحـول عصـاه إلى حيـة ، تـأويـلات طبيعيـة ، ويوجهونها توجيهات باردة . وهذا يعني إنكار القرآن ذاته .

يشير القرآن المجيد في كثير من آياته إلى معـاجز الأنبيـاء السـابقين . وفي هـذه الآيـات التي نحن بصـددهـا ، يثبت القرآن أصل وجود المعجزة أولاً ، ويثبت كـذلك أن القـرآن معجـزة إلهيـة . ومـا فتيء القـرآن يـدعـو النـاس من ذوي الحجى والـوجـدان للنـظر والتفكـير . فعلينـا نحـن أن نستجيب ، فنفكـر في المواضيـع الخليقة بـالتدبـر والتعقل ، ومنها موضوع كون القـرآن معجزة ، فنتفهم أسـراره ، وهي من أهم أسرار المعارف الإسـلامية الكبيـرة . ولنبدأ بجـانب من جوانب هذه المعجزة ، وهي لغة القرآن .

لغة القرآن :

المعجــزة من مــادة (عجــز) ، والعجــز يعني عــدم القدرة ، والمعجزة هي مـا يبقى الآخرون عـاجزين أمـامه ، وهي ما لا يستطيع أحد القيام به .

قد يعبر أحيـاناً عن المعجـزة بعبارة (خـارق للعادة) ، ولكن هـذا التعبـير هـو من تلك التفـاسـير التي يقـول بهـا الأشاعرة لمعنى المعجزة ، وهو ليس من المعاني الجديدة .

والحقيقـة إن القـرآن لم يستعمـل كلمـة « معجـزة » ولا عبارة «خارق العادة» ، فكلتاهما من اصطلاحات علماء الاسلام .

كلمــة « معجـزة » شــائعـة الاستعمــال عنـد عمــوم المسلمين ، ولعلها كانت مستعملة منذ أيام الأئمة الأطهار .

ولكن عبـارة (خـارق للعــادة) ليست كتلك ، ولعـل جماعة معينة من المسلمين قد استعملتها ، كالأشاعرة مثلاً ، إذ هم كــانــوا يعتقــدون ان المعجــزة إن هـي إلّا خــرق للعادة .

يختــار القـرآن نفــظة أخـرى ، وهي كلمــة « الآيـة » وهـي تبــدو أكثر ملاءمة من التعبيرين المذكورين .

فلمـاذا يعبر القـرآن عن المعجزة بكلمـة آية ؟ إن الآيـة تعني العـلامة ، أو الـدليل القـاطع . وهـذا الدليـل هو مـا يحتـاجه رجـل يدعي إنـه رسول الله ، وإن الله قـد أرسله ، وإنه يوحى إليه ، وإن على النـاس أن يصدقـوه ، بدليـل إن

مـا ينطبق بـه ليس من كلامـه ، بـل من كـلام الله . فهـل ينبغي على الناس أن يصـدقوه بـلا جدال ؟ هنـالك في هـذه الحالة ثلاثة احتمـالات : الأول هو أن يكـون هذا الشخص صـادقاً في ادعـائه بـأنه رسـول الله ، والثـاني هـو أن يكـون كاذباً دجـالاً ، عالمـاً بكذبـه ودجله ، والثالث هـو أن يكون هو نفسه مخدوعاً ، كأن تنتابـه حالات بـاطنية أو نفسيـة تثير فيـه انفعالات وإحسـاسات تتجسـد في خيـالـه ، فيحسبهـا وحياً ويؤمن بها أيضاً .

هـذا الاحتمال الثـالث كثـير الـوقـوع لبعض النـاس . فهناك أشخاص لم يكذبوا ، ولا يـريدون أن يكـذبوا ولكنهم على صدقهم يتوهمون أشياء ، وتختلط عليهم الأمور .

إن مـا كان يحـدو بكفار قـريش إلى أن يصفوا الـرسول (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) بالمجنـون هـو أنـه كـانت لـه سوابق حسنة بين الناس ، بحيث لـو انهم وصفوه بـالكذاب لمـا صدق ذلـك أحد ، ولـذلـك كـانـوا يعمـدون في دحض دعـوتـه إلى أن يقـولـوا للذين آمنـوا بـه ، إن هـذا الـرجـل صريع الأوهام والخيالات النفسية .

بنـاء على ذلـك ، ينبغي على من يـدعي النبوة أن يثبت ذلك بالدليل القـاطع ، وإذا مـا طالبـه الناس بهـذا الدليـل كـان طلبهم معقولاً ، وإلا فـان قبولهم لـدعوة كهـذه بـدون دليل يعد حماقة .

فالمعجزة هي ذلـك الدليـل القاطـع الذي يثبت ادعـاء النبوة ، وهي لذلك تسمى بالآية أيضاً .

ولزيادة إيضاح هذا المـوضوع ، نبـادر ببحث المواضيـع التالية على التناوب :

١ ـ ما المعجزة ؟ .

٢ ـ هل المعجزة ممكنة ؟ .

٣ ـ هل تقع المعجزة ؟ .

٤ ـ كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها ؟ .

٥ ـ رسول الاسلام والمعجزة .

٦ ـ إعجاز القرآن .

١ ـ ما المعجزة ؟ :

يـرى بعضهم أن القضيـة ليست قضيـة معجـزة ، بـل هي قضية القبول بـوجود الله أو عـدم القبول بـوجوده . أي إنهم يقـولون : إذا نحن قبلنـا بوجـود الله ، فلا حـاجة بنـا إلى الـدخول في قضيـة المعجزة . إذ أن الله الـذي نقبـل بـه مطلق القدرة (وهـو على كـل شيء قديـر) ، فهو قـادر على إحيـاء الميت ، وإحالـة العصا إلى حيـة ، ونقل الـرسول في لحـظة من المسجد الحـرام إلى المـسجـد الأقصى ، بـل والسير به في السماوات .

ولكن الأمر بخلاف هـذا الظن ، وليس بهـذه البساطـة

التي تقول إن القبول بوجود الله يحل جميع المسائل .

ولتوضيح ذلك نقول :

١ - يتصور بعضهم إن المعجزة هي وقوع أمر بغير سبب . إلا أن هذا التعريف بعيد عن الصحة كثيراً ، ولعل الماديين والذين ينكرون المعجزة هم الذين عزفوا على هذه النغمة أولاً ، ومن ثم شاعت على الألسن .

وذلك لأن الذين يؤيدون المعجزة يريدون منها أن تكون دليلاً على شيء ، فإذا حصلت المعجزة بدون علة ، فلن تكون ذات دلالة على أمر أبداً .

ولنفرض فرض المستحيل أن أمراً قد وقع بدون علة ، عندئذ لا يمكن إثبات أي شيء في العالم ، ولن يبقى أي قانون علمي أو طبيعي ، ولا شيء من الفلسفة وعلم الكلام ، بل سوف يتزلزل حتى بحث إثبات وجود الله .

فنحن نعرف الله بكونه علة العالم ، فاذا افترضنا أن ليس للعالم نظام ، وأن الشيء يمكن أن يحصل بدون علة ، فلن نستطيع رد قول القائلين بأن العالم قد تكوّن بطريق المصادفة وبدون علة ، لذلك فهذا الحديث لا يصلح للمعجزة البتة[١] .

---

(١) لقد بحثنا هذا الموضوع بحثاً مسهباً في كتاب (العدل =

٢ ـ وقد يقول آخـرون إن المعجزة لا تعني حـدوث أمر بغـير سبب ، إنها ليست شذوذاً عن قـانون العلّيـة ، ولكنها بدلاً من أن تكون لهـا علة واقعية ، تكـون لها علة بـديلة ، أي إن المعجزة هي استبـدال علة بأخرى .

فمثـلاً ، العلة الواقعيـة لظهـور الانسان هي الامتـزاج بـين الذكـر والأنثى . فـاذا أزيحت هـذه العلة الحقيقـة وأتي بعلة أخـرى بمكانها ، فـظهر انسـان بغير امتـزاج بين الـذكر والأنثى ، فتلك هي المعجزة .

هذا القول نـاشيء أيضـاً عن عدم الاطلاع على العلوم

= الالهي) ، وقلنا انه لباطل أن يظن أحد أننـا إنما نقـوم بالأعمـال عن طـريق العلة والمعلول ، أو السـبـب والمسبب ، لـكـونـنـا عاجزين ، وإن الله لكونه قادراً على كـل شيء فلا حـاجة لـه إلى العلة والمعلول .

كـلا ، ليس الأمر كـذلك ، فقـد ثبت عنـد الحكـماء أن قـدسيـة ذات الله وكمـالـه تقتضي أن تجـري الأعمـال ضمن نـظام العلة والمعلول ، وبعبـارة أخـرى نـظام العلة والمعلول هـو نـظام فعـل الله .

هناك عدد من الآيـات في القرآن الكـريم تخص هذا المـوضوع ، يتضـح فيها ان الله ، عن طـريق الأسباب ، يحقق أوامـر ، سواء أكـانت أسبابـاً طبيعيـة ، مثـل نـزول المـطر ، ونمـو النبـاتـات ، وأمثالها أم أسباباً غـير طبيعية ممـا وراء الطبيعـة ، مثل المـلائكة ، وجنود الله غير المرئيين .

العقلية ، وذلك إننا إذا قبلنا بمبدأ العلة والمعلول ، وأنه هو السائد في العالم ، فلا يمكن نقضه أو تغييره وتبديله ، إذ إنه ليس عقداً تعاقدياً ، إنما هو حقيقة واقعية لا تخلف فيها .

ففي الطبيعة إذا كان (أ) علة وجود (ب) ، فهناك بين (أ و ب) رابط واقعي وحقيقي ، بحيث إن أياً منهما ليست له رابطة مماثلة مع طرف ثالث ، وليس لأي منهما وجود بغير الآخر . الخلاصة إن العلة الحقيقة لأمر ما هي علة واحدة فقط . والأمر الواحد لا يمكن أن يرتبط برابط العلية والمعلولية بشيئين اثنين .

لذلك ، في المثال السابق ، لا يمكن أن يكون (ج) بمكان (أ) ، ولا أن يصبح (د) معلولاً (أ) بدلاً من (ب)[1] .

٣ ـ هنالك بإزاء هذين التعريفين تعريف ثالث للمعجزة ، يجيب على جميع الإعتراضات العقلية السابقة ، وهو أن نقول : إن المعجزة لا تلغي قانون العلة

(١) اما عن نوع الرباط بين العلة والمعلول ، ولماذا لا يمكن الحصول من علة واحدة على أكثر من معلول واحد ولا أن يكون الشيء معلولاً لعلتين ، فقد ورد تفصيل ذلك في الحاق المجلد الثالث من كتاب (اصول الفلسفة) .

والمعلول ، ولا هي تنقضه ، ولا هي استثناء منه . بل هي خرق لقوانين الطبيعة .

هنا لك فرق بين خرق قانون العلة والمعلول ، وخرق قوانين الطبيعة . فالمعجزة لا تعني حدوث أمر عن غير طريق العلة والمعلول الأصلي ، إنما المعجزة هي التي تحدث بخلاف المسير العادي والجريان الطبيعي للأمور .

وبعبارة أوضح :

المعجزة خروج أمر عن المجرى العادي إلى الحد الذي يظهر فيه تدخل ما وراء الطبيعة ظهوراً واضحاً .

ففي هذه الحالة لا تكون علة قدأخذت مكان أخرى ، إذ إن الرابط بين العلة والمعلول ، وهو رابط أصيل ، موجود ومقبول . أما المعجزة فيمكن توجيهها هكذا :

إن العلل الواقعية للأشياء ، والتي يريد الانسان أن يصل اليها عن طريق التجربة والعلم ، ما زالت مجهولة ، والله وحده يعلم العلل الحقيقة للأشياء ، والانسان انما يصل بتجاربه واختباراته الى سلسلة من المقارنات والعلاقات فقط ، ويحسب أنها هي العلاقات العليّة .

وعلى ذلك فالمعجزة هي ما يحدث عن غير الطريق المألوف الذي يظن الناس إنه يحدث به عادة . وسوف نوضح هذا مرة أخرى .

٢ ـ هل المعجزة ممكنة ؟ :

لقد اتضح جواب هذا السؤال إلى حدٍ ما في الفصل السابق ، حيث قلنا إن إمكان حدوث المعجزة أو استحالتها يرتبطان بتعريف المعجزة وكيفية تناولنا لها .

فإذا قلنا إن المعجزة هي ما يحدث بدون علة ، فتكون عندئذٍ مستحيلة بالبداهة . كذلك الأمر إذا قلنا إن المعجزة نقض قانون العلية ، أي تبادل الأمكنة بين العلل .

أما إذا نظرنا إلى الأمر من خلال التعريف الثالث ، أي أنها خروج الطبيعة عن مجراها العادي ، عندئذٍ تكون المعجزة ممكنة ، وليست مستحيلة . وعلينا هنا أن نستزيد شيئاً من التوضيح .

يورد « هيكَل » ، الفيلسوف الألماني المعروف ، بعض المباديء التي يبني عليها مسائل كثيرة من فلسفته .

يقول : هنالك سلسلة من المسائل تعتبر من الضرورات العقلية ، ولا يجوز خلافها ، أي إنها لا نقيض لها . مثل المسائل الرياضية التي يسميها « القضايا التحليلية » .

تقول في الرياضيات إن مجموع زوايا المثلث ١٨٠ درجة أو قائمتان . هذا الحكم من أحكام العقل الضرورية ، أي إذا استطاع العقل أن يدرك ما هو

المثلث ، فهو يدرك فوراً بأن الضرورة تقتضي بأن يكون مجموع زواياه ١٨٠ درجة ،ويستحيل أن يكون غير ذلك ، حتى بجزء من الدرجة .

والقضايا التي تعتبر في الفلسفة والمنطق من القضايا الضرورية تشبه هذه، مثل اجتماع النقيضين وارتفاع النقيضين .

إلا أن هناك مسائل أخرى هي مسائل تجريبية ، أي المسائل التي لا يدرك فيها العقل أية ضرورة وإنما تقول إنها هكذا لأننا وجدناها هكذا .

والمثال الذي يضربه « هيكَل » للمسائل التجريبية هو قوله : إننا بحسب تجاربنا الكثيرة لاحظنا أن الماء يتحول إلى بخار في درجة حرارة ١٠٠ ، ونطلق على هذا اسم « العلة » فنقول إن الحرارة هي « علة » تبخر الماء . وإذا رأينا الماء يتجمد في برودة تحت الصفر ، نقول إن البرودة هي « علة » تجمد الماء .

يقول « هيكَل » إن أياً من هذين ليس ضرورة عقلية ، إنما نحن وجدنا الأمر هكذا فحكمنا به هكذا ، ولو أننا منذ ولادتنا كنا قد رأينا خلاف ذلك ، أي إذا رأينا أن الحرارة هي التي تجمد الماء ، وأن البرودة تحيله إلى بخار ، لما قام في عقلنا أي اعتراض . أي إن الانجماد

بسبب البـرودة ، والتبخر بسبب الحـرارة ، ليستا ممـا يوجب العقل ضرورتها ، بل هما من القضايـا الوجـودية الصـرف . فهي مـوجـودة في العـالم هكـذا ، وليس خـلافهـا ضـروري أيضاً . :

هـذا القول ، إلى هـذا الحد قـول معقول ، وهـو يشبه مـا توصـل إليه ابن سينـا وأمثالـه الذين كـانوا يتسـاءلون : مـاذا بشأن العلوم الـطبيعية التي تستنـد دائماً إلى التجـربة ، والتجربة لا تؤدي إلى القول بضرورتهـا ؟ وكيف ننظر ، من هـذا المنظور ، إلى العلوم الـطبيعية وقـوانينهـا ؟ فهـل يمكن درج قـوانـين التجـربـة تحت قـانـون العـلة والمعـلول الفلسفي ؟ .

يقـولون إنـه في الموارد التي تكشف فيهـا التجـربـة عن عـلاقـة مـا ، مثـل الحـرارة التي تكـون سبب تبخـر المـاء والبـرودة التي تكون سبب انجمـاد المـاء ، لا بـد أن تكـون هنـاك (علة) حقيقيـة لهـذا ، وأن تلك العلة الحقيقـة لا يمكن أن تتـرك مكانها لعلة أخـرى . ولكن القول بـأن العلة هي ما نحسه بحـواسنا في التجـربة ويكشفـه لنا الاختبـار ، فأمر مشكوك فيه . ولهذا نجد ، ان العلوم التجـريبية تتغـير كل يوم ، فينسخ قانون قانوناً قبله ، ويقوم مقامه .

فمثـلاً عنـدمـا اكتشف الانسـان ان الحجـر يسقط إلى

الأرض إذا رمي من أعلى ، قالوا إن في الحجر قوة جاذبة تميل إلى الإقتراب من مركز الأرض .

وكان هذا حكماً أصدروه على اثر القيام بتجارب كثيرة ، واتفقوا عليه . ولكن على اثر مجيء (نيوتن) تغير الحال ، وقالوا : لا ، ليس الحجر هو الذي يميل إلى الاقتراب من مركز الأرض ، بل إن قوة الجاذبية في الأرض هي التي تجذب الحجر اليها .

ومن ثم ظهرت النظرية النسبية ، وأعيد النظر في النظرية السابقة .

فالشيء الثابت من كل ذلك هو إن الحوادث لا تحدث بدون علة ، ولكن ترى هل يكتشف العلم تلك العلل أم لا ؟ وهل إننا بمجرد أن نكتشف علاقة ما ، يصح أن نقول إننا قد اكتشفنا العلة ؟ كلا ، هذا غير صحيح ، فهذه ليست العلل الحقيقة ، فلا الحرارة علة التبخر ، ولا البرودة علة الانجماد ، ولا الجاذبية علة سقوط الحجر ، فهذه العلائق كثيراً ما تتبدل .

هنا يتضح بجلاء الفرق بين (ناموس الطبيعة) وقانون العلة والمعلول . فمن حيث الناموس الطبيعي نجد إن كل حالات الولادة الانسانية لها طريق واحد فقط ، فلا بد من الذكر والانثى ، ولا بد من انعقاد النطفة ، حتى

يكون الانسان . ولكن هل قانـون العلة الأصيل هـو الحاكم هنا ؟ هل غير هذا مستحيـل ؟ أفلا يمكن أن تتـولد في وقت ما في رحم المرأة خلية ذات استعداد خـاص ، فتجمع بـين عمل بويضة المرأة وعمل حيمن الرجل ؟ .

والعقل لا ينكر هذا ، إنما يقول : هذا مـا وجدنـاه وما نـراه ، ولكن قـد يحـدث بشكـل آخـر لا نعـرف سـره حتى الآن ، كأن بويضة المرأة حيمن الذكورة . فـإذا حصل هـذا فـإن قـانــون العليّـة لا ينتقض ، بــل الـذي ينتقض هــو الأساس الطبيعي . وهذا هو المعجزة .

فالمعجزة ، إذن خرق لنواميس الـطبيعة ، وهي ، بهـذا المعنى ، ممكنة الحدوث .

نعود إلى « هيكَل » مـرة أخرى . إذا ادعى أحـد النبوة وقـال ان معجـزتـه هي أنـه يستـطيـع رسم مثلث مجمــوع زاويــة ١٩٠° درجـة ، فيجب تكـذيبـه فـوراً ، لأن هـذا مستحيل الأدعاء نفسه دليل على كذب المدعي .

أو قد يزعم مدعي النبوة إنـه قادر عـلى احداث حـدث بـدون علة ، فيكـون كـاذبـاً أيضـاً ، لأن ذلـك ينـاقض الضرورة العقلية .

ولكن إذا ادعى أحـد إنه يستـطيع أن يخـرق النـواميس الطبيعية كتلك الأعمـال التي يقول عنهـا « هيكَل » إننـا لا

نملك دليلاً عليها ، وإنما وجدناها هكذا دائماً ، فانّنا نتقبل ذلك .

وبعبارة أخرى ، إن القوانين العقلية مطلقة ، غير مشروطة ، أي ليس فيها « إذا » . ولكن القوانين الطبيعية مشروطة ، أي عندما نقول إن مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين ، فلا يصح أن نضيف : إذا لم يحل دون ذلك مانع . ولكن في القوانين الطبيعية نستطيع أن نقول إن قانون الجاذبية يقضي بأن يجذب الجسم الكبير جسماً أصغر منه ، إذا لم يحل مانع دون ذلك ، أي إذا أنت وضعت يدك لتحول دون سقوط الجسم ، فإن قانون الجاذبية يتوقف عن العمل .

يتضح من ذلك إن اكتشاف العلل الحقيقية ليس في طاقة البشر ، فهي خافية عليه ، وإن كل الذي يستطيع أن يتوصل البشر إلى معرفته هو سلسلة من العلائق فحسب . إن الله وحده هو العليم بتلك العلل .

جاء في سورة « الطلاق » : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، أي لا حاجة له بأي علة من العلل الظاهرة . ثم يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ .

ولكنه ، لكي لا يظن الناس أن ليس في نظام العالم علة ومعلول ، وان الله قد يقوم أحياناً بأعمال على خلاف

نظرية العلية ، يقول ﴿ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيءٍ قَدَراً ﴾ أي إنه وضع لكل شيء حداً أو مقداراً وعلاقة ، ولكنها علاقة يعلمها الله وحده .

أما كون الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، بحيث لا يرى البشر لها سبباً من الأسباب التي يعرفها ، فلأن هذه هي الظواهر ، وليست العلل الحقيقية ، فهذه علمها عند الله وحده .

وإذا أراد الله فانه يكشف لبعض الناس عن أسرار العلة والمعلول ، وإذا ما تلقى أحد هذه الأسرار من الله ، يكون بمقدوره أن يتصرف في أعمال العالم كما يشاء ، بغير أن يتدخل في نظام العلة والمعلول .

وهذا هو معنى الحديث الذي جاء فيه أن العبد قد يقترب من ربه إلى الحد الذي يكون الله عيناً له يبصر بها ، وأذناً يسمع بها ، ويداً يعمل بها .

٣ ـ هل تقع المعجزة ؟ :

جواب هذا السؤال سهل يسير ، فإننا بعد معرفتنا أن المعجزة ليست خرقاً لنظام العلة والمعلول نجد الكثير من حوادث خرق نواميس الطبيعة قد وقعت ، وتقع .

ينقل عن ابن سينا أنه قال : إذا سمعت أن (عارفاً)

من الناس قد بقي شهراً دون طعام ولم يمت ، فلا يأخذك العجب . فهو قد عمل بخلاف قانون الطبيعة ، وليس بخلاف الوجود الكلي . فإن القول بانه إذا لم يأكل الانسان مدة ثمانٍ وأربعين ساعة ، مات ، قول صحيح ، لأن عملية هضم الطعام المألوفة تقتضي أن يصل إلى المعدة طعام خلال تلك المدة .

إلا أن بعض الناس يستطيع ، بتقوية إرادته ، أن يسخر جسمه بحيث إنه يستطيع أن يسيطر حتى على حركة قلبه ، وأن يكون تنفسه على وفق ارادته ، وأن يتحكم في هضم الطعام وفي فعاليات معدته .

هنالك نماذج عديدة لأمثال هؤلاء الناس بين مرتاضين ، ومنهم من كان يستطيع أن يحبس انفاسه مدة طويلة ، فلا يتنفس ، مع ان الافراد العاديين قد لا يستطيعون ذلك حتى لدقيقة واحدة .

هذا ينتج من تقوية الروح وترويضها ، أي إننا نقوي الروح بحيث تصبح هي المسيطرة على فعاليات الجسم .

يقال ان بعض الزعماء الروس الذين زاروا الهند في وقت ما ، أثارت أعمال من هذا القبيل حيرتهم ودهشتهم ، بحيث أنهم عندما عادوا إلى بلدهم طلبوا أن تدرس هذه الأمور في جامعاتهم ، وكأنها علم من العلوم .

لقد رأى هؤلاء ، من بين ما رأوا ، إن رجلاً قد أدخل في تابوت ، ودفن في قبر بدون ان يكون هناك منفذ للهواء وللتنفس . ثم بعد أن أخرجوه بعد مدة ، أخذ يتنفس كالعادة ، وكان واضحاً انه عند دفنه قد قطع تنفسه باختياره .

على كل حال ، أمثال هذه الأعمال كثيرة ، وعمادها تقوية الارادة عن طريق التمرين ، وبعضها غير شرعي .

وعلى ذلك ، فان المعجزة ، كما قلنا ، عمل يجري على خلاف القوانين الطبيعية ، مع ملاحظة أن الأنبياء كانوا يتمتعون بعناية الله ، ويمثلون النماذج للإنسان الكامل ، وللروح القوية ، وللارادة المتينة . فتعليل المعجزة ليس من الأمور الصعبة .

٤ ـ كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها ؟ :

يقول المناطقة إن هناك ثلاثة انواع من الأدلة :

١ ـ الدليل الوضعي .
٢ ـ الدليل الطبيعي .
٣ ـ الدليل العقلي .

الدليل الوضعي :

وهو أن نضع علامة لتدل على شيء معين بحيث لو

اختلف الشيء لـوجب اختلاف الـدلالة ، كـدلالـة الألفـاظ عـلى المعـاني ، فلفـظة (الخبـز) وضعت لتـدل عـلى هـذا الطعام المعروف ، والماء لهذا الذي نشـربه ، ولـو كان الأمـر معكوساً ، أي لو وضع الخبز لما نشـربه ، والمـاء لما نـأكله ، لما اختلف الأمر ، ولما حصل التباس ، أي ليست هناك أية رابـطة ذاتيـة بـين الاسم والمسمـى في أي من المثـالـين المذكورين .

ومثـال آخر إشـارات المرور ، فقـد تـواضعـوا عـلى أن يكـون الضـوء الأخضر إشـارة للعبـور الحـر ، وهـذا دليـل وضعي ، فلو كـانوا قـد تـواضعـوا عـلى أن يكـون الأخضر علامة الوقوف لدلّ على ذلك أيضاً .

فهـل دلالة المعجـزة على صـدق النبـوة كتلك أيضاً ؟ هـل تواضـع الله مع النـاس من قبـل عـلى أنهم إذا رأوا من أحدٍ أعمالاً معينة عليهم أن يعلموا أنـه مرسـل من الله وأنه يصدقهم القول ؟ .

ليس الأمـر كـذلـك ، لأن مـا يـريـد الله ايصـالـه الى النـاس يرسله بـوساطـة أنبيائـه ، ونحن الآن بصدد اثبـات الأنبياء أنفسهم .

الدليل الطبيعي :

وهي الـدلالة التجـريبية ، كـأن يـدل السعـال عـلى ألم

الصدر ، أو تدل سرعة النبض على الحمى . هذه علائم طبيعية عرفت بالتجربة .

لا شك إن المعجزة ليست من هذه الدلالات ، إذ أنها ليست ضمن تجارب البشر .

الدليل العقلي :

وهو الدليل الاستدلالي ، مثل دلالة المعلول على العلة . عندما يلاحظ العقل حدوث الحدث ، يعرف إنه يستحيل حدوثه بدون علة ، فيحاول معرفة علة ذلك المعلول . وهذا ما يحتاج إلى الوضع أو التجربة .

دليل المعجزة من هذا النوع ، ولتوضيح ذلك نقول :

هنالك طريقتان لتبيان دلالة المعجزة . يقول أصحاب علم الكلام إن المعجزة نوع من الأدلة العقلية ، بصورة عملية ، كأن يدرك العقل رضا شخص ما من سلوكه ، أو أنه يستشف رضاه من سكوته . ومن هذا القبيل اعتبار تقرير العصمة حجة ، كما جاء في الفقه ، أي إذا كان المعصوم يقرر طريقة الوضوء أو يتوضأ عملياً ليتعلم الآخرون ، فذلك في نظرنا حجة ، وكذلك إذا توضأ أحد أمام المعصوم ولم يعترض عليه ، فندرك بالدليل العقلي على ان طريقة الوضوء هي تلك ، مستدلين على ذلك بأنه لو لم يكن كذلك لاعترض المعصوم ، وبما انه لم يعترض ، فلا

شك إن طريقة الوضوء صحيحة في نظره . فإذا سأل احد لماذا يعترض المعصوم إذا لم تكن الطريقة صحيحة ؟ نقول ، إذن لكان سكوته إغراءً بالجهل ، أي إنه يحمل الناس على الجهل بطريقة الوضوء الصحيحة ، وهذا عمل قبيح غير مقبول ، والمعصوم لا يرتكب مثل هذا العمل .

وهؤلاء يقولون إن دلالة المعجزة على النبوة تعتبر من هذا القبيل ، وذلك حينما يأتي شخص ويقول : أيها الناس ، أنا رسول الله إليكم (مع العلم بأن الله عارف بكل أعمال البشر) ، يكون هذا الزعم قد أعلن في حضور الله ، فعندما يقوم بأعمال خارقة للعادة ، سواء أنسبها إلى نفسه أم إلى الله ، تكون هذه حتماً دليلاً على صدقه ، إذ لو كان كاذباً لكان على الله أن يحول دون حدوث المعجزة ، فلو تركها تحدث لكأنه أيد الكاذب ، وأغرى الناس بالجهل .

كان هذا ملخص ما يورده المتكلمون بخصوص المعجزة .

إلا أن هناك عدداً من العلماء يعتقدون بأن المتكلمين لم يدركوا حقيقة المعجزة لكونهم حسبوها عملاً يحققه الله مباشرة على يد النبي ، بدون أن يتدخل النبي في اجراءاتها ، وأنه لم يكن سوى الواجهة الظاهرية ، وأن الله

هو الذي يقوم بالمعجزة على يد النبي ، كأن يجلس عيسى عند الميت ، ولكن الله هو الذي يحييه ، أي ليس لعيسى أي دور في إحيائه ، إنما هو مجرد وسيلة . أي إن العمل عمل الله بصورة مباشرة ، وكما إننا ، أنا وأنت ، لم يكن لنا أي تأثير في تحقيق المعجزة ، كذلك ليس للأنبياء يد في تحقيقها .

كلا ، ليس الأمر كذلك ، بل هو أرفع من ذلك بكثير . إن بين المعجزة وصاحبها علاقة واقعية بحيث لا يمكن حدوثها على يد شخص آخر .

المعجزة إعلان عن الكمال الروحي والمعنوي الذي بلغه « ولي » الله . عندما يحقق ولي الله اعجازاً ، تكون قواه البشرية في اتصال بقوى الله ، أي إن الله يمنحه إرادة وقدرة فوق ما للبشر .

يتضح مما سبق ذكره ، إنه بسبب قيام ولي الله باطاعة الله اطاعة كاملة وبسبب الرياضيات العملية التي يقوم بها ، يبلغ مرحلة تكون له فيه ارادة من القوة بحيث انها تقهر الطبيعة . وبعبارة أخرى ، يستطيع البشر في ظل الطاعة والعبادة ، أن يبلغ من الله قرباً يصبح معه نموذجاً لله في الأرض .

وعليه ، فإن قيام أولياء الله بأعمال خارقة للطبيعة

يكون من عمله أنفسهم ، إنما بطاقة تفوق طاقة البشر .

وهذا نفسه قد ورد على لسان علي بن ابي طالب ، إذ أنه عندما اقتلع باب خيبر بمفرده ، الباب الذي كان يجد أربعون أو خمسون رجلاً صعوبة في زحزحته ، وقذف به بعيداً ، قال :

« والله ما قلَعتُ بابَ خَيْبر بِقوةٍ جَسَدانية ، بَلْ بِقُوةٍ إلهية » .

أي إن ساعدي البشريتين ما كانتا قادرتين على ذلك ، إنما أعانتهما على ذلك قوة إلهية ، بحيث لو كان الباب أثقل من ذلك عشر مرات لكان قادراً على اقتلاعه .

إذن يقول علي (عليه السلام) : قلعت . أي إنه هو الذي قلع الباب ، لا أنه أمسك بالباب ، فاقتلعه الله وقذف به بعيداً . إنه قلع الباب ولكن بالقوة التي وهبها الله له . فالمعجزة تعني ، إذن ، انه إذا أحيا عيسى الموتى ، فإنه لم يحيهم بقوته البشرية ، ولا الله أحياها مباشرة بدون تدخّل الانسان ، وانما عيسى أحياها بقوة ربّانية .

يتضح من ذلك إن دلالة المعجزة على صدق النبوة دلالة عقلية ، ولكن ليست كتلك الدلالة العقلية التي يقول بها المتكلمون ، بل دلالة عقلية منطقية مئة بالمئة .

٥ ـ رسول الاسلام والمعجزة :

اعترض بعض المستشرقين ورجال الدين المسيحيين على القرآن وعلى الرسول ، في معرض طرحهم موضوعاً ، تابعهم فيه بعض الكتاب المسلمين بشكل آخر ، فأيدوا مزاعمهم وقبلوها . ذلك الموضوع هو معاجز رسول الاسلام .

طرح المسيحيون الموضوع هكذا : ويستنبط من القرآن أن النبي كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة إذا ما طالبوه بها ، وفي القرآن ما يدل دلالة صريحة على ذلك ، حتى إنه ينكر ذلك أشد الانكار . ثم يستشهدون على ذلك بايراد بعض الآيات ، التي سوف نوردها فيما بعد .

أما بعض الكتاب المسلمين المحدثين فقد عرضوا للموضوع هكذا :

ترتبط المعجزة من حيث الأساس بأدوار طفولية البشر ، أي الأدوار التي كان البشر ما يزال في مرحلة التوحش ، لم يصل بعد إلى مرحلة العلم والعقل والمنطق . ولذلك لما لم يكن بالامكان عرض المسائل على الناس بطريق العلم والمنطق ، كان على الأنبياء أن يأتوا بالمعجزات .

وبعبارة أخرى ، كان الانسان طفلاً ، والطفل لا

يفهم كلام المنطق والاستدلال ، على حد قول الشاعر :

«إذا اضطررت للتعامل مع الطفل
فعليك أن تنطق بلسان الطفولة »[1]

فالمعجزة لغة الطفولة للأطفال ، أي إنسان العصور السحيقة . ولكن ما إن بلغ البشر مرحلة البلوغ الفكري التي يمكن فيها أن تخاطبه بلغة العلم والمنطق والاستدلال ، حتى لم تعد ثمة حاجة الى المعجزة . بل يتقبل البشر قول الرسول المبعوث الذي يضع الخطط والقوانين الاصلاحية والتقدم بالانسان نحو التكامل ويؤمن به بلا تردد .

إن اختلاف رسول الاسلام عن الرسل الذين أتوا قبله ، هو إن ظهوره اقترن تاريخياً بمرحلة تحول البشر من التوحش الى التفكر .

وفي ذلك يقول إقبال اللاهوري : ان رسول الاسلام يقع ضمن مقطع تاريخي يرتبط ماضيه بمرحلة طفولة البشر وتوحشه ، ويرتبط مستقبله بمرحلة العلم والمنطق .

وعلى هذا ، يختلف الوحي الذي نزل على نبينا في آخر الزمان عن الوحي الذي نزل على سابقيه ، بل إنما جاء رسولنا ليحمل الناس إلى مرحلة العقل والمنطقة .

(١) چُونكِه با كُودَك سَرُو كارَتْ فِتادْ
پَسْ زبانِ كُودَكى بايَدْ گُشادْ

ويستطرد إقبال اللاهوري ، فيقول : إن الرسول ينتمي ، من حيث منشأ عمله - وهو الوحي - الى مرحلة سابقة ، ومن حيث روح رسالته - وهي الدعوة الى العقل والمنطق والعلم والتجربة والاختبار والاعتبار بالتاريخ - الى المستقبل .

وهذه ، في نظر اقبال هي فلسفة اختتام النبوة بالرسول ، أي إن ذكر الماضي يؤدي إلى نتيجتين اثنتين : الأولى اختتام النبوة ، والثانية الاستغناء عن المعجزة . أي بمجيء رسالة هي خاتمة الرسالات ، لن تكون الظروف بعد ذلك مهيأة لنبوة أخرى ، ولن تكون حاجة الى المعجزة ، لأن المعجزة تتعلق بالمراحل السابقة .

هذا هو الطرح الذي يراه اقبال ، وقد تبعه في ذلك بعض الكتاب المسلمين .

إننا الآن لسنا في مقام بحث هذا الموضوع بحثاً مسهباً ، ولكننا نقول قولاً مجملاً ، وهو إن هؤلاء ، في هذه الفلسفة التي يوردونها عن اختتام النبوة يقعون في خطأ جسيم .

طبعاً لا أقصد أن أقول ان اقبال ينكر انتهاء النبوة (حسبما ظنه بعضهم) . بالعكس ، فاقبال يقبل بختم النبوة ، انما توجيهه لهذا الأمر غير صحيح .

إن الفلسفة التي يذكرها تؤدي إلى نتيجة هي عكس ما يريد اثباته تماماً ، وذلك لأننا إذا اعتبرنا توجيهاته صحيحة ، لكانت النتيجة « ختم الدين » لا « ختم النبوة » .

إننا الآن لسنا بصدد هذا ، بل نحن نبحث في المعجزة . إن أقوال الكتاب المذكورين تشير إلى مسألتين : المسألة الأولى تقول ان مرحلة البلوغ الفكري لاتتطلب المعجزة . والمسألة الثانية هي ان الاسلام يمتنع عن الاتيان بأية معجزة ، كما ورد في عدد من آيات القرآن . فلا بد من بحث هذين الموضوعين .

أما فيما يتعلق بموضوع انتفاء الحاجة إلى المعجزة في مرحل البلوغ الفكري عند البشر ، فإنه غير صحيح ، وذلك لأن القرآن ، كما قلنا من قبل ، يستعمل تعبير « آية » ولا يستعمل تعبير « معجزة » .

فالآية هي الدليل ، والدليل يعني هنا إن ما يقوله هذا الشخص ليس من عنده ، إنما هو من عند الله .

قد يستعمل نبي كلاماً منطقياً ، كلاماً يمكن إثباته بما يثبتون به المسائل العلمية كالبرهان والتجربة والاختبار . فيكون هذا في هذه الحالة ، مجرد حكيم أو عالم كبير ، ولكن ثمة فرق كبير بين الحكيم العالم الفيلسوف والنبي .

فكـلام الحكيم الفيلسـوف يقـع في مستـوى كـلام البشر ، ولكن الرسول يريد أن يقول شيئاً أكثر من هذا .

فبالاضافة الى أن كلام الرسل منـطقي وعقلاني ، فـان لهم كـلاماً آخـر ، وهو إن هـذا الكلام ليس كـلامهم ، إنما هو قد بلّغ إليهم ، وهم يبلغونه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ .

أي إن هـذا الـذي أقـولـه مـا كـان بسبب إني أمضيت الليل أفكر فيه لأن لي دماغـاً أكبر من الأدمغـة ، كلا ، بـل هو كلام الله قد أوحي إلي .

﴿ نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِنَ المُنْذِرِينَ ﴾ .

إن لي لسـانـاً واحـداً وهـو متـوجـه نحـوكم ، ولكن لـروحي في البـاطن اتصال بمكـان آخـر ، ومن هنـاك يـأتيني البلاغ ، فأبلغكم به .

إنني ، أصـلاً ، رسول ، أحمـل رسالـة الله إليكم ، لا كلامي أنا . والموضوع كله يدور حول حمـل الرسـالة . فـأنا رسول نبي ، أحمل اليكم رسالة من غيري .

إذا فـرضنا إن السيـد سقراط قـال يومـاً إن لـه فلسفـة كهذه في الأخلاق . فاذا وجدنا كلامه منطقياً ، قبلناه .

ولكن إذا قال سقراط إن كلامه ليس من عنده ، بل من عند الله ، وإنه مجرد حامل لكلام الله الينا ، عندئذ نقول له : عليك أن تثبت لنا هذا ، فعلى الرغم من أن كلامك منطقي ، لكنه لا يكون دليلاً على إنه من عند الله ، فكون الكلام منطقياً شيء ، وكونه ليس للقائل ، بل من كلام الله ، وان اطاعته تنيل الثواب ، والكفر به كفر بالله ، شيء آخر .

كثيرون هم الذين يتكلمون كلاماً منطقياً ، ولكننا إن لم نطعهم فلا بأس علينا . ولكن الذي يقول هذا ليس كلامي ، بل هو كلام الله ، فإن لم نطعه نكون قد تمردنا على الله ، وإن أطعناه نكون قد عبدنا الله .

وعليه ، يصح القول بأن الرسول يستطيع ، في مرحلة البلوغ الفكري ، أن يثبت أقواله بالدليل المنطقي ، كأن يقول : أيها الناس فكروا واعقلوا ، وادركوا صحة أقوالي . ولكن صحة اقواله شيء وكونها من عند الله شيء آخر .

قد يأتي نبي الاسلام فيقول : لا تشربوا الخمر ، فالخمرة تضركم ، إنها رجس وشر . ثم يقول : حسن ، أنتم تريدون الدليل الآن . أنظروا إلى الذين اعتادوا على شرب الخمر أزماناً طويلة ، لتروا ماذا يحدث لهم ،

ولأعصابهم ، ولجهازهم الهضمي ، ولأكبادهم . إذهبوا وجربوا أولئك الذين يشربون الخمر ويسكرون ، كم يسببون للمجتمع من مصائب ، ولا تجربة خير من هذه . فالاحصائيات عن الجرائم الناشئة عن تعاطي الخمور دليل على شرورها .

فالناس الذين يلتزمون العقل والمنطق ، يفهمون جيداً إن هذا الطلب منطقي ، فلا ينبغي لهم أن يقربوا الخمر .

ولكن القول ، مرة أخرى ، بان هذا بلاغ من الله ، يكون شيئاً آخر . لذلك فاننا ، في مرحلة البلوغ ، حتى لو أدركنا صحة جميع أقوال الرسول بالبراهين العلمية والعقلية ، فاننا ، في موضع تصديق نبوته ، نحتاج الى المعجزة .

إلى هنا كان البحث يتعلق بالطرح الأول . ونأتي الآن إلى الطرح الثاني ، القائل بأن الرسول ، بشهادة القرآن ، كان يمتنع عن القيام بمعجزة ، وإنه لذلك لم تكن له معجزة . ويستشهد هؤلاء بآيات عديدة ، أوضحها ما جاء في سورة الاسراء :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ

عَلَيْنا كِسَفاً ، أوْ تَـأْتِي بالله وَٱلمَـلائِكَةِ قَبِيـلاً أوْ يَكُونُ لَـكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْـرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى في السَّمَـاءِ وَلَن نُؤمِنَ لِرُقِيِّـكَ حَتّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنا كِتـاباً نَقْـرؤهُ قُلْ سبْحَـانَ رَبِّي هَلْ كُنْت إلاّ بَشَراً رَسُولاً ﴾[1] .

تقـع مكـة في أرض قـاحلة جـرداء ، لا مـاء فيهـا ولا زرع ، ولم يكن في مكـة يومئـذٍ ماء جـار ، والموجـود منه في الوقت الحاضر ويستفاد منه في منى وعـرفات ، يـأتي معظمـه من نهر الطائف ، والطائف تقـع على بعـد اثني‌عشر فـرسخاً إلى جنـوب مكـة ، حيث أمـرت زبيـدة ، زوجـة هـارون الـرشيد الخليفـة المقتـدر ، فخصص مـال وافـر ـ وهي التي كان تحت تصرفهـا بيت مال المسلمـين ـ لحفر جبـل الطائف وإيصـال نهر منه إلى مكـة . أمـا في عصر النبي ، فلم يكن في مكـة ماء سـوى ماء زمـزم ، وهذا أيضـاً لم يكن بالـوفرة الموجودة حـالياً لأنهم وسعـوا في حفر البئـر بعد ذلـك فازداد ماؤها .

قـال كفـار قـريش ومخـالفـو النبي ، انهم لن يؤمنـوا حتى :

١ ـ يفجر لهم الماء من الأرض .

---

(١) سورة الأسراء ـ آية : ٩٢ ـ ٩٦ .

٢ ـ لما كانت مكة خالية من كل زرع أو بستان ، فقد طلبوا أن تكون له بستان فيها أشجار العنب وأنهار تجري .

٣ ـ اذا كان يظن كما يقول ، أن العالم سوف يختلف في يوم القيامة ، وأن السماء والأرض تتداخلان ، فليعمل شيئاً الآن لتنزل السماء قطعاً .

٤ ـ يأتي بالله وبالملائكة من السماء لتأييده .

٥ ـ أو أن تكون له دار مليئة بالمال .

٦ ـ أو أن يصعد إلى السماء ليأتي منها برسالة يقرأونها ، تؤيد نبوته .

هذه هي الشروط التي أوردوها للإقرار به . ولكنه رد عليهم بأنه بشر عادي ، يحمل إليهم رسالة .

بهذه الآية يتشبث المعترضون قائلين إن الكفار طلبوا من الرسول ستة أنواع من المعاجز ، فرد الرسول : سبحان الله ! ما هذا الذي تطلبون ؟ كيف تطلبون المعاجز ، وأنا لا قدرة لي على الاتيان بها ؟ .

وهذه الآية هي نفسها التي استدل منها المسيحيون على أن النبي لم تكن له معاجز وكذلك استند عليها عدد من المتنورين الذين قالوا إن المعجزة تنفع في عصر طفولة البشر ، ولما كان النبي ، في عصر بلوغ الفكر ، كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة .

كـلاهما قـد جـانبـا الصـواب ، وهـا نحن نكشف عن الأمر .

سبق أن قلنـا إن المعجزة ليست مستحيلة ، عـلى اعتبار أن المستحيـل هو كـل ما لا يمكن حـدوثـه عقـلاً ، وحتى لمن كـانت له قـدرة غير متنـاهية ، يبقى المستحيـل ، مستحيـلاً ليس لأنــه غـير قــادر عليـه ، بــل لأن الأمــر غــير ممكن الوجود ، إنـه العدم بـذاته ، الفـراغ نفسه ، فـالأمر الـذي حقيقته عدم الوجود ، لا يمكن أن يتحقق له وجود .

وعـليــه ، فــان طلب المـعجــزة يختـلف عـن طـلب المستحيـل ، لأن المعجزة ، كـما قلنا ، هي وقـوع أمـر عـلى خـلاف النامـوس الطبيعي الجـاري ، ولكنـه بذاته ممكن الـوقوع بقـدرة خارقـة للطبيعة . هـذه نـاحيـة ، والنـاحيـة الأخـرى هي إننا قلنـا إن عـلى جميـع الأنبيـاء أن تكـون لهم معـاجز ، عـلى أنها آيات وأدلـة على صحـة دعـاواهم بـأنهم رســل من الله . . . وهــذا يكفي ، ولكن هــل الأنـبيــاء ملزمـون أن يحققوا للنـاس كل مـا يطلبـون ؟ لو كـان الأمـر كذلك لأصبحوا من المشعوذين والسحرة اللاعبين بالثعابين .

يـأتي الناس وقتـما مـا يشتهـون ويجلسـون أمـام النبي ، ويقولون : إذا كنت نبياً افعل لنا الشيء الفلاني الـذي نطلبه منك . ثم تأتي جماعة أخرى ، وهكذا . هذا استهزاء ! .

إن الـرسول يـأتي من المعاجـز بالقـدر الـذي يثبت إنـه رســول من الله . ومـا ان يلقي عليهم الحجــة حتى ينتهي الأمر ، ولن يرضخ لهم وإن ألحوا إلحاحاً شديداً .

وعـلى حد تعبـير العلماء ، فإن الأنبيـاء غـير ملزمـين أن يعملوا عـلى وفق اقتراحـات الناس . أي إن الأمـر ليس كما لـو كان طفـل يبكي ، فتحمله أمه إلى رسـول الله وتقـول : مـا دمت نبياً قـادراً على المعـاجز ، فحبـذا لو قمت بمعجـزة صغيرة تسكت بها هذا الطفل .

كـلا ، المعجزة دليـل يستـطيـع بهـا طـالب الحقيقـة أن يـدرك الحقيقـة أن يقبـل بمن يـأتيــه فيقـول : إذا أردتني أن أؤمن فاعطني كذا مقداراً من المال .

لقــد أتت الــرســل لكي يؤمن الـنــاس ، والايمــان والمسـاومة لا يجتمعـان ، بل إنهم يحثـون الناس عـلى البـذل والعـطاء ، أي إنهم يطالبـون النـاس بـأن ينفقـوا في سبيـل الله .

وإن ممــا يلفت النـظر هــو أنـه عــلى الـرغم من أنهم يـدعون النـاس الى الانفاق وإلى الجهـاد ، فـأنهم لا يتقبلون كـل أنواع الانفـاق . فعندمـا يـأتيهم من يقـول : أريـد أن أنفق مالاً فيما تأمرني به ، فاذا أحسوا أن إنفاقـه هذا يقصـد منه التبجح فلن يقبلوا منه ذلك ، أو إذا جـاء أحدهم وقـال

إني أريــد أن أكــون من جنــد الاســلام يســأل عن دافعـه للإنخراط في سلك الجنـدية ، فيقـول لأني أحب أن يـذكـر التاريخ اسمي ، فانهم يطردونه قائلين لـه : ما هجـرت إلى الله . أي إنك تفتقر إلى الإخلاص والإيمان .

وعـلى ذلك ، يتضح معنى الآيات جلياً فالآيـة الأولى تقول :

﴿ لَـنْ نُؤْمِـنَ لَـكَ حَتّـىٰ تُفَجِّـرَ لَنَـا مِـنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ .

ثمـة فرق بين القول « لن نؤمن لــك » و « لن نؤمن بك » . فالثـانية تعني : نؤمن بـك والأولى تعني : نؤمن من أجلك .

فهؤلاء لم يقـولـوا : لن نؤمن بـك ، بـل قـالـوا : لن نؤمن لـك ، أي إننا لن نؤمن من أجلك وبعبـارة اخـرى ، يقـولون : إذا كنت تـريـد أن نصبح من أتبـاعـك ، وهـذا طبعـاً في مصلحتـك ، فعليـك أنت أيضـاً أن تفعـل شيئـاً لمصلحتنا .

« حتى تفجـر لنا » الـلام تفيد الملكيـة المصلحية ، فمن الواضح إنهم كانوا يريدون جـريان العـين لمنفعتهم ، وليس هذا طلباً لمعجزة ، بل طلب لمعاملة مقايضة .

﴿ أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَفْجيراً ﴾ .

لا شك في انه لو كان للنبي في مكة بستان ذات نخيل وأعناب ، لما وزع ثمارها على الملائكة ، بل على أهل مكة . فهذا أيضاً ليس طلباً لمعجزة بل هو طلب مصلحي ، أي إنهم كانوا يريدون من النبي أن يحيل مكة إلى الطائف ، مكة التي لم يكن فيها ماء ولا بستان ، تتحول إلى مدينة مثل الطائف مليئة بالبساتين والأشجار والمياه .

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسفاً ﴾ .

لو جاء أحد فطلب معجزة قائلاً إذا كنت صاحب معاجز ، فلتكن معجزتك أن تقتلني ! أفهذا طلب معجزة ؟ كلا ، إذ ما نفع المعجزة بعد أن يكون قد قتل ؟ .

يقول كفار قريش : إنك تقول إن السماء تسقط يوم القيامة على الأرض ، فاذا كنت صادقاً فافعل ذلك الآن . فلو حقق لهم النبي هذه المعجزة ، فاحترقوا جميعاً ، فما كان نفع ذلك لهم ؟ .

﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ .

وهـذا أيضـاً طلب المستحيـل ، إذ ليس من الممكن أن يكلم الله عبيده مباشرة .

بـل لو كـان الله مثل البشر بحيث يـراه الناس بـأعينهم ويسمعونه بآذانهم ، لما بقيت حاجة إلى إرسال رسول .

إن الله الذي يعرفنا على رسوله ، ولـه المشرق والمغـرب ﴿ أينما تولـوا فثم وجـه الله ﴾ هـو الأول والآخـر والـظاهـر والبـاطن ، ليس جسـماً ، ولا هـو في السـماء حتى ينقلوه إلى الأرض .

إنهم يـطلبـون أن يتحـول الله بشـراً ، وهـذا أيضـاً مستحيـل . وكذلـك الأمر مـع المـلائكـة الـذين ليسـوا من جسم مـادي ، فلا يـرون ، وإن كانـوا أحيانـاً يظهـرون في صورة أفرادٍ من البشر ، فيـراهم بعض الناس ، فهم ليسـوا من جنس البشر ، ولا من جنس المـادة حتى يمكن للجميـع أن يروهم . فهذا أيضاً طلب غير معقول .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ .

هـذا أيضاً طلب مـادي جنوني محض . لقـد كانـوا من عبيد المال إلى درجة لم يكونوا يفهمون شيئاً غيره .

والـطلب الأخـير واضـح أيضـاً ، ولا يعـدو أن يكـون ذريعة ، إذ لو فرضنا أن الرسول جـاء برسـالة من السـماء ، لعادوا يقولون : إنك أنت الذي كتبتها .

على كل حال ، بعض هذه الطلبات جنونية ، وبعضها من باب الحمق وليس فيها ما يدل على طلب الحقيقة .

ولهذا يرد عليهم الرسول بأنه ليس سوى بشر مرسل اليهم . وما يطلب من الرسول ينبغي أن لا يكون جنونياً ولا أحمق .

إذن ليس الأمر كما يقول أولئك الكتاب ، بأن هذه الطلبات تشبه طلبات الأمم السابقة من أنبيائها ، وأن نبي الاسلام كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة . كلا ، إذ لو كان طلب هؤلاء معقولاً وباحثاً عن الحق ، لما ردهم رسول الله .

وإذا ما تغاضينا عن كل ذلك ، نرى أن القرآن يذكر العديد من معاجز الأنبياء السابقين ، كنوح ، ولوط ، وهود ، وصالح ، وموسى ، وابراهيم ، وعيسى ، وغيرهم . يورد لهم معاجز متنوعة لا يعتورها الشك والتردد .

فهل يعقل ان يعدد القرآن هذه المعاجز للأنبياء ، ثم عندما يطلب من الرسول معجزة يقول انه مجرد رسول فحسب ؟ فلو كان الأمر كذلك ، لكان من حقهم ان يسألوا : أو لم يكن الذين ذكرت معاجزهم أنبياءً مثلك ؟ أوليست تلك معاجزهم ؟ .

إذن يتضح إن معنى الآية هو إن ما تريدونه ليس من نوع تلك المعاجز ، فلو كانت لحققتها لكم .

ثم على الرغم من أن القرآن هو نفسه معجزة ، وسوف نبحث في ذلك قريباً ، وهو منصوص عليه في القرآن ، أفلم تكن للرسول معجزة أخرى ؟ .

إن القرآن نفسه يشير إلى عدد من معجزات نبي الاسلام بصورة صريحة ، منها :

﴿ سبْحَانَ الّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إلى ٱلمَسْجِدِ الأقصَىٰ ٱلَّذِي بارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيهُ مِنْ آياتِنَا إنَّهُ هُوَ ٱلسَمِيْعُ ٱلبَصِيرُ ﴾[1] .

هذا قول صريح عن رحلة جسمانية غير عادية قام بها الرسول الكريم . أفليست هذه معجزة ؟ .

ففي الوقت الذي كانت فيه واسطة النقل هي البعير ، فلا طائرت (جت) ولا (جامبو) ، يسافر الرسول من المسجد الحرام إلى فلسطين في ليلة واحدة . فكيف يمكن تعليل هذا بغير المعجزة ؟ .

عندما نزلت هذه الآية قال كفار قريش ، ما دليلك على ما تقول ؟ فرد عليهم الرسول بأن وصف لهم القافلة

---

(١) سورة الأسراء ـ آية : ١ .

التي كـانت في الـطريق إلى مكـة من الشـام ، وأنهم قـد أطـرقوا في المكـان الفلاني ، وقـالوا كيت وكيت . فـادركت قريش إنه مر بالقافلة .

ثم قصة انشقاق القمر :

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ وَإِنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[1]

٦ ـ إعجاز القرآن :

نعـرف إن نبيّنـا خـاتم الأنبيـاء ، وإن دينـه خـاتم الأديان وخالد ، بل إن الـرسل السـابقين كـانوا مقـدمات ، ومراحل أوليـة ، إذ كان الانسـان أيضاً يمـر بمراحـل ويخلف مـراحل ، حتى يتهيـأ للمرحلة النهـائية ، وعنـد مجيء خاتم الأنبيـاء ، لن يكـون نبي بعـده ، ويبقى دينـه خـالـداً إلى الأبد .

فلننظر ما سرّ ختم النبـوة . ولكيلا نـدخل في تفـاصيل هـذاالموضـوع ، أصدرنـا رسالـة صغيرة تحت عنـوان (ختم النبوة) إلا أننا نشير هنا إلى نقطة واحدة بهذا الخصوص .

إن الـدين الخاتم لـلأديان يختلف عن الأديـان الأخرى

---

(١) سورة القمر ـ آية : ١ .

في كثير من سماته . ومنها خصوصية معجزة الدين الخاتم للأديان ، أقصد معجزته الأصيلة .

معاجز الأنبياء السابقين كانت من المعاجز الطبيعية ، مثل إحياء الموتى ، تحول العصا إلى حية ، وآنفلاق البحر ، وأمثالها . . .

هذه كلها حوادث موقتة ، أي إنها تحدث في لحظة معينة ومكان معين ، ولا تبقى طويلاً .

فإذا تم إحياء ميت ، فان ذلك يتم في لحظة واحدة ، وقد يبقى حياً بضعة أيام ، ولكنه يموت في النهاية وينتهي كل شيء .

وإذا انقلبت العصا حيّة ، فهي تنقلب في بعض ساعة ، ثم تعود إلى ما كانت عليه .

إن معاجز الأنبياء السابقين من هذا القبيل ، بل إن إن بعض معاجز النبي أيضاً من هذا القبيل ، مثل الاسراء ، وانشقاق القمر ، فهي تحدث في ليلة وتنتهي .

ولكن بالنسبة لدين خالد يريد أن يبقى قروناً طويلة بين الناس لن تكفيه معاجز موقتة قصيرة العمر . إن ديناً هذا شأنه ينبغي أن تكون له معجزة خالدة أيضاً .

لذلك فان معجزة خاتم الأنبياء الأصيلة جاءت على هيئة كتاب . كان للأنبياء الآخرين كتب ومعاجز ، إلا أن

كتبهم لم تكن معاجز ، ومعاجزهم لم تكن كتباً .

كانت التوراة كتاب موسى ، ولكنه كان يقول إن كتابه ليس معجزة ، وإن معجزته غير التوراة .

ولكن معجزة رسول الاسلام كتابه على التخصيص ، ولا يعني هذا أنه لم تكن له معاجز أخرى ، بل يعني أن كتابه أيضاً معجزة ، وهذا من مستلزمات خلود خاتم الأديان .

ثمة نقطة أخرى هي الدين الخاتم للأديان ، ويعد أحد أسرار الختم ، فهو بالنسبة الى المراحل السابقة يعد بمثابة مرحلة التخصص النهائي لمراحل ابتدائية ، أي إنها المرحلة التي يكون للانسان فيها وجهة نظر .

فالطالب في مرحلتي الابتدائية والثانوية يستمع لكل ما يقال له ويتعلم ، ولكنه عندما يبلغ مرحلة الجامعة ، ويبدأ باختيار مراحل التخصص ، أي مرحلة الليسانس ومرحلة الدكتوراه ، عند ذلك يكون في مرحلة تكوين وجهة نظره ، والاجتهاد في فنه .

فمرحلة ختم الأديان ـ من حيث النظرة العامة للبشر ، لا من حيث النظرة الخاصة للفرد ـ هي مرحلة تكوين وجهة النظر .

وفي هذه المرحلة يكون للبشر شأن في المسائل الدينية

والاجتهاد . هل كان هناك مجتهدون في الأدوار السابقة ؟ كلا ، فكل ما يوجد في القرآن من تعابير عن الفقه والتفقه لم يكن له وجود في السابق بأي شكل من الأشكال .

إن ما يقوم به المجتهد اليوم بقوة العلم والاستدلال والاجتهاد ، كان من عمل الأنبياء في السابق ولكن لا بقوة الاجتهاد ، بل بقوة الوحي والنبوة .

في الحقيقة ، لم تكن في تلك الأديان أرضية للاجتهاد ، لأن الدين هو الذي عليه أن يهيء أرضية الاجتهاد ، أي إن الدين يجب أن يبين الأصول والضوابط الكلية . لكي يتمكن عدد من المتخصصين من الاستناد الى تلك الأصول والضوابط الكلية ، ويُعملون أفكارهم فيها لاكتشاف المسائل الجزئية .

ولما كانت الأديان السابقة بمثابة دروس أولية ، لم تكن تستطيع تبيان الأصول والكليات وشرحها لأن البشر لم يكن قد تهيأ بعد لتقبلها .

ثمة مقولة ترى إن هناك أنبياء مرسلين وغير مرسلين . الأنبياء المرسلون أولوا الشرائع والقوانين ، مثل ابراهيم وموسى ، وعيسى ، والأنبياء غير المرسلين هم التابعون الذين كانوا يبلغون شرائع اصحاب الشرائع ، إذ انهم لم يكونوا أنفسهم من أصحاب الشرائع .

إن مـا يقوم بـه المجتهدون اليـوم هو مـا كان يقـوم بـه الأنبياء غير المـرسلين . طبيعي ان عمل المتجتهـد لا ينحصر بهـذا فحسب ، فهو بالاضـافة إلى كـونـه متجهـداً ، فـإنـه حـاكم شرعي ، وقـائد لـلأمة ، وآمـر بـالمعـروف ونـاهٍ عن المنكـــر بـين النـــاس ، والمصلح بينهم ، لأنـــه المسؤول عن اصلاح المفاسد .

وهـذا ما كـان يضطلع بـه الأنبياء السـابقـون ، أمـا في هـذا الـدين الخـاتم لـلأديـان ، فلن يبعث رسـول جـديـد ليضـــطلع بهـــذا الأمـــر ، وانمـــا هو قد ألقي عـــلى عـــاتق المجتهدين .

ولهـذا قال الـرسـول الكـريم : علماء أمتي كـأنبيـاء بني اسرائيل . والمقصود طبعاً أولئـك الأنبياء الـذين كان عملهم يقتصر عـلى التبليـغ والتفهيم والتعليم والتـرويـج لشـــريعـة موسى .

لـذلـك نحن نقـــول إن الأدوار السـابقـة كـانت أدوار الوحي ، أي إنه كان على الأنبيـاء أن يقومـوا أيضاً بـالتبليغ والترويج ، ولكن في مـرحلة الدين الخـاتم للأديـان ، يقوم العلماء ، وليس الأنبيـاء ، بـالتبليـــغ والتـرويـــج واستنبـاط الكليات من الجزئيات .

فالعلماء ، إذن ، من هذا المنـظور ، وفي هذه الحـدود لا

أكثر ، هم خلفاء الأنبياء ، لا كل الأنبياء ، بل خلفاء الأنبياء المرسلين .

وجوه اعجاز القرآن :

يكمن اعجاز القرآن عموماً في جانبي القرآن اللفظي والمعنوي ، أي الجانب الجمالي والفني ، والجانب العلمي والفكري .

وبما ان مقولة الفن والجمال تختلف عن مقولة العلم والفكر ، فالجمال يرتبط بالفن ، والعلم بالاكتشاف ، فالعلم هو ما يكشف للانسان حقيقة من الحقائق ، والفن هو ما يخلق الجميل البديع .

لا شك إن للفن والجمال موضوعاتهما ومقولاتهما ، وواحدة من تلك الموضوعات هو الكلام . والحقيقة إن الانسان لا يسحره موضوع من مواضيع الفن بأشد مما يسحره الكلام الجميل .

لنا أن نقسم الجمال إلى قسمين : الجمال الحسي ، والجمال الذهني . والأول ينقسم ايضاً إلى سمعي وبصري .

فجمال الورد والحدائق يدخل ضمن الجمال البصري ، وجمال الصوت في المغني من الجمال السمعي .

فهل جمال الكلام من هذا النوع الأخير؟ كلا ، إذ أن جمال الكلام ليس من الجمال الحسي ، أصلاً ، بل هو من الجمال الذهني القادم عن طريق الحس .

ما أشد تأثير قصيدة رائعة أو قطعة نثر بديعة ! خذوا مثلاً نثر سعدي وشعره ، وهو يمازج بينهما في كثير من الأحيان ، فتراهما وقد احتضن كل منهما الآخر في تآلف جميل ووصف بديع بحيث أن « كَلستان » سعدي ما يزال يحتفظ برونقه وبهائه ، على الرغم من مضي سبعة قرون على موت مؤلفه .

فكيف حصل هذا ؟ إنه الجمال ، جمال الفصاحة والبلاغة .

هنالك شاعر آخر اسمه (القاآني) من معاصري سعدي نفسه ، ومن شيراز نفسها ، أراد أن ينافس سعدي في شعره ، بل كتب ديواناً مثل « كَلستان » سَعدي ، ولكنه لم يبلغ شأوه .

يقال أنه في احدى الليالي الشتائية كان نفر من الخلان قد اجتمعوا في دار أحدهم بشيراز متحلقين حول النار يستدفئون وينشدون الشعر ، فقرأ أحدهم قصيدة للشاعر سعدي ، حتى وصل إلى هذا البيت :

«أيتهـا السـماء اغلقي لحـظة نـافـذة الصبـح
بـوجه الشمس ، فـما اطيب الليلة مع قمـري»[1]

وكـان « القاآني » الشـاعر حـاضـراً ، فـانتشى وطـرب وقال : هذا الرجل لم يبق مـوضعاً لشـاعر ! وقـذف بديـوانه شعره في النار فاحترق ، وقـال : إذا كان هـذا هو الشعـر ، فليس لنا نحن أي موضع فيه .

وعليه ، قد يكون بعض الشعر عـلى درجة من العـذوبة والجمـال بحيث إن شاعـراً مثل « القـاآني » وهـو نفسـه من أساتذة الكلام ، يقع تحت تـأثير شعـر يحمله على الاعتـراف بعلو منزلة ذلك الشعر ، وبتدني منزلة شعره هـو . هذا هـو تأثير الكلام .

ما الذي أبقى على شعر حـافظ ، وشعر مـولوي ؟ إنـه جمال شعرهما ، إذ أن جمال الكـلام ، أو كما يقـول العلماء : الفصاحة ، والبلاغة ، والوضوح ، والايصال ، والابداع ، والجاذبية ، والسحر أمور لا يمكن إنكارها .

يتفق علماء اللغة ، والمطلعـون على لغـة القرآن ، وحتى الأجانب الذين درسوا اللغة العربية عـلى أن القرآن لا مثيـل

---

(١) بِبَنـد يـكْ نَفس آسمـان دَريچهٔ صُبـح
بـر آفتـاب كـه إمشب خـوش است يـا قمرم

له من حيث الفصاحة والبلاغة والجمال .

فالقرآن يمتاز بصياغة خاصة ، فلا هو بالشعر ، ولا هو بالنثر ، مع إن كل العرب إما أن يكون شعراً أو نثراً . وكون القرآن ليس شعراً ، واضح لأنه يخلو من الوزن والقافية والمعروفين في الشعر القديم .

وبالاضافة الى خلو القرآن من الوزن والقافية ، فانه خلو أيضاً من أحد أركان الشعر الأخرى ، وهو الخيال ، إذ انه يشرح الأمور بغير أن يستعمل تعابير خيالية . ونقصد بالخيال تلك التشبيهات المبالغ فيها التي ترد في الشعر كثيراً ، حتى قيل : أحسن الشعر أكذبه ، فكلما ازداد فيه الكذب ازداد جمالاً ، كما يقول الشاعر فردوسي :

« من حوافر الخيل في ذلك الوادي الفسيح
غدت الأرض ستة والسماء ثمانية »

كل من يسمع هذا يقول : أحسن وأجاد . ولكن ما أكذبه ! أبالإمكان قول كذبة أكبر ؟ أيمكن بمجرد أن يركض عدد من الخيل في مكان ضيق ، ويعلو الغبار ، تزداد طبقات السماء السبع فتصبح ثمانية ، أو تقل طبقات الأرض السبع الى ست ؟ .

إنها لكذبة كبيرة ، ولكن الشعر لذلك جميل .

وثمة شاعر آخر يقول :

« يـا رب ، مـا عـين الحب هـذه التي أنـا
منهـا شـربت قـطرة مـاء فبكيت بـحـراً[1]
وقـام طـوفـان نـوح حيـاً من دمـع عـيني
مـع أني في حزني عليـك بكيت على حـذر »[2]

عـذب وجميـل هـذا ، ولكنـه عـذب بهـذا الكـذب . وطبيعي ، إن هذا ليس كذبـاً منهياً عنـه شرعـاً ، ولكنه فن ولـون من ألوان الـوشي في الكلام . ولكن القـرآن لم يقـرب هذا اللون من القول .

ثم إن هـذا الضـرب من المحسنـات الكـلاميـة يـلائم أنواعاً خـاصة من المـواضيع : في الحب ، في الحمـاسة ، في المدح ، في الهجاء ، أما في المواضيع المعنويـة فليس بامكـان أي شـاعر أن يـظهر فنـه ، وإذا حـاول بعض منهم ذلـك ، فسـوف يضـطر إلى البـاس المعنى لبـوس المـادة فيجسمـه ، ويتحدث عنه .

فمثـلاً ، إذا أرادوا الكلام عـلى المعرفـة ، جسموهـا في

---

(١) يـا رَب چه چشمـه ايستْ محبت كه من از آن
يـك قـطره آب خـودم ودريـا كـريستم

(٢) طوفان نـوح زنده شـد از آب چشم من
بـا انكـه در غمت بمـدارا كـريستم

زي « الخمر » أو إذا أرادوا القول في الله سبحانه ، عبروا عنه بخصلة الشعر ، أو في الغناء في الله والتقرب اليه ، يقولون :

الخرقة رهينة في مكان ، والدفتر في مكان آخر ، وأمثالها .

ولكن القرآن يتناول المعنويات بكل يسر وسهولة كالماء الرائق ، ويشرحها .

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ـ الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ـ الرَّحْمَن الرحيم ـ مَالِكِ يَومِ الدِينِ ـ إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعين . . . ﴾ .

لا ريب ان كل مسلم يكرر هذه الآيات عشر مرات ، في الأقل ، يومياً وطول حياته ، ولكنه لن يضجر منها ولا يملّها لما فيها من العذوبة والرقة .

فالقرآن ، إذن ليس شعراً ، لأنه يخلو من الوزن والقافية ، بل بينت فيها الأمور بصراحة ، وبغير توسل بالخيال .

ولا هو نثر ، لأن النثر لا يمكن تلحينه ، وما أعجب ألحان القرآن !

أفهل رأيتم كتاباً ، دينياً أو غير ديني ، يقرؤه الناس بألحان مختلفة ؟ .

إن الكتاب الوحيد الذي يمكن أن نقرأه باللحن هو القرآن ، وهذا ما يعتبر الآن فرعاً من فروع العلم . فالآيات المختلفة تصلح لألحان مختلفة ، أي ان هناك الحاناً مختلفة لمعاني تناسبها . فاذا كان الآية للتخويف مثلاً ، اتخذ لها لحن يرعب القلب . وإذا كانت الآية تشويقاً وترغيباً ، وضع لها لحن يمنح الهدوء والاطمئنان .

إذهبوا إلى دنيا المسيحية بعظمتها ، واتساعها ، وإلى اليهود الذين يحتلون فلسطين ، فهي وان كانت رقعة صغيرة ، إلا ان اليهود متسلطون على معظم إذاعات العالم ووكالات أنبائه ، هل تسمعون الإنجيل والتوراة يرتلان ترتيلاً من وراء المذياع ؟ لئن قرأوهما باللحن لكانا مدعاة للسخرية ، ولا يطيقها أحد . أو يمكن قراءة نثر سعدي باللحن ؟ .

هذا من مميزات القرآن ، لم تسبق لغيره باللغة العربية ولا من بعده .

من الأمور اللافتة للنظر هو ان جميع الذين حفظوا القرآن ، وعشقوه ، وهم أنفسهم كانوا من فصحاء زمانهم ، لم يستطيعوا تقليده حتى بسطرين اثنين .

لقد تقبلت الدنيا علياً (عليه السلام) فصيحاً بليغاً . وهذا ما تطرقت اليه في كتابي (جولة في نهج البلاغة) وقلت : كيف إن خمسين وثلاثمائة وألفاً من السنين تمضي

عـلى علي (عليـه السـلام) وخـطبـه ـ مـع إن أكبـر الأدبـاء والفصحاء والخطبـاء كانـوا في عصره وجـاءوا بعده وذهبـوا ـ وهي ما تزال باقية على عظمتها وروعتها .

إن الآيـة الأولى التي نـزلت من القـرآن ﴿ إقـرأ بـاسم ربـك الذي خلق ﴾ سمعهـا علي (عليـه السـلام) وهـو في العـاشـرة أو الحـاديـة عشر من عمـره ، قبـل ان تـرتسم في ذهنـه أية أفكـار أخرى ، فكـان استعداده للتلقي مـوفوراً ، وظل يستأنس بالقرآن طيلة حياته . لو كان أحـد قادراً عـلى الكلام مثل القرآن لكان علي بن أبي طالب (عليه السلام) أجدر الناس بـذلك ، ولكننـا مع ذلـك ، عندمـا نضع نهج البلاغة إلى جانب القرآن نجدهما مختلفين .

إني مـا زلت أتذكـر أواخـر أيـام دراستي يـوم كنت قـد تعرفت على القرآن وعلى نهج البـلاغة . ففي لحـظة خاطفـة تكشف لي الاختلاف الشاسع بينهما .

كنت قـد قرأت نهج البـلاغة . كـانت إحـدى الخـطب تضم الكثـير من التشبيه والاستعـارة ، وهي من أبلغ خطب البشر وأفصحهـا . وهي خطبـة كلها وعظ وتـذكير بـالموت وباليوم الآخر . انها خطبة مثيرة حقاً ، يقول :

« دارٌ بِـالبَـلاء مَحْفُـوفـةٌ ، وبـالغـدر معـروفـة لا تـدوم أحـوالُهـا ، ولاِ يَسلَمُ نـزالهـا ، أحـوالٌ مختلفـةٌ ، وتـارات

متصرفة ، العيشُ فيها مذمـومٌ ، والأمان منهـا معدومٌ ، إنمـا أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهِمْ بسِهامِها . . . »[1] .

وفي آية واحدة من القرآن نقرأ :

﴿ هُنـالِـكَ تَبْلُو كُـلُّ نَفْسٍ مـا أَسْلَفَـتْ وَرَدُّوا إلىٰ الله مَوْلاهُمُ الحَق وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانوا يَفْتَرُون ﴾[2] .

عـلى الـرغم من ان كـلام عـلي (عليـه السـلام) يبلغ القمـة من البـلاغـة ، ولكنـك إذ تـرى هـذه الآيــة وسط كلامه ، تحس وكأن ماءً قد أريق على مـا حولهـا من كلام ، فتبدو هي كالنجمة في ظلام الليل .

إن الأسلوب مختلف أصـلاً ، وإن ما يحس بـه الانسان يستعصي عـلى البيان ، فـالآيـة تجسم يـوم القيـامـة الى حـد الجلاء الكامل ، وكيف إن ان العبد يعود الى سيده الحق ، من بين هذه الكثرة الكاثرة من الاسياد الباطلين .

كـان عصر القرآن عصر الفصـاحة والبـلاغـة ، أي إن كـل فنون النـاس كانت منحصـرة في الفصاحـة والبلاغـة . وقصة سوق عكاظ معروفـة ، حيث كانت العـرب تقصدهـا

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٢٧ .

(٢) سورة يونس ـ آية : ٣٠ .

في الأشهر الحرم ، يعرضون فنونهم من شعر وغيره . كان الشعراء يقدمون من مختلف القبائل ، ينشدون خير ما عندهم من شعر ،وما كان ينتخب كأحسن العشر كان يعلق على ظهر الكعبة فالمعلقات السبع المشهورة كانت تعتبر من أروع الشعر عند العرب ، وظلت طويلاً معلقة ، لأن احداً لم يأت بخير منها . ثم عندما نزل القرآن ، جاءوا هم بأنفسهم ورفعوها عن جدار الكعبة .

كان لبيد بن زياد من مشاهير شعراءالعرب ، ولكنه كف عن نظم الشعر بالمرة بعد أن نزل القرآن وأسلم ، وعكف على قراءة القرآن .

قيل له لِمَ لم تنظم الشعر بعد اسلامك ؟ .

فقال : لا أستطيع قول الشعر . إذا كان هذا هو القول ، فان كل ما قلناه كان كلاماً فارغاً . إن لذتي بقراءة القرآن لا تفوقها لذة .

في هذه الآية التي نحن بصددها ، يدعو القرآن الناس الى أن يأتوا بسورة مثل سوره ، وفي آية أخرى يقول ﴿ **فَلْيَأتُوا بِحَديثٍ مِثْلِهِ** ﴾ ويشمل الآية الواحدة أيضاً . أي إنه يقول : إن كنتم قادرين فهاتوا بآية واحدة من مثله .

ولكن على الرغم من أعداء القرآن الكثر ، سواء

الذين كانوا في عصره ، أم الـذين جاءوا بعـده ، فان احـداً منهم لم يستطع قبول هـذا التحدي . بـل حتى الذين جـاءوا في أيامنا هـذه ونسجوا اقـوالاً يعارضـون بها القـرآن ، فانهم عندما عرضوها على القرآن استبان خطل ما يدعون .

إذن فـاحدى وجـوه اعجـاز القـرآن هـو وجهـه الفني ، وهـو ما يصـطلح عليه بـالفصاحـة والبـلاغـة . إلا إن هـذا التعبـير يقصر عن ايصـال الحقيقـة ، لأن الفصـاحـة تعني الوضوح ، والبلاغة تعني الأبـلاغ ، إلا أنها لا تفي بايصـال المقصـود ، فيجب ان تضـاف اليهـما الجـاذبيـة التي تحكي سحر القرآن ، لأن القـرآن كان ينفـذ الى القلوب على نحـو خـاص عجيب ، بحيث كـان تـأثيـره سـريـع الـظهـور ، فيجذبهم نحو الايمان.

لقـد كان الكفـار ينعتون النبي بـالساحـر ، وهذا بحـد ذاتـه اعتراف ضمني بعجـزهـم عن الاتيان بـآية مثـل آيـات القرآن ، وهو دليـل على سحـره . فقد كـانوا يـرون شخصاً لا يحمـل أيـة عقيـدة ، مـا ان يستمـع الى القـرآن مـرة أو مـرتين ، حتى يقـع صريـع حبه والايمـان به . ولهـذا كانـوا يقولون انه السحر .

عندما كانت الأعراب تـدخل مكـة من الباديـة ، كانت تطوف بالكعبة حسب عاداتهـا ، فكان المشـركون يـوصونهم

أن يضعوا قطناً في آذانهم ، لكيلا يسحرهم الرجل الذي يخرج السحر في كلامه ، وكانوا يهيئون لهم القطن ، لكي يصموا آذانهم عن سماع القرآن .

واتفق أن جاء أحد زعماء المدينة يزور مكة ، فعرض له أحد المكيين يحذره من سحر محمد . يقول هذا الرجل : لقد حشوت أذني بالقطن حتى لم أكن لأسمع الطبول لو ضربت بقربي . ثم دخلت المسجد الحرام وأخذت أطوف . فرأيت رجلاً يتعبد ، لفتت ملامحه نظري ، ولاحظت شفتيه تتحركان ، ولكني لم أكن أسمع ما يقول .

وفجأة رحت أتساءل : ما هذا الذي قاله الرجل عن السحر ؟ ولماذا أصدقهم ؟ خير لي أن أنتزع القطن لأسمع ما يقول هذا المتعبد ، فاذا كان معقولاً في كلامه قبلته ، وإلا رفضته . فأخرجت القطن من اذني ، ودنوت منه ورحت أصغي لما يقول . كان يقرأ آيات من القرآن بصوت خفيض ، وكنت أصغي وأحس قلبي يلين حتى عشقت الرجل .

ويدخل الرجل الاسلام ويصبح واحداً من كبار المؤمنين في الاسلام . ويهيىء الأمور لهجرة الرسول الى المدينة . بل إن بذر بذرة الاسلام في المدينة وهجرة

الرسول اليها يبدآن من هذه الجلسة[1] .

هذا التأثير هو السحر ، أو هو فن القرآن الجميل .

يتضح من تاريخ الأدب انه كلما تقادم الزمن ازداد نفوذ القرآن المعنوي في الأدب الاسلامي . أقصد ان الأدب العربي في صدر الاسلام ، أي في القرنين الأول والثاني ، كان موجوداً ، ولكن لم يكن للقرآن فيه ذلك النفوذ المطلوب ، ولكننا نجد هذا التاريخ يقع تحت سلطة القرآن بمضي الزمن .

من ذلك مثلاً تأثير القرآن في الشعر الفارسي الاسلامي . فالشاعر « رودكي » كان من شعراء القرن الثالث . وقد نظم كل شعره باللغة الفارسية . أي إننا لا نلحظ تأثر شعره بالقرآن كثيراً .ولكننا اذ نتقدم شيئاً فشيئاً إلى عصر فردوسي وبعده نلاحظ تأثيره القرآن بصورة أوضح .

وفي القرن السادس والسابع ، أي في عصر مولوي .

---

(١) هذه قصة أسعد بن زرارة وذكوان الخزرجي اللذين كانا قد قدما المدينة مبعوثين عن قبيلتهما ليعقدا حلفاً لمحاربة الأوس ، ولكنهما رجعا بقلبين مليئين بالايمان بالله واعدا العدة لهجرة الرسول .

نجد ان هذا لا حديث له إلا القرآن ، وكل ما يقوله تفسير للقرآن ، ولكن من منظور صوفي .

لقد كان ينتظر ان يكون هذا معكوساً ، أي إن تأثير أي أثر ادبي في عصره يجب ان يكون أكبر من تأثيره في آداب القرون التالية .

كان هذا بحثاً قصيراً في فصاحة القرآن وبلاغته ، أما القسم الثاني من اعجاز القرآن فيتعلق بجانبه المعنوي ، أي بمحتواه .

إذا نظرنا الى المباحث الإلهية في القرآن ، والى ما يقوله القرآن بشأن يوم القيامة والأنبياء السابقَين ، وإلى رأي القرآن في فلسفة التاريخ وفلسفة الأخلاق ، لتجلت لنا عظمته .

تلك هي قضايا من صلب رسالة القرآن ، لأن القرآن ليس كتاباً طبياً ، ولا هو كتاب هندسة للبناء والطرق ، إنما هو كتاب رسالته أن يهدي الناس .

إن للقرآن وجوهاً أخرى من الأعجاز ، مثل الأخبار بالغيب ، أو التنبؤ بالمستقبل ، وانسجامه وعدم وجود أي اختلاف فيه . وكل واحدة من هذه جديرة بالأسهاب

والتفصيـــل ، ولعـــل العمـــر يمهلنـــا لكي نبحث فيهـــا في جلسات تاليات[1] .

(١) ارى أن هـذا لم يتحقق ، مع الأسف الشديد ، فقـد تصـاعـدت الثـورة الاسلاميـة في ايران ، وأمضى الشهيـد كل وقتـه في اسناد الثورة وادامتها ، حتى بلغ أخيـراً مراده بـالشهادة في سبيـل الله ، ونعم المراد .

الفهرس